يناير ٢٠١٢ / العدد ٥

النور

للدراسات الحضارية والفكرية

الرؤية الحضارية في رسائل النور

- الرؤية الحضارية من خلال رسالة الاقتصاد
- العدالة الإلهية وإشكالية الشر في فكر النورسي
- الرؤية النُورسية لبعض القضايا الحضارية الشائكة
- قراءة تحليلية في النظرة النورية إلى المسألة الغربية

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January-July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Year 3, Number 5 (January 2012)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

Istanbul Ilim ve Kultur Vakfi,
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

للدراسات الحضارية والفكرية

تصدر عن مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم

THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الامتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenan@nurmajalla.com

رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com

المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير

أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛

د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الاستشارية

أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد الحليم عويس؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛ أ.د. عبد العزيز خطيب؛ أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛ أ.د. محسن عبد الحميد؛ أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛ د. محمد كنان ميغا.

الإخراج الفني

سعيد طاقطاق، مولاي الحسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي

ISSN: 1309 – 4424 (En-Nur)

الطباعة

يناير ٢٠١٢

Mega Basım – Haramidere / Istanbul
Tel: + 90 212 412 17 00

المركز الرئيسي

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com
www.iikv.org

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١– التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير– يوليو)، تصدر عن مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢– تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول (القرآن الكريم)، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

كلمة العدد: ..... أ.د. عمار جيدل ٣

الدراسات والبحوث

الرؤية النُورسية لبعض القضايا الحضارية الشائكة ..... أ.د. عبد الحليم عويس ٩
من معالم التجديد عند النورسي ..... أ.د. محسن عبد الحميد ٢٩
العدالة الإلهية وإشكالية الشر في فكر الأستاذ النورسي ..... ذ. إلياس بلكا ٤١

ملف العدد

من الأسس الفكرية والحضارية في رسائل النور ..... أ.د. العربي بوسلهام ٦٩
البعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي ..... أ.د. عبد المجيد النجار ٨٩
منهجيّة الاهتمام بعبادة التّعمير، سؤال استعادة الأمة وظيفة الشهادة
عند النورسي ..... أ. عبد الرحمن طيبي ١٠٧
الرؤية الحضارية من خلال رسالة الاقتصاد ..... أ.د. صباح الدين زعيم ١٢٧
قراءة تحليلية في النظرة النورية إلى المسألة الغربية (العالم الإسلامي والغرب:
الحوار والفهم المتبادل) ..... أ.د. قطب مصطفى سانو ١٤٥

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

الحوار: حوار مع الأستاذ بديع الزمان النورسي ١٦٩
الإصدارات (قراءة في كتاب): فقه المقاصد والحِكم في فكر بديع
الزمان سعيد النورسي ١٨٧
المؤتمرات والحلقات الدراسية: الندوة الدولية حول رسائل النور، بإيران ١٩٩
النشاطاط العلمية المستقبلية ٢٠٥
الاستكتاب للأعداد القادمة ٢٠٧
معلومات عن النشر في المجلة ٢٠٨
الاشتراك السنوي / Contents ٢٠٩

* ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية صرف.

كلمة العدد

كلمة العدد الخامس: أ.د. عمار جيدل

بسم الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نقدم للقرّاء الكرام العدد الخامس من مجلتهم ''النور للدراسات الفكرية والحضارية''، والعدد كسابقيه غني بالتنوّع الفكري ومسالك العرض والقراءة والبحوث، فقد سلكنا في هذا العدد ما سبق أن أكّدناه في الأعداد السابقة.

استهل العدد بالدراسات، وأسهم في هذا القسم ثلة من علماء الأمة من الشرق والغرب الإسلاميين، فكانت الصدارة لنوادر البحوث، واستضفنا فيها أحد رموز البحث التاريخي الجاد أستاذنا المرحوم أ.د. عبد الحليم عويس (رحمه الله)، فوفاء له نشرنا بحثه الموسوم بـ ''الرؤية النورسي لبعض القضايا الحضارية الشائكة''، ثم أدرجنا دراسة بعنوان ''من معالم التجديد عند النورسي'' للعلامة أ.د. محسن عبد الحميد أستاذ التفسير والفكر الإسلامي، والبحث ثري ببيان جوانب التجديد في رسائل النور، كما كان البحث الموسوم بـ ''العدالة الإلهية وإشكالية الشر في فكر الأستاذ النورسي'' ذ. إلياس بلكا المدرس بجامعة زايد بالإمارات العربية المتحدة، في السياق المشار إليه أعلاه، فكان بحثه بيانا وافيا لمسالك تجديد النظر في بعض مسائل الكلام المتكررة الوقوع في تاريخ الأمة.

أما القسم الثاني (الملف)، فقد خصص للرؤية الحضارية في رسائل النور، وعولج الموضوع من زوايا مختلفة، فاستهل الملف ببحث ''من الأسس الفكرية والحضارية في كتابة النورسي'' أ.د. العربي بوسلهام من كلية الآداب والعلوم الأساسية بالرباط.

فبيّن فيه الباحث الأسس بشكل جلي، استضفنا في السياق نفسه الرؤية الحضارية للدين كما تتجلى في العناية بالإنسان في الدرس العقدي، وفي هذا السياق كتب العلامة أ.د. عبد المجيد النجار ''البعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي''، فأكّد أهمية هذا البعد في استجلاب الاهتمام بالإنسان وأبعادها العقدية، وحاول في إطار

الرؤية الحضارية الباحث عبد الرحمن طيبي من جامعة الجزائر١ بعث الاهتمام باستشعار المسلم لوظيفة الشهادة، فكتب بحثه الموسوم بـ ''سؤال استعادة الأمة لمرتبة الشهادة عند الأستاذ النورسي- صور من مسلك التحسيس بالإشارة''، ومن مظاهر الاهتمام بالمسألة الحضارية أيضا ما كتبه العلامة أ.د. صباح الدين زعيم في دراسته الموسومة بـ ''في الرؤية الحضارية رسالة الاقتصاد''، وقد جلى الأستاذ أهمية الرؤية الإسلامية في التأسيس لإيجابية المسلم في الفعل الاقتصادي، ثم ختم ملف العدد بـ ''قراءة تحليلية في النظرة النورية إلى المسألة الغربية 'العالم الإسلامي والغرب: الحوار والفهم المتبادل' '' أ.د. قطب مصطفى سانو، فكان البحث درسا عمليا للحوار مع المخالفين، وبهذا كان جهد النورسي تنبيها متقدما لأهمية الحوار مع الغرب.

تكملة لما وعدنا به في الملف، عرضنا حوارات مع النورسي، وفق ما أثبته الأستاذ في رسائل النور، فكان القسم الأول منها خاصا بحوار في رؤيا، وهو وإن كان في رؤيا إلاّ أنّه كان حوارا في اليقظة، أتت كفلق الصبح، تجلت في هذا الحوار الرؤية الحضارية للدين والدور الحضاري المنتظر من المسلم في الوقت الراهن، أما القسم الثاني فهو امتداد لما سبقت الإشارة إليه، وعنونه الأستاذ النورسي بـ ''بحوار في مجلس دنيوي'' بيّن فيه ما يحتاجه المسلم من رؤية حضارية وحذّره من الأمراض التي تفقد المسلم المناعة الحضارية المطلوبة، وعلى راس ما نبّه إلى خطورته اليأس، ولا أريد أن أقطع الطريق على القارئ، فمن الأولى أن يتمتّع بقراءة هذه الحوارات فهي نص غني بالإيحاءات والتوجيهات الحضارية الراقية، المؤسسة للرؤية الحضارية للدين، تدفع أن فعّلت التناحر والتنافر بين المؤمنين، وتذكّرهم بالأخوة والرحمة والشفقة.

عرضت المجلة كما هي العادة، للمؤتمرات والإصدارات، فقد توقّفنا في هذا العدد عند الندوة الدولية عن رسائل النور التي نظمت يوم ١١ من ديسمبر ٢٠١١م، ونظمت الفعاليات بجامعة التقريب بين المذاهب بطهران، العاصمة الإيرانية، بالتعاون مع مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم، وألقيت المحاضرات في رحاب الجامعة المذكورة أعلاه، وشارك فيها جملة من الأكاديميين والباحثين من البلدين تركيا وإيران.

أما بالنسبة للمصنفات فقد عرف العدد بكتاب ''فقه المقاصد والحكم في رسائل النور'' وهو نشر لأعمال مؤتمر عقد علمي عقد في رحاب جامعة القرويين وبالضبط

في فرعها كلية الشريعة في أكادير، وقد ساهم في هذا المؤلف الجماعي ثلة من الأكاديميين والباحثين من مختلف البلاد الإسلامية مشرقا ومغربا.

وعرّفنا بعدها في العدد بالنشاطات العلمية المستقبلية لمؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم، مركزين على تلك التي تعقد في الجامعات العلمية العريقة.

وختمنا العدد بالاستكتاب، الذي ينتظر من الباحثين أن يسعفوا مجلتهم، بما يرونه صالحا، وفق مقتضيات اللحظة الراهنة.

أملنا في توفيق الله كبير، نسأل الله الكريم أن ييسر لنا خدمة أمتنا بتقديم ما ينفعها في حاضرها ومستقبلها، وتحقيقا لهذا القصد ننتظر من الباحثين أن إسهامات علمية نوعية جادة في منهجها ومضامينها.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

* * *

الدراسات والبحوث

الرؤية النُورسية
لبعض القضايا الحضارية الشائكة

أ.د. عبد الحليم عويس

نوادر البحوث

[وفاء وإكراما لمن عشق رسائل النور فتعلّمها وسهر على تعليمها في مصر وفي كثير من بلاد المسلمين، رأت إدارة المجلة نشر ورقة تقدّم بها الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس (رحمه الله)، لمؤتمر علمي دولي عن رسائل النور، عقد في إستانبول. غادرنا الأستاذ إلى عالم الخلد، ونسأل الله العلي القدير أن يتغمّده برحمته الواسعة، وقد وافاه الأجل في اليوم العاشر من ديسمبر ٢٠١١م، الأستاذ عويس من مواليد المحلة الكبرى بمصر سنة١٩٤٣. نال الشهادات العليا (الماجستير والدكتوراه) من جامعة القاهرة. ثم أصبح أستاذا في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض -السعودية- وتولى منصب نائب رئيس الجامعة لسنين في الجامعة نفسها. نشر له أكثر من خمسين مؤلفا في التاريخ الإسلامي وثقافته. أشرف على ما يقرب من ثلاثين رسالة ماجستير والدكتوراه. كما تولى منصب نائب رئيس جامعة روتردام الإسلامية، وحاضر في كثير من الجامعات في العالم الإسلامي، عمل مستشارا في كثير من المؤسسات العلمية في العالم الإسلام كرابطة العالم الإسلامي، ورابطة الجامعات الإسلامية، كما شغل منصب نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي، عمل في السنوات الأخيرة رئيسا لتحرير مجلة التبيان التي تصدر عن الجمعية الشرعية في مصر، كرّم في كثير من البلاد الإسلامية، كان آخرها تكريمه الرسمي في جمهورية السودان... وغيرها كثير، كما عرفناه محاضرا ومناقشا ومنافحا عن الرأي الذي ترجّحت عنده أدلته، كان عالما معطاء سخيا كريما يأنس ويؤنس، كما كان خطيبا مفوّها، رحمه الله الأستاذ ورزق أهله وأحبته الصبر والسلوان، إنّا لله وإنا إليه راجعون.]

توطئة:

عند الحديث عن بعض الجوانب الحضارية في فكر النُورسي تتزاحم قضايا كثيرة يشد بعضها بعضاً...

ذلك أن النُورسي عاش هموم أمته، محللاً أسباب تخلفها، باحثاً عن وسائل نهضتها، يقرأ – بعمق – كتاب الله المسطور "القرآن" ويتأمل -كذلك- كتابه المنظور "الكون" ليجد ما يقوده إلى علاج الحاضر وبناء المستقبل.

وقد كان صعباً أن نلم بكل الجوانب، ولهذا انتقينا ثلاث قضايا دالة على منهجه، يقود الوعي بها إلى خير كثير في فقه التاريخ والحضارة من منظور قرآني كوني متناغم متكامل...

وهذه القضايا هي:

الإنسان بين وظيفة المرآة العاكسة والفاعلية الحضارية.

مدرسة قرآنية تواجه حضارة الغرب المادية.

سائلين الله التوفيق والقبول.

الإنسان بين وظيفة المرآة العاكسة والفاعلية الحضارية.

لم يقدم لنا "بديع الزمان سعيد النُوْرْسي" -فى كلام مباشر- نظرية فلسفية يفسر من خلالها حركة التاريخ.

إنه أصلاً لم يحاول أن ينطلق من قواعد الانطلاق الفلسفية؛ لأن قاعدة انطلاقه كانت قرآنية خالصة، وكان يحافظ عليها من عوامل التأثير – أو التشويه الفلسفية؛ لا لأن قواعد الانطلاق القرآنية كافية فحسب، بل لأن إقحام فكر فلسفى مكون من أخلاط مشوبة بالتأثيرات المادية أو السوفسطائية من شأنه إفساد الرؤية أو قاعدة الانطلاق القرآنية!!

ومع ذلك فعندما أمعنت النظر في الرؤية "النُورسية" التي لاشك في أنها جديدة ورائعة حول كليات أسماء الله الحسنى وانعكاساتها فى الإنسان الذى جعله الله "مرآة" تنعكس عليها اسماؤه الحسنى، فتظهر قدرة الله المطلقة من خلال قدرة الإنسان النسبية ويظهر علم الله المطلق في مرآة علم الإنسان النسبي...

وهكذا تظهر آثار سمع الله "السميع" وبصر الله "البصير" وحكمة الله "الحكيم"..

أقول: عندما أمعنت النظر في هذه الرؤية التي يكاد (النُورسي) ينفرد بها على هذا النحو التفصيلي والتطبيقي والتمثيلي الرائع، أيقنت أن النُورسي كان يقدم رؤيته لأسماء

الله الحسنى رؤية تركيبية ذات إطار معرفي قرآني يفسر به حركة الإنسان... الإنسان كفرد... الإنسان كمجموع ''تاريخ وحضارة''... الإنسان وحركة الكون... وأما الآثار أو ما يسميه المنظرون لفلسفة التاريخ بالعامل الاقتصادي أو العامل الاجتماعي، أو الروحي أو النفسي... أو الفردي ''الصفوة – النخبة'' أو ''الجماعي – الاشتراكي''...

أما كل هذه العوامل فليست إلا بعض مظاهر لفاعلية الأسماء الحسنى في حركة الإنسان والكون، فاعلية رحمةٍ من (الرحيم الرحمن) فتنتهى إلى سعادة وصعود... أو فاعلية نقمةٍ من (المنتقم الجبار) فتنتهى إلى شقاء وسقوط!!

إن الله هو الفاعل فى التاريخ، وإليه يجب أن تعزى حركة الإنسان والحضارة والكون... و(الإنسان) هو المرآة العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى... وهو بالتالي – المأمور بنقل صورة هذه الأسماء إلى الحياة، إبداعا وإرادة وقوة وعدلاً وقدرة ورحمة... إنه المستخلف، وليست حقيقته الكبرى الأنية ''أنا'' إلا في القيام بوظيفة نقل أسماء الله الحسنى إلى عالم الأرض والكون... لأنه الوحيد من بين كل الكائنات –حتى الملائكة– الذى يملك الإرادة والحرية وعصيان الله وأيضا –طاعة الله – بطريقة اختيارية!!

إن ''أنا'' مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو في حد ذاته طلسم عجيب، ومعمى غريب، ولكن بمعرفة ماهية ''أنا'' يحل ذلك الطلسم العجيب وينكشف ذلك المعمى الغريب ''أنا'' ويفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجود.

وقال: ''اعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفى نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب – ظاهراً– إلا أنها منغلقة –حقيقة– فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون، والمفتاح – هو ما فيك من ''أنا'' إلا أن ''أنا'' أيضاً معمى ومغلق وطلسم منغلق فإذا فتحت أنا بمعرفة ماهيته الموهومة –وسر خلقته– انفتح لك طلسم الكائنات كالآتي:

إن الله جل جلاله وضع بيد الإنسان أمانة هي: ''أنا'' الذى ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة أي يكون ''أنا'' وحدة قياسية تعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية.[1]

ويقدم لنا النُوْرْسي -من خلال الكلمة العاشرة في مبحث الحشر- بعض الحقائق التي تومئ إلى تجليات الأسماء الحسنى فى التاريخ والكون:

الحقيقة الأولى: باب الربوبية والسلطنة، وهو تجلى اسم ''الربّ''.[2]

الحقيقة الثانية: باب الكرم والرحمة، وهو تجلى اسم ''الكريم والرحيم''.[3]

الحقيقة الثالثة: باب الحكمة والعدالة، وهو تجلى اسم ''الحكيم والعادل''.[4]

الحقيقة الرابعة: باب الجود والجمال، وهو تجلى اسم ''الجواد والجميل''.[5]

الحقيقة الخامسة: باب الشفقة وعبودية محمد ﷺ، وهو تجلى اسم ''المجيب والرحيم''.[6]

الحقيقة السادسة: باب العظمة والسرمدية وهو تجلى اسم ''الجليل والباقي''[7]

الحقيقة السابعة: باب الحفظ والحفيظة، وهو تجلى اسم ''الحفيظ والرقيب''[8]

الحقيقة الثامنة: باب الوعد والوعيد، وهو تجلى اسم ''الجميل والجليل''[9]

الحقيقة التاسعة: باب الإحياء والإماتة، وهو تجلى اسم ''الحى القيوم والمحيي والمميت''.[10]

الحقيقة العاشرة: باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، وهو تجلى اسم ''الحكيم والكريم والعادل والرحيم''.[11]

الحقيقة الحادية عشرة: باب الإنسانية، وهو تجلى اسم ''الحق''.[12]

الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل وهو تجلى ''بسم الله الرحمن الرحيم''.[13]

فنحن بإزاء فاعلية وظيفية محددة تتجلى فيها الأسماء الحسنى فترعى حركة الإنسان والحياة والكون، بحكمة وقدرة وعلم وعدل.

وفى الوقت نفسه قد تكون الرحمة أو الرأفة - مع الحكمة والعلم والقدرة والعدل متألقة في صورة من الصور، وقد تكون الجبارية أو الانتقامية متألقة فى صورة أخرى تستوجب حالتها العقوبة والتأديب.

إن المساحة الفسيحة للكون والحياة وتقلبات الأمور عبر هذه المساحة بين انسجام وصدام وعدل وظلم ورعاية الله العليم الخبير لهذه المساحة كلها، من خلال ''مفاتيح

الغيب'' التي لا يعلمها إلا هو... هذه الرعاية تشرق عبر مساحة الحياة والكون بتجليات إلهية تناسب كل حالة على حدة، وتحقق عدل الله ورحمته.

ولا يمكن القول بأن (الأسباب) الإنسانية أو الكونية الظاهرة أو غير الظاهرة، أو العوامل التي يبصرها الناس ويسمونها العوامل المادية أو الاقتصادية أو النفسية المحركة للتاريخ هي ''الفاعلة'' فليست إلا الشكل الذى يستطيع الناس أن يفهموه أو يبصروه أو يتعاملوا معه... أما الفعل الحقيقي فليس هو الظل الذى انعكس في المرآة وإنما هو الأصل أو هو الحقيقة المؤثرة نفسها، والتي قد يبصر الإنسان انعكاساتها في مرآة نفسه وقد لا يبصرها...

إنني أعتقد أن النُوْرْسي من خلال معالجته الرائدة لأسماء الله الحسنى قد اقترب بنا على نحو غير مسبوق من محورين خطيرين:

أولهما: لقد أصبح بإمكاننا إلى حد ما أن نفهم بعض ملامح تدبير الله للكون. لقد تطور فقه العبادات أو الدعاء الجاف الساكن بأسماء الله الحسنى... إننا نكاد نستشعر بقوة معنى كلمات الله التي لا تنتهي، وهى تقود حركة التاريخ والكون انطلاقاً من الأضواء التى ألقاها النُوْرْسي على تجليات أسماء الله الحسنى، ولعل هذه الأضواء النُوْرْسية تعيننا على فهم أعمق لقوله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾. الكهف:١٠٩

قال النُوْرْسي:

''إن القرآن الكريم يمنح تلاميذه سماءً سامياً للروح وانبساطاً واسعاً لها، إذ يسلم إلى أيديهم بدلاً من تسع وتسعين حبة من حبات المسبحة، سلسلة مركبة من ذرات تسع وتسعين عالماً من عوالم الكون التي يتجلى فيها تسع وتسعون اسماً من الأسماء الحسنى، ويخاطبهم: هاؤم اقرأوا أورادكم بهذه السلسلة، وهم بدورهم يقرأون أورادهم بتلك المسبحة العجيبة، ويذكرون ربهم الكريم بأعدادها غير المحددة.''[14]

وفى خطابه للإنسان ليعرف حقيقة دوره ''المرآة'' يقول النُوْرْسي أيضاً:

''أيها الإنسان إن ما تملكه من نفس ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانة لديك فمالك تلك الأمانة قدير على كل شئ عليم بكل شئ، رحيم كريم يشترى منك ملكه الذى عندك ليحفظه لك لئلا يضيع في يدك، وسيكافئك به ثمناً عظيماً، فأنت لست إلا جندياً مكلفاً بوظيفة فاعمل لأجله واسع باسمه فهو الذى يرسل إليك رزقك الذى تحتاجه ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إن غاية حياتك هذه ونتيجتها هي ان تكون مظهراً لتجليات أسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة.[15]

إن اسم الله ''القدوس'' تتألق تجلياته في حملات تطهير الكون الصباحية بالندى الذى يغمر الكون، وتصل قطراته إلى البراعم والثمار، فتزيدها خصوبة وروعة، وتهيئها مواجهة يوم جديد لا يخلو من أتربة أو شمس حارة.

وأما أثر رحمته فتكاد تلمسها في كل فصل من فصول السنة... إنها عملية بعث داخلية وخارجية عامة تتجدد بها الحياة كلها: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.الروم:٥٠ إنها أثواب تلمسها الطبيعة في كل فصل من فصول السنة بحيث تتكيف مع طبيعة كل فصل!!

وهكذا... وعلى هذا النحو... تتجلى بقية أسماء الله الحسنى على الإنسان والكون... تجليات تظهر من خلالها الرعاية الربانية الكاملة.

وثانيهما: إن دور الإنسان في التاريخ الإنساني -بل والكوني- قد أصبح أكثر وضوحاً وألقاً وروعة... إن الإنسان هو ''أنا'' التي حملت الأمانة الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾.الأحزاب:٧٢

وليست الأمانة في المنظور النُوري هي ''الإرادة أو التكاليف'' كما كان ''التفسير الشائع'' وإنما الأمانة هنا أعظم من ذلك كله... إنها إظهار بعض تجليات الأسماء الحسنى المطلقة في عالم الإنسان النسبي، حتى يبصر الأحياء إبصار معاينة وتعقل بعض ومضات الفاعلية المطلقة لأسماء الله الحسنى في مرآة هذا الإنسان المحدود النسبي... فقدرة الله المطلقة تُرى بعض ومضاتها فى قدرة الإنسان النسبية المحدودة، وعلم الله المطلق تُرى بعض آثاره في علم الإنسان النسبي المحدود. وهكذا الرحمة والعدل والحلم والكرم إلى آخره.

وهكذا فإن صفات الله سبحانه وتعالى -كالعلم والقدرة- وأسماءه الحسنى -كالحكيم والرحيم- لأنها مطلقة ولا حدود لها ومحيطة بكل شيء، لا شريك لها ولا ندّ، لا يمكن الإحاطة بها أو تقييدها بشيء، فلا تُعرف ماهيتها، ولا يُشعر بها، لذا لا بد من وضع حدّ فرضى وخيالي لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها -

حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها- وهذا ما تفعله ''الأنانية'' أي ما يقوم به ''أنا'' إذ يتصور في نفسه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة، وقدرة وعلماً.[16] وهكذا...

ويقول النُوْرْسي أيضاً: ''فقد اندرجت في ''أنا'' آلاف الأحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة التي تستطيع أن تدل وتبيّن -إلى حد ما- الصفات الإلهية وشئونها الحكيمة كلها.

أي أن ''أنا'' لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره، كالمرآة العاكسة والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف.[17]

لقد عمّق الفقه النُوْرْسي دور الإنسان في صناعة الحضارة وأبرز حقيقة الصلة بين الله والإنسان، وفد أصبح هناك معنى أكثر ألقاً لمعنى الاستخلاف، وكذلك لمعنى الإنسان الرباني الموصول بالله، ولمعنى تفضيل الله لآدم على الملائكة. بل إننا نكاد – بالمنظور النُورسي – نفهم إضافات جديدة لمعنى تعليم الله آدم الأسماء كلها، فليست هذه الأسماء مجرد مفردات تتصل بعالم الأشياء أو عالم القيم والمعنويات. إنها قد تتصل ببعض القدرات والمواهب الفطرية التي تدفع الإنسان لفتح مغاليق السنن الكونية والاجتماعية وفقهها، واستخدامها لتحقيق وظيفة الاستخلاف، ولإظهار بعض آثار تجليات الأسماء الحسنى، التي لا تطلق -في حدودها النسبية- على أحد إلا على هذا الإنسان... الإنسان المستخلف... الإنسان المرآة... الإنسان الذى يسمح الله له وحده بأن يحمل بعض أسمائه – مع محدوديته ونسبيته، فيكون أحياناً... الإنسان اللطيف الخبير الحكيم الكريم الرحيم... ويكون -فى أحيان أخرى- الإنسان الجبار المتكبر العظيم... إنها مكرمة كبيرة... وإنها لأمانة عظيمة... لكن هل يؤدى الإنسان ''المرآة'' حقها... أم يخون الأمانة... إنه كان ظلوماً جهولاً.

مدرسة قرآنية تواجه حضارة الغرب المادية

عندما تصفو المشارب، ويستقيم المنهج، وتتحد الغايات يلتقى الفكر حتى ولو وقع خلاف في بعض الاجتهادات الجزئية...

والتقارب الفكري الكبير الذى نلحظه بين العلامة محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م) والعلامة بديع الزمان سعيد النُوْرْسي (١٨٧٦-١٩٦٠م) هو تقارب من هذا القبيل...

لقد كان الرجلان ينتميان إلى مدرسة القرآن، ويتتلمذان عليهما بصفاء وايمان وطلب صادق للحق، كما انهما كانا يعيشان قلقاً واحداً هو تخلف المسلمين العملي في مواجهة تقدم الحضارة الأوربية القوىّ.

كما كانا يسعيان إلى غاية واحدة هي بعث المسلمين بعثاً قرآنياً يستوعب حضارة العصر، لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها وجراثيمها وتضحيتها بالدين والأخلاق.

إن العلامة ''سعيد النُورسي'' يكاد يعلن في كل صفحة من صفحات ''رسائل النور'' أنه ''تلميذ للقرآن'' وأن ''أستاذية القرآن'' هى التى ألهمته كل رسائل النور، وجعلته يبصر الكون والتاريخ والحياة بعين تستوعب الأشياء، لكنها تنفذ إلى ما وراء الأشياء وتفسر ''حركة التاريخ'' تفسيراً جامعاً للعوامل المنظورة المادية والعوامل المعنوية غير المنظورة.

يقول النُورسي: ''القرآن الكريم مرشدنا وأستاذنا وإمامنا ودليلنا في كل أعمالنا.''[18]

ويقول: ''إن القرآن الكريم ''المقروء'' هو أعظم تفسير وأسماه وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع الذى هو قرآن آخر عظيم (منظور).

نعم إن ذلك الفرقان العظيم الحكيم هو الذى يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور وهو الذى ينظر إلى الموجودات التي كل منها حرف ذو مغزى بالمعنى الحرفي... أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل''.[19]

ولئن كانت كلمات النُورسي التي اقتبسناها سابقاً تؤكد لنا أن النُورسي (إنسان قرآني) فتح الله عليه ببصيرة قرآنية سامية وأنه نموذج للمسلم العصري الذى رباه القرآن فأصبح من الصفوة الذين اقتدوا برسول الله (عليه الصلاة والسلام) الذى كان قرآناً يمشى على الأرض...

ومع ذلك -بل لأجل ذلك- فهموا طبيعة العصر ومدنيته العوراء المادية فهماً موضوعياً... فاعترفوا بحسناتها... لكنهم حذروا الإنسانية -ولاسيما المسلمين- من بنيتها الإلحادية ومنهجها الدنيوي العنصري اللاأخلاقي.

ولئن كان النُوْرْسي هو هذا الرجل القرآني -فإن العلامة محمد إقبال كان -كذلك- ينتمى إلى هذه المدرسة القرآنية نفسها ويبصر -كذلك- بالبصيرة القرآنية كل حقائق الحياة والكون ولا تخدعه ''المادية الأوربية العوراء''، مع أنه كان يعرف حسنات أوربا... وقد عاش في أعماقها ونال شهاداته وشطراً كبيراً من ثقافاته من جامعاتها...

قال الشيخ أبو الحسن الندوي (رحمه الله رحمة واسعة) في حديثه عن أساتذة محمد اقبال:

أما الأستاذ الثاني الذى يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، إنه القرآن الكريم الذى أثر فى عقلية إقبال وفى نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية، لقد أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار، وقد وصل هذا المهتدى إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب، وكان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور ''كولمبس'' لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه... أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى كولمبس وأصحابه باستغراب ودهشة ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرور وفرح، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئا جديدا.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن تختلف عن قراءة الناس... ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطعامه إياه.

ولم يزل ''محمد إقبال'' إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه يجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد، وقوة جديدة، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدي وأساس السعادة ومفتاح الأقفال المعقدة وجواب الأسئلة المحيرة وإنه دستور الحياة ونبراس الظلمات ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا القرآن العجيب وفهمه ودراسته والاهتداء به في مشكلات العصر واستفتائه في أزمات المدنية وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذى يرفع الله به أقواما ويضع به آخرين... قال في مقطوعة شعرية له:

إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القران رأسًا، إن الكتاب الذى هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتقرأ عليك سورة ''يس'' لتموت بسهولة، فواعجبا قد أصبح الكتاب الذى أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة.[20]

وكما نرى فإننا -من خلال هذه النصوص- نشعر أننا أمام نصوص تختلف في الألفاظ لكن مضامينها واحدة ورؤيتها واحدة، ذلك لأن إقبال والنُوْرْسي معاً قد صفت

مشاربهما، واستقام منهجهما، واتحدت غاياتهما الربانية والإنسانية القائمة على التكامل بين الوحى والعقل والآخرة والدنيا... لا على التصادم والرؤية الإلحادية المادية العوراء...

وهما من خلال هذا المنهج الذى لن تسعد البشرية إلا به ولن يستأنف المسلمون قيادتهم للحضارة إلا عندما ينطلقون من قواعده - قد استطاعا تقديم أصول وكليات لتحقيق النهضة الإسلامية التي تستفيد من كل ما أفرزته الحضارة الأوربية من إيجابيات علمية... لكنها تضم إلى ذلك المنهجية الإنسانية الموصولة بالله وبرسالة الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ، لتحقق إنسانية الإنسان التي ترتفع فوق مستوى الذوبان في المادية والشيئية والغرائزية.

وانطلاقا من هذا المنظور القرآني لم تخدعهما المدنية الأوروبية، ولم ينسحقا أمام مقولاتها وفلسفاتها، ولم يفقدا موازين العدل وموضوعية الرؤية أمام أضوائها الخادعة التي سقط تحت إغراءاتها الأخسرون أعمالاً: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. الكهف:١٠٤

كان إقبال -بعد أن عاش في أوروبا وسبر- عن كثب -غور مدنيتها- يسميها بالمدنية الفاجرة الناعمة الملمس التي تقتل الناس وهى تظهر هيامها بهم... وكان يحذر المسلمين من أن يقعوا في حبائل المدنية الأوروبية منبهرين بتقدمها العلمي والتكنولوجي، ناسين مخططها الجهنمي (العالمي) لإبادة غيرها بطريقة عنصرية.

لقد أبصر ''اقبال'' عن خبرة عميقة ومعايشة دقيقة جوانب الضعف الاساسية في مركب الحضارة الأوروبية، والفساد الذى عجنت به طينتها، لاتجاهها المادي، وثورة أصحابها على الديانات والقيم الخلقية والروحية في عصر النهضة، وقد عزا فساد القلب والفكر الذى اتسمت به هذه الحضارة إلى أن روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة، وقد جردها تلوث الروح من الضمير الطاهر ومن الفكر السامي والذوق السليم، وقد تسلط عليها - رغم المدنية الباذخة، والحكومات القوية، والتجارة الرابحة - القلق الدائم.

كما نوه بأساس حضارتها اللاديني، وبأنها عجنت مع الثورة على الدين، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وبالتالي فهي عاكفة على عبادة آلهة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبدا جديدا.[21]

إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية، والفتك بأفراد النوع البشرى، وإن

شغلها الدائم التجارة... إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء، وبالحب البريء النزيه، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة. [22]

ويقول إقبال فى شعره: ''إن شعار الحضارة الحديثة الفتك بالإنسان الذى تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها... ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الاذكياء، ذلك الدهاء الذى انتزع نور الحق من صدور بنى آدم... إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام، ما لم ينقلب هذا النظام رأساً على عقب''. [23]

وفى مواجهة مشروعات هذه الحضارة الإبادية العولمية كان (إقبال) يحث المسلمين على أن يتمسكوا بذاتيتهم الإسلامية، وقد أدار كثيرا من شعره وفلسفته حول (الذات المسلمة). وإذا كان واجبا على المسلمين -كما يرى إقبال- أن يدرسوا العلوم الحديثة، فمن الأوجب عليهم -أيضا- أن يقرءوا القرآن كأنه أنزل عليهم (كما كان والد إقبال ينصحه) وأن يمارسوا التعاليم الاسلامية في حياتهم.

وبينما رفض إقبال منصب نائب الملك في إحدى مستعمرات بريطانيا حتى لا يعرض امرأته للسفور والاختلاط، فكذلك كان إقبال -باستعلاء المؤمن- يأسف لأنه أضاع بعض سنوات عمره في الغرب (الغرب الذى يعبده بعض المسلمين).. وكان -بثقة المسلم- يقول: إن أوروبا تنتحر، والروح تموت عطشا في سرابها الخادع... إنها حضارة شابة -بحداثة سنها، والحيوية الكامنة فيها- ولكنها تعانى من سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة فى ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود، إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار.

إن الفكر المارد الذى أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم، إن العصر يتمخض عن عالم جديد، وإن العالم القديم الذى حوله الغربيون مكاناً للقمار (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الامم) يلفظ أنفاسه الأخيرة.[24]

إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة... إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون -حتى في ابتكاراتهم وثوراتهم- عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة.

إن تجارتها قمار، يربح فيه واحد، ويخسر ملايين، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومات التي تتبجح بها أوروبا مظاهر جوفاء، ليس وراءها حقيقة، إن قادتها

يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية... إن البطالة والعرى وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الإفرنجية.[25]

إننا نشعر ونحن نقرأ كلمات إقبال والنُوْرْسي وكأنهما يتحدثان عن العولمة- الأوروبية -أو الأمريكية- المعاصرة التي يخدعون بها الشعوب، بينما يعترف عقلاؤها ومفكروها بأنها تخطيط جهنمي لإبادة أربعة أخماس العالم...

ونحن قد نشعر اكثر بحقيقة هذه الحضارة عندما نقرأ أفكارهما بوعي... ثم نقرأ -في الوقت نفسه- بنود (اتفاقية الجات) المفروضة قهرا على العالم ليزداد الغني غنى ويزداد الفقير (وهم معظم الإنسانية) فقراً... فيتأكد لدينا صدق النُوْرْسي وإقبال، وأن (شعر) إقبال كان شعرا إسلاميا يستشرف المستقبل، ويبصر -من خلال المعايشة والرؤية القرآنية- أعماق هذه الحضارة، وحقيقة مخططاتها تجاه الإنسانية!!.. وكذلك كان فكر النُوْرْسي ممثلا في موسوعته رسائل النور!!.

وليس عجيبا - مع استقامة المنهج وصفو المشرب، أن نجد اتفاقا شبه كامل بين رؤيتي محمد إقبال وسعيد النُورسي... حتى في أسلوب النقمة والكراهية لفلسفة أوروبا ومخططاتها الجوهرية التي لا تريد مدنية أوروبا أن تحيد عنها، مع كل ما عانته من حروب عالمية وأمراض اجتماعية وأخلاقية مستعصية!!.

بيد أننا -مع هذا القاسم المشترك بين إقبال والنُورسي- نجد النُوْرْسي أكثر وضوحا فبذي إنصاف الجوانب الإيجابية للحضارة الأوروبية... وإشادة بالجوانب العلمية والروحية القديمة التي كانت قد وفدت إلى أوروبا مع مسيحية (عيسى عليه السلام)...!!

إن النُوْرْسي لا ينكر إيجابياتها الواضحة... لكنه -كذلك- لا يعترف لها بأنها وحدها - صاحبة الحضارة، وأن الآخرين لم يقدموا شيئاً..، كما أنه لا يتجاهل مخازيها وماديتها ودنيويتها المهلكة... بالوضوح نفسه.

ولهذا نجد ''النُوْرْسي'' يزن الحضارة الأوروبية بموازين موضوعية عادلة، فيقدر لها إبداعها العقلي، وصناعاتها ووسائل اتصالها التي قربت المسافات، وجعلت الكرة الأرضية قرية واحدة. لكنه في الوقت نفسه يرفض أوروبا المتعفنة بالفلسفة المادية والوثنية الغارقة في الانحلال والحيوانية...

يقول النُورسي: ''إنّ أوروبا اثنتان'':

إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب – في هذه المحاورة – هذا القسم من أوروبا، وإنما أخاطب أوروبا الثانية، تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة".[26]

وبالوضوح نفسه، والنقمة نفسها، والتحذير نفسه... راح النُوْرْسي يخاطب الحضارة الأوروبية –ممثلة في هذا الشق اللاديني اللاأخلاقي– قائلا لها وللمفتونين بها:

يا أوروبا الثانية (!!) اعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شُلّت يداك، وبئستْ الهديةُ هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون.

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود!! تُرى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفى وجدانه، وفى عقله وفى قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟!.[27]

لقد طغت أوروبا الثانية –أو كادت– على أوروبا الأولى، وأسوأ ما فى الأمر أن العالم الاسلامي يقتبس أكثر ما يقتبس من أوروبا الثانية، وتدفعه أوروبا نفسها بعيدا عن طريق أوروبا الأولى، فتمنع عنه علمها الإبداعي الدقيق، وتغدق على أبنائه أوراقا تسمى الشهادات الجامعية!!.

أما إذا وجدت من أحدهم إصرارا على العلم الحقيقي، وقدرة على الإبداع، فإنها تسعى إلى أن تحرم منه حضارته فتغريه بالمال والنساء حتى يقبل جنسيتها ويخدم حضارتها...!!

إنها تمنع خيرها الذى لا شك فيه، وتنشر–بكل الوسائل– شرها الذى لا خير فيه..!!

إن النُوْرْسي يعترف بهذا الجانب الإيجابي– أوروبا الأولي– فيقول: إن البشرية التي أخذت تصحو وتستيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملاً بغير دين.

لقد تيقظ الإنسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونذر الحروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع.[28]

وعندما يتكلم النُورسي -بإطلاق- عن المدنية فإنه يقصد المدنية بمعناها الصحيح "أوروبا الاولى"... أي أوروبا بمحاسنها وجوانبها النافعة للبشرية وليس ذنوبها وسيئاتها، كما ظن الحمقى من الناس أن تلك السيئات محاسن فقلدوها وخربوا الديار، وقدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا فما حصلوا عليها ولا حصلوا على شيء !![29]

إن أوروبا الثانية التي تكاد تقضى على أوروبا الاولى تحمل في أحشائها جراثيم الظلم... وجراثيم الدمار والفناء لنفسها وللبشرية... إنها تأسست على خمسة أسس سلبية مدمرة:

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة.

وهدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

ودستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

ورابطتها الأساسية بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشان القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الاهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتُمسخ مسخاً معنوياً. [30]

ومن خلال هذه الأسس الخمسة المدمرة السلبية التي تقوم عليها المدنية الأوروبية ينتهى النورسي إلى كشف نتائج المشروع الحضاري (العولمي) الغربي تجاه الإنسانية، فيصل إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها "إقبال"، وهى إبادة أربعة اخماس البشرية، ومن عجب أنها النتائج التي ينتهى إليها الفكر الاجتماعي والاقتصادي الحديث... يقول النُوْرْسي:

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبت باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والذئب والخنزير.[31]

''ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين في المائة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية حيارى بين هؤلاء وأولئك، علماً بأن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس.''[32]

وإذا قارنا هذا الكلام بما انتهى اليه الباحثان الألمانيان (مؤلفا كتاب فخ العولمة) اللذان ينتهيان إلى النتيجة نفسها، مع أنهما مفكران اقتصاديان معاصران ينطلقان من رؤية ليبرالية (اقتصادية بحتة) لكنها موضوعية إنسانية!!.. إذا قارنا كلام إقبال والنُوْرْسي السابق، بما انتهى إليه هذان الباحثان ''مارتين'' و ''شومان''، أدركنا كيف أن المفكرين المسلمين الكبيرين ينطلقان من رؤية قرآنية موضوعية تلتقى مع رؤية العقل السليم العلمية الموضوعية، وأدركنا أيضا كيف أن الله يمنح المفكرين المسلمين المخلصين إلهاما يستشرف الغيب، ويستقرئ المستقبل، حتى ولو لم تتوافر لديهم وسائل البحث العلمي وأدواته الكاملة، ما دامت رؤيتهم قرآنية واعية...

لننظر، ولنقارن ما يقوله ''مارتين'' و ''شومان'' بما انتهى اليه النُوْرْسي وإقبال.. يقول مؤلفا كتاب (فخ العولمة) المترجم إلى العربية في أكتوبر ١٩٩٨م (جمادى الآخرة ١٤١٩هـ):[33]

''لم يعد (أي في ظل العولمة الحديثة) مجتمع الثلثين (الأثرياء – والثلث الفقير) الذى كان الأوروبيون يخافون منه فى الثمانينات هو الذى يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية بل سيحددها في المستقبل نموذج العولمة الجديد القائم على صيغة ٢٠% ''يعملون'' و٨٠% ''عاطلون عن العمل''. لقد لاح فى الأفق مجتمع الخمس، هذا المجتمع الذى سيتعين فى ظله تهدئة خواطر العاطلين فيه عن العمل بما يسمونه ''Tittytainment'' (الصدقة أو المعونة الاجتماعية).

ويقول المؤلفان –أيضا–: ''إن ٢٠% (عشرين بالمائة) من السكان العاملين ستكفى فى القرن القادم للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولي (...) ولكن ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن الثمانين بالمائة العاطلين وإن كانوا يرغبون بالعمل؟ إن الثمانين بالمائة من الطبقة السفلي ستواجه بالتأكيد –كما يرى الكاتب الأمريكي جريمي ريفكن (Jeremy Refkin) مؤلف كتاب ''نهاية العالم''– مشاكل عظيمة، ويعزز رئيس مؤسسة ''سان'' هذا الرأي مستشهدا بمدير شركته سكوت مك نيلي (Scoot Mc Nealy) إذ يقول: إن المسألة ستكون في المستقبل هي: ''إما أن تأكل أو تؤكل (To have lunch or be lunch''.[34]

ولهذه النتيجة المؤسفة كل الأسف يرى ''مارتين'' و ''شومان'' أن نموذج الحضارة الذى ابتكره الغرب لم يعد صالحا لبناء المستقبل.[35] (وكأنهما كما نرى يتكلمان بلغة إقبال والنُوْرْسي نفسها!!) وهما يعتقدان أن الدعاية المفرطة لهذا النموذج كانت جزءا من الحرب الباردة، ولهذا فإن هذا النموذج الأوروبي الحضاري يجب أن يوضع -بتعبيرهما- فى متحف الأسلحة القديمة!! وتسود الآن-حسب اعتقاد المؤلفين- عملية تحول تاريخي بأبعاد عالمية واضحة ينعدم فيها -تحت ضغط النموذج الغربي- التقدم والرخاء، ويسود التدهور الاقتصادي والتدمير البيئي والانحطاط الثقافي، في ضوء حضارة التنميط...[36] حضارة أوروبا وأمريكا..!!

وأعتقد انه من حقنا - بعد هذه النصوص التي أوردناها للمفكرين الألمانيين الاقتصاديين ''مارتين'' و ''شومان'' والتي عرفها العالم العربي والاسلامي (وعرف كثيرا من أمثالها من الدراسات الجادة حول تأثير الهيمنة العولمية)...

من حقنا عندما نجد تطابقها الكبير -في مجمل الرؤى والحقائق والنتائج- مع ما ذكره وانتهى إليه إقبال والنُورسي المفكران المسلمان... منذ نصف قرن... أي مع تفاوت الزمان، وتفاوت الثقافة والمنطلقات والمكان.. من حقنا أن نستنتج عددا من الحقائق الأساسية، على رأسها المصداقية الكاملة والأحقية المطلقة للمنظور القرآني الذى انطلق منه إقبال والنُوْرْسي... فهو منظور (علم اليقين) وهو منظور (دراسة الإيمان الصحيح)...

ومن هذه الحقائق -أيضا- أصالة المفكرين المسلمين الكبيرين وسلامة منهجهما وموضوعيتهما وتجردهما للحق... فليس كل من يتعامل مع ''الحق'' قادراً على فهم دلالاته واستخلاص دروسه، وعلى التعبير عنه بطريقة علمية، وتوضيح الطرق الموصلة إليه والآليات المحققة له...

لكن إقبال والنُورسي نجحا فى تقديم الكثير في هذا الطريق!! وأخيراً فإن من الحقائق المستخلصة: التطابق -كما نرى فى الآراء السابقة- بين معطيات الوحى الصحيح، واستنتاجات العقل الصحيح.. عندما تصفو المشارب ويستقيم المنهج وتتحد الغايات!!.

المستقبل للإسلام وحضارته الايمانية:

ومع ذلك فان الصراع بين المدنية الغربية المادية ذات البنية الملحدة، وبين حضارة الإسلام ذات البنية الإيمانية، لابد أن ينتهى بالنصر للإيمان والحق. إذا كان مقدراً فى

علم الله أن يبقى للبشرية بعض الوجود... فلا وجود إلا بالروح والضمير والعقل والمادة معا.. ولا إنسانية إلا بالوحي والعقل... والنبوة والعلم... وبما أن المدنية الأوروبية (والأمريكية) قد مزقت هذا النسيج المتكامل... واكتفت بالعقل والمادة... فإنها لم تعد قادرة على الاستمرار فى القيادة مهما كانت كثافة السحب التي تحجب الحقائق والقيادة بالتالي لابد أن تعود للإسلام وحضارته... ولابد أن يتقدم المسلمون الصادقون الصالحون لإنقاذ سفينة الإنسانية...

وفي رأى ''إقبال'' أن الحضارة الغربية قد أدت دورها، وشاخت وهرمت، وأينعت كالفاكهة، وحان قطافها، وأن العالم القديم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد سينتهي قريباً، وأن الإنسانية سوف تتمخض عن عالم جديد. ويعتقد ''محمد اقبال'' أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام بالأمس فى مكة مركز الأرض، وورث إبراهيم ومحمدا ﷺ في قيادة العالم وإرشاده. ولذلك يهيب ''محمد إقبال'' بهذا المسلم النائم، أن يقوم ويمسح النوم عن عينيه، فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وعاث الأوروبيون في الأرض، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها، وخربوا العالم وملئوه ظلماً وظلمات، وشروراً وويلات، وليست هذه الارض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجدا وطهورا، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولكن الأوروبيين حولوها إلى خمارة، وبيت فسق ودعارة، ومكان نهب وإغارة، وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوروبيون، ويعيد هذه البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ويبنى العالم من جديد.[37]

أما النُوْرْسي فيحدثنا الحديث نفسه تقريبا.. ويقول: ''إنه بطغيان ذنوب المدنية على محاسنها، ورجحان كفة سيئاتها على حسناتها، تلقت البشرية صفعتين قويتين بحربين عالميتين، فأتتا على تلك المدنية الآثمة، وقاءت دماءً لطخت وجه الأرض برمتها، وسوف تتغلب بإذن الله محاسن المدنية بفضل قوة الإسلام التي ستسود فى المستقبل وتطهر وجه الأرض من الأدناس وتحقق أيضا سلاماً عاماً للبشرية قاطبة..

نعم لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوى ومؤثر على قرب انهيارها، وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا ''الإسلامية'' التي ستكون الغلبة لها عن قريب!!.[38]

إنه استشراف ورؤية مستقبلية أخرى.. يلتقى فيها إقبال والنُوْرْسي، مع ما يقوله مؤلفا كتاب ''فخ العولمة''..!!

وقد ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم بعد عديد من النكبات والهزائم والاختبارات، وقد كادت الصحوة تمضى إلى غايتها... لكن الأشواك توضع في طريقها، ويدفع إلى الوقوف ضدها كثير من المنافقين المسلمين... وبدلاً من أن يرشدوها للصواب. يدفعها بعضهم إلى الخطأ... ويبنون على الخطأ الفردي والتطرف الشخصي سياسة مواجهة عامة للظاهرة... ومع ذلك فإنهم - كما أشار النُورسي - لم يكسبوا الدنيا حين باعوا الآخرة، ولم يرض عنهم الأعداء حين باعوا الإخوان والأصدقاء.

وفى كل يوم يصفعهم الأعداء -بأمر الله- صفعات قوية من الذلة والخيانة ونكث العهود... تحقيقا لقوانين القرآن التي لا تتخلف، قال تعالى ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.[39]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. المجادلة:١٤- ١٥

لكنها مرحلة من مراحل الهوان سوف تنتهى بإذن الله، وسوف تعقبها إفاقة إنسانية عامة تبحث عن الحق، وتسعى إليه بعد أن يصل الأمر إلى مداه...!!

وإن لدى الإسلام مؤهلات النصر والتفوق والسيادة... لديه الحقيقة الإسلامية أستاذ جميع الكمالات... ولديه حاجة البشرية الملحة إلى هذا الأستاذ الحقيقي والقائد الحقيقي للمدنية الصحيحة اللائقة بالإنسان.

ولديه الحرية الممزوجة بالشرعية، التي تمزق الاستبداد، وتقضى على الفوضى اللاإنسانية. ولديه الشهامة الإيمانية الممزوجة بالرحمة والصراحة. ولديه العزة الاسلامية التي تعلن إعلان كلمة الله.. بالوسائل المادية والمعنوية معاً.

وكما صدقت توقعات النُورسي في الماضي القريب فسوف تصدق -بإذن الله- توقعاته بانتصار الاسلام فى المستقبل القريب... والبعيد أيضاً...!! والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

الهوامش:

[1] بديع الزمان سعيد النُوْرْسي - كليات رسائل النور (الكلمات) ص ٦٣٥، ٦٣٦.
[2] النُوْرْسي: الكلمات: طبع سوزلر للنشر ط٢ - مصر - ١٤١٢هـ ص ٦٥.
[3] السابق ص ٦٥.
[4] السابق ص ٦٨.
[5] السابق ص ٧٠.
[6] السابق ص ٧٢.
[7] السابق ٧٦.
[8] السابق ٨١.
[9] السابق ٨٤.
[10] التاسعة ٨٥.
[11] السابق ٨٨.
[12] السابق ٩٤.
[13] السابق ٩٦.
[14] اللمعات ١٨٢.
[15] اللمعات ١٨٣.
[16] بديع الزمان النُوْرْسي — الكلمات ص ٦٣٦.
[17] المرجع السابق ص ٦٣٧.
[18] انظر المكتوبات ص ٤٧٦ فى المسألة السابعة من المكتوب الثامن والعشرين نشر سوزلر ط١٤١٣/٢هـ، القاهرة.
[19] بديع الزمان سعيد النُوْرْسي — الكلمات (كليات رسائل النور) ج ١ ص ١٤٣ نشر سوزلر ط١٤١٢/٢ القاهرة
[20] روائع إقبال - أبو الحسن على الندوى - المجمع الإسلامي العلمي - ندوة العلماء لكنؤ - الهند - ص ٥١ - ٥٣ ط ٤/ ١٤٠١هـ.
[21] روائع إقبال - أبو الحسن الندوى ص ٨٢.
[22] المرجع السابق ص ٨٣.
[23] المكان السابق.
[24] روائع إقبال — أبو الحسن الندوى ص ٨٣-٨٤ .
[25] المكان السابق ص ٨٤.
[26] النُوْرْسي: اللمعات: ترجمة أ / إحسان قاسم الصالحى ١٧٦، ١٧٧ ط٢ / ١٤١٣هـ. القاهرة.
[27] اللمعات ١٧٧.
[28] النُوْرْسي: صيقل الإسلام - كليات رسائل النور ص ٤٩٤ - نشر سوزلر ط٣ / ١٩٩٩ مصر.
[29] صيقل الإسلام ٥٠١.
[30] النُوْرْسي: الكلمات ٨٥٥ طبع مصر سوزلر ط ٢ / ١٤١٢هـ وانظر: النُوْرْسي: صيقل الإسلام ٣٥٧ ط ٣ / ١٩٩٩ مصر ''سوزلر''.
[31] بديع الزمان النُوْرْسي - الكلمات ص ٨٥٥ - كليات رسائل النور - ١.
[32] صيقل الإسلام ص ٣٥٧ والكلمات ٨٥٦ ويقول النُوْرْسي وكأنه عالم اقتصادى يعاصر عولمة أمريكا الكذوب: ''وتتجمع الأرباح التجارية بأيدى أقلية ظالمة'' الكلمات ص ٨٥٦.
[33] ضمن سلسلة عالم المعرفة: فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية - عدد ٢٣٨ ص ٢٨ - نشر المجلس الوطنى للثقافة - الكويت. مراجعة وتقديم د / رامز زكى - ترجمة د / عدنان عباس على.

[34] فخ العولمة ص ٢٦.
[35] فخ العولمة ص ١٢ (المقدمة).
[36] فخ العولمة: ص ١٢.
[37] أبو الحسن الندوى - روائع إقبال ص ١٣٠ - ١٣١ بتصرف. (وهذا لا يعنى الاستغناء عن ابداعات العقل الأوروبى التى أنجزتها أوروبا النافعة - الأولى - مع تسخيرها لخدمة الحق ونشر الإيمان والرحمة والتسامح.
[38] صيقل الإسلام - بديع الزمان النُوْرْسي ص ٥٠١.
[39] النُوْرْسي: بتصرف من الخطبة الشامية - صيقل الإسلام ٤٩٩، ٥٠٠.

من معالم التجديد عند النورسي

أ.د. محسن عبد الحميد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

درستُ رسائل النور دراسة دقيقة في الأقل مرتين كاملتين، فكتبتُ في ضوئهما كتابي ''النورسي متكلم العصر الحديث''[2] وقدمت لكتاب النورسي النفيس ''الآية الكبرى'' ولكتابه القيم ''إشارات الإعجاز'' وألقيت محاضرات علمية عنه وعن أفكاره وعصره في أقسام الدراسات العليا في كلية الآداب بالرباط وكلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد، واستمعت إلى البحوث العلمية المتنوعة التي ألقيت في مؤتمري فكر النورسي في إستانبول عامي ١٩٩٥ و ١٩٩٨م ثم قرأت كتباً وأبحاثاً كتبت عن رسائل النور والنورسي في العراق وخارجه، فتحصل عندي أن الإمام النورسي من أكابر المجددين، ليس في العصر الحديث فحسب، بل في تاريخ المسلمين كله، ولاسيما في عصرنا، عصر الفتن الكبرى، وعصر النكبة والهلاك عصر بداية التراجع الحضاري الإسلامي، عصر سيطرة الغرب على توجيه الحركة الحضارية في العالم الإسلامي، سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر، عصر التمزق والهزيمة الكبرى للمسلمين أمام النظام السياسي والعسكري والحضاري الغربي، عصر تأسيس دولة اليهود الباغية العدوانية في قلب العالم الإسلامي المقدس ''فلسطين'' عصر إعلان اللادينيات المختلفة في أنحاء العالم الإسلامي كله.

لقد كان الإمام سعيد النورسي الابن البار لزمنه، استوعب الأفكار، واستخلص العبر، وتعمّق في فهم المأساة، وعرف طرق الإفساد، وأطّلع على أسباب التمزق والفرقة، وراقب مسرحية الانتقال الخبيث من المنظومة الإسلامية إلى المنظومة الغربية اليهودية الصليبية الإلحادية، مع تفهم حقيقة المرحلة، وطبيعة المؤامرة، وتطور

الأحداث في تركيا والعالم الإسلامي برمته. فكان ذلك المجدد الذي عبر عن عصره، تعبيرا شموليا متوازنا ابتداء بنمط شخصيته، وانتهاء بالمخطط المتكامل الذكي في الوسيلة والغاية التي اتبعها، من خلال مادته المعرفية العلمية الغزيرة، بقصد إحداث هزة عنيفة عميقة في كينونة الإنسان مسلما أو غير مسلم، في عقله وقلبه وروحه ونفسه.

أما نمط شخصيته فهو شخصية فريدة في تربيته ونظافته، وذكائه الخارق وصلابته وعزته وأنفته وتوكله ورضاه وزهده.

وأما شخصيته في اكتشاف الوجود وأعماقه، وتذوقه لجماله الباهر وجلاله الأخّاذ، في دائرة الطاقة البشرية، فهي عبقرية تقترب من نهايات الولاية العظمى في مستويات الأولياء العظام من غير الأنبياء والمرسلين. أي أنه شخصية ذابت في حب الكون وما فيه من مخلوقات الله سبحانه تعالى، التي تدل على توحيد الخالق، وعظمة وقداسة أسمائه الحسنى التي أنارت الوجود من الذرات إلى المجرات. وفي مقابل ذلك الحب العظيم فإنه شخصية صمدت بصلابة حاسمة منقطعة المثيل بوجه قوى الشر الشيطاني، التي تقود ظلام الشرك المطلق في هذا العصر.

أما مادته المعرفية التي كان يمتلكها، فقد دفعته إلى أن يعالج بنفسه كل جزئية من جزئيات الانحراف في المجتمع الإسلامي والإنساني على السواء، كي يعيدها إلى الفطرة والتوازن والعبودية الخالصة لرب العالمين، والابتعاد النهائي، ولو معرفياً، عن موكب الشرك والمشركين بقيادة الشيطان الرجيم وأوليائه المتآمرين على فطرة الوجود من الإنس والجن.

وقارئ رسائل النور يدرك هذا تمام الإدراك، ويستطيع أن يميز مؤلفها الإمام النورسي عن بقية المجددين في زمانه، كالأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال وحسن البنا وعبد الحميد بن باديس رحمهم الله تعالى.

فهؤلاء لم تلجئهم ظروفهم الزمانية والمكانية إلى معالجة كل جزئية من جزئيات الإسلام بأدلتها التفصيلية وقواعدها المنطقية، ولا ردّوا كل الشبهات المثارة في زمانهم حول الإسلام، ولا دخلوا في صراع فكري تفصيلي مع الكفر، وإنما حددوا المنهج والتوجه والحركة، وبينوا أسس الفكر الإسلامي الحديث، وتركوا لأتباعهم الكثيرين القيام بمثل تلك الدراسات والمواجهات والمعالجات.

بينما الظروف ''الزمكانية'' للشيخ النورسي جعلت منه فارس الميدان الوحيد

بحيث ملأ مجتمعه علماً وتوجيهاً ومعالجة ومعارك فكرية، استعمل فيها عبقريته العلمية، ومادته المعرفية، وخصص لها كل ما أوتي من الفكر والحكمة والشجاعة والإقدام. ولاشك ان عزلته ووحدته وسجنه والإقامات الجبرية الدائمة التي فرضت عليه، كانت سببا مهما من أسباب هذا التوجه والتي جعلها الله سببا لتنقية قلبه وتصفية فكره، وإدماجه في أعماق الوجود الكوني والإنساني.

أما مخططه المتكامل فيظهر من معالم التجديد الآتية في حياة النورسي:

١ـ العودة إلى القرآن الكريم في الرؤية والمعرفة:

مصدر إنه تلميذ أمين من تلامذة القرآن الكريم، لا يتبع التجربة الصوفية الضيقة، ذات النفق الواحد، حتى في قمة صفائها ولا يعدها مصدرا مناسبا من مصادر المعرفة التي يمكن أن تواجه اكتساح الحضارة الغربية المادية المعاصرة لحياة ملة الإسلام والإنسانية فالعصر ليس عصر التصوف وإنما هو عصر إنقاذ الإيمان والإسلام.[3]

ولا يتبع فهم الفلاسفة الذين يسلمون أنفسهم للعقل وحده، فيتيهون عبر طرق ملتوية في جبال وعرة، وإنما يذهب إلى النبع الصافي مباشرة، ويأخذ معه الجيل كله، ليشربوا من الماء الصافي النمير بلا كدورة الأرض ولا المواد المختلطة بها عبر التضاريس المتنوعة.

ويرفض منهج المتكلمين السابقين الذين كتبوا لعصر غير عصره، من حيث المعالجة والمواجهة وطبيعة المادة المعرفية، وإنما يستقي أدلته من عالم الأنفس والآفاق على أصول العقائد الإسلامية.[4]

قال النورسي: ''فطريق المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، لا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان ونحن قد اخترنا هذا الطريق''.[5]

ومن الجدير بالذكر أن منهج النورسي هذا لا يصطدم مع أي منهج من تلك المناهج مباشرة، وإنما يستطيع صاحب كل طريق الاستفادة منه، من خلال عرض منهجه المتفرد.

وهو لا ينقل لهم في منهجه ذلك علما مصطلحيا محدودا، وإنما ينقل لهم كيانه القرآني في تجربة كونية معرفية خصبة جدا، فانية في القرآن الكريم، ليقدم من خلالها مشاعره المتأججة وآلامه المحرقة، حتى يهتاجوا كما اهتاج هو، ليحصل لهم اندماج

رباني كامل في الوجود، من أجل إعادتهم إلى صف العابدين لخالق الكون ومبدع الوجود.

لقد أراد النورسي أن يدفع المسلمين إلى قلب القرآن في إطار الصراع الحضاري المعاصر، من خلال تفسير شهودي لكتاب الله سبحانه وتعالى. يشمل ثلاث قراءات متطابقة:

قراءة الكون الرحيب من خلال تجليات أسماء الله الحسنى،

وقراءة القرآن الكريم في ضوء تلك القراءة،

وقراءة سيرة الرسول العظيم ﷺ، حتى يستطيع ان يعيش مع أرقى نموذج مخلوق بعثه الله تعالى قدوة أعلى ومثلا واقعيا للكائن الحي في عوالم الإمكان.

وفي ذلك، كان النورسي صاحب إدراك عميق بحقيقة تجديد الإسلام، في هذا العصر

إنه مجدد حقا، لأنه لا يدعو إلى النكوص إلى الوراء، ولا سحب التاريخ الماضي بتفاصيله إلى الزمن الجديد، وإنما يؤمن أن الفكر الإسلامي بروافده يمكن أن يتجدد في هذا العصر، وفي كل عصر قادم، حسب المستوى الحضاري الذي وصل إليه.

لقد هضم النورسي المعارف الإسلامية بأدق أجزائها، والمعارف الكونية العلمية بتفاصيلها، ولم يعرضها كما يعرضها العلماء التقليديون، ولكنه تسلسل بجزئياتها خلف قراءاته الثلاث، ليخرج للجيل نمطاً من الحديث يدخل في كينونة الإنسان بسهولة ويسر، من أجل انتشاله من وهدة الإلحاد والمادية واللادينية إلى سوح الإيمان الرحب والشريعة السمحة والقيم المنبثقة من الصفات الإلهية.

لقد دفعت الظروف القاسية التي أحاطت بالنورسي ومجتمعه، تلك التي أراد فيها أعداء الإسلام فرض الإلحاد واللادينية بقوة التصفيات الجسدية الجماعية والإعلام الوحيد الكذوب والثقافة المخزية ذات البعد المظلم على الناس، إلى اتجاه معرفي كلامي جديد. وهو إيجاد علم كلام جديد، ينقل من خلال علم التوحيد من نظريات عقلية مجردة ومناقشات منطقية جافة إلى أسلوب جديد يصوغ حياة المسلم صياغة ربانية، تقود إلى المعنى الحقيقي للتوحيد بكماله من حيث إنّ التوحيد صلة بين الإنسان والخالق المعبود والحاكم مطلق في الوجود.

لقد استطاع النورسي أن يحدد المشاكل الكبرى في حياة الأمة الإسلامية

والإنسانية، فعالجها معالجة قرآنية من خلال أدلتها التفصيلية العقلية الفطرية، فحول عقيدة التوحيد بذلك إلى حياة مفعمة بمعاني الإخلاص والاستقامة والتضحية والسلوك والتربية الجماعية، فنجح نجاحا باهرا في إلحاق الهزيمة باللادينية في نفوس ملايين من الناس في تركيا في زمانه، وفي العالم بأسره بعد وفاته، عندما ترجمت رسائله إلى اللغات الحية في العالم، فبدأت تغزو العقول والقلوب ليتوجه بها إلى رب العالمين، ويعيد الخطاب في المجتمع الإسلامي والإنساني إلى الله تعالى بعد أن حوله الملاحدة واللادينيون في العصور الأخيرة إلى الإنسان وحده.

إذن كان النورسي يعمل في العصر بتخطيط وعلم وقدرة وذكاء، ولم يكن ككثير من علماء زمانه يعيش في متحف التاريخ.

والآن لنعرض قضايا تفصيلية من خطته في تجديد الحياة الإسلامية في تركيا والعالم الإسلامي، وإنقاذ الإيمان الإنساني وانتزاعه بالبرهان العلمي والعقلي من بين براثن المادية التي كانت تجتاح العالم يومئذ.

٢- منهج التغيير البدأ بالبنى التحتية:

يعتقد النورسي ان التغيير الشامل في الحياة الإسلامية، لابد أن يبدأ من البنى التحتية؛ المعنوية منها والمادية، وليس بوصفات مؤقتة لملء الثغرات الخطيرة في البنيان الفوقي، أي إن التجديد يجب أن يدخل في الخلايا العميقة حتى تسترجع الأمة عافيتها. فاللادينيون ما تمكنوا من المجتمع التركي إلا من خلال فراغ داخلي في الأعماق. يظهر ذلك في ضعف الدين، وانحراف العقل وخواء الروح واضطراب الأحوال والهزائم النفسية.

وكان النورسي على يقين تام أن إصلاح الأعماق سيؤدي إلى وحدة العقيدة ووحدة الأفكار، ووحدة الصف ووحدة القلب ويقظة العقل، واستقرار الأحوال، وهو الذي سيحض المسلمين ويوقظهم امام الحضارة الغربية التي أتتهم بعقيدة جديدة وأفكار جديدة.[6]

وهذا المنهج هو الكفيل بإخراج المسلمين من المنظومة الإلحادية المادية إلى المنظومة الإيمانية الإسلامية بمعناها الشامل، وهو منهج الإسلام وطريقه، وهو منهج وطريق مستقل عن الوجود والحياة، يختلف اختلافا جذريا عن مناهج المادية والروحية الكنسية.

وفي سبيل النجاح الأكيد في هذا الحوار الحضاري، واجه النورسي الحضارة الغربية في مواجهتها للإسلام والقيم الدينية والأخلاقية مواجهة تفصيلية. فالقضايا التي أثارتها الحضارة الغربية أجاب عنها، وأظهر بأدلة واضحة أن الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا، كان أعمق في معالجاته لتلك القضايا وأقرب إلى الفطرة الإنسانية وأكثر انسجاما مع قوانين الحياة.

ونجاح النورسي في هذا الحوار ينطلق من أن رسائله النورية، سلكت مسلك الحوار، مع النفس والعقل والروح والقلب، ومع الآخرين من البشر على اختلاف أديانهم، بل الدخول في الحوار مع الوجود كله، من الذرة إلى المجرة إلى الكون كله.

وقد يقول قائل كيف يدخل النورسى في الحوار العقلي مع الغير وهو ينكر الفلسفة أساسا؟

نقول: إذا نظر القارئ نظرة سطحية تجزيئية إلى ما كتبه النورسي حول الفلسفة، قد يأخذه ظاهر عبارته العامة إلى تأكيد معاداة المنهج الفلسفي. بينما إذا قرأ ما كتبه الأستاذ بدقة في رسائله حول الفلسفة، توضح أمامه الأمر، لأنه لا يرفض المنهج الفلسفي مطلقا، وإنما هو يقسم الفلسفة إلى قسمين، قسم يعده فلسفة مؤمنة صالحة تتفق مع حقائق القرآن الكريم، فهذا لا يرفضه الأستاذ. وكيف يرفض النورسي الفلسفة الصحيحة، وهو الذي ملأ رسائله بالأدلة المنطقية، وأدلة العلم التجريبي في إثبات حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية، فجعل بذلك الحس والعقل مصدرين مهمين من مصادر المعرفة في الوجود.[7]

وأما الجانب الآخر من أفكاره التجديدية، فهو دمجه لأنصبة البشر من أسماء الله الحسنى في الصراع الحضاري المعاصر في العالم الإسلامي لاستخلاص المبادئ الأساسية، والشروط الواجبة للنجاح المضمون في عملية إنقاذ المسلمين من براثن المادية المعاصرة وبنائه على جزئيات تجليات تلك الأسماء المقدسة في الوجود. إنني أستطيع أن أجزم أن النورسي بنى رسائله كلها على تلك التجليات. من خلال قراءته للكون، لأنه انطلق من الاقتناع الكامل بأن الله تعالى ما ذكر في القرآن الكريم أسماءه الحسنى، إلا لكي يأخذ الإنسان منها نصيبه في إطار بشريته، سواء في مجاله الفردي أم في بنائه الاجتماعي. إنه لم يبين تلك كما فعل ذلك الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه النفيس ''المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى'' وإنما أدمجها في تفاصيل الصراعات الحضارية بين الإسلام وغيره من المبادئ والأفكار، منبها إلى ان الإنسان

ابتداءا من أسرار نفسه وأعماق حياته إلى جزئيات الكون الواسع إن لم يتلق معاني تلك الأسماء في حياته لتنورها، فإنه سيعيش في الفساد المطلق والشرك المطلق والمادية المطلقة.

ومن هنا نجد أنه يعالج قضايا العقيدة والشريعة والأخلاق وتفاصيل النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري والتربوي وغيرها، في ظل مقدار التمثل لتجليات تلك الأسماء المباركة، لأن الكون في فطرته، ومن خلال كل خلية من خلاياه، يسير في ضوء تلك التجليات، وبدونها لا تقوم للكون والإنسان والوجود قائمة قط. لأن الموجودات كلها إنما هي مظاهر لتلك التجليات، بحيث لا تدع مجالا للغفلة، بل تكسب متأملها مرتبة واسعة من الاطمئنان بسعة الكون، وتفتح أمامه عبودية واسعة ودائمية سعة الكون كله. وهذه الروحانية الوجدانية من جهة أرقى للحصول على الطمأنينة من بعض أرباب الطرق الصوفية الذين وصلوا إلى الفناء بإنكار الكائنات أو نسيانها. ومن جهة أخرى فإنّه أقصر طريق للوصول إلى الخالق العظيم، لأن هذه الأسماء متعاضدة تتجلى في إحداث وإنارة كل ذرة من ذرات الوجود.

فكل اسم له فعل في جانب، فقد تشترك صفات القهر والرحمة والعدل والحكيم والحفظ في تنوير وجود فعل لا يمكن أن يفسر إلا عند من يتصف بتلك الأسماء، وليس هناك في الوجود من يتصف بشمولية تلك الأسماء الحسنى وعملها المتوازن في تنسيق كامل إلا الله سبحانه وتعالى الخالق.[8]

٣- تجديد أسلوب الدعوة:

هنالك ناحية أخرى تجديدية، يتسم بها المنهج النوري، وهو تجديده في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، وهو عدم الدخول في تصادمات وصراعات داخلية مع التيارات الإسلامية الأخرى وتوجيه الجهود الدعوية كلها إلى الجاهلية المعاصرة، التي كانت تتمثل في زمانه بحركة الزندقة اللادينية التي فرضها الطغاة بقوة الحديد والنار على المجتمع التركى، بل إن معرفة طبيعة العصر جعلته لا يتخذ موقفا معاديا دعويا أو سياسيا مُعَيَّنًا تجاه الدعوات والجماعات السياسية الأخرى، بل وجّه إليهم الدعوة جميعا، لأنهم في رأيه يدخلون جميعا في دائرة ملة الإسلام، على الرغم من أخطائهم المنهجية وانحرافاتهم السياسية.[9]

ومن هذا المنطلق، فإنّه لم يدع قط إلى الثأر للنفس على الرغم من الظلم الذي تعرض له هو وطلابه وإنما كان يدعو للإسلام في هذا العصر، والتأثير لا يكون بالقوة

والغضب، وإنما يكون بالحكمة والشفقة والرحمة وتبليغ دعوة الإسلام وإنقاذ الإيمان. ومن المعلوم أن إنقاذ الإيمان عند النورسي يعني انقاذ الإسلام من حيث هو كل لا يتجزأ من براثن مخططات الملاحدة والعلمانيين.

قال النورسي موجها طلابه إلى هذه المسألة الخطيرة في الدعوة الإيجابية:

''إن واجبنا نحوهم طلب الهداية لهم فحسب، فلا يرد في قلب أي طالب من طلاب النور الثأر ولو بمقدار ذرة، بل أوصيهم دائما مقابل ما لاقوه من العنت الثبات في خدمة رسائل النور والوفاء بها.''[10]

وانطلاقا من منهج دعوته ''حسن الظن أساس بالنسبة إلى المسلمين'' اجتنب تكفير أهل القبلة، وفي هذا قال (رحمه الله):

''إن من يعرف 'سعيد' عن كثب يعلم أنه يتجنب تكفير الآخرين تجنبا شديداً ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بل يحاول أن يجد تأويلا حتى لو رأى كفرا بواحا.''[11]

ومن جهة أخري فإن دعوة النورسي قامت على أساس إنكار الذات والتواضع، والإخلاص وعدم اللهاث وراء الشهرة وحظوظ النفس وراء الدنيا والدعوة بالحسنى وعدم الإخلال بالمحبة والوحدة. وعدم تضييع الوقت بالجدل والنقاش الفارغ، والاشتغال بالأصول ثم التدرج إلى الفروع، والحركة إلى الأمام دائما وعدم الفتور وعدم الاشتغال بغير قضية الإسلام المركزية والصبر على المصائب، ومحاولة تكوين وضع اجتماعي آمن واجتناب السياسات اليومية الفاسدة.

ولقد ربى النورسي في مجال الدعوة طلابه على الأمل بدل اليأس والتبشير بدل التنفير أساسا لها.

إنه يشبه مخافة الله بلجوء طفل إلى حضن أمه المليء بالشفقة. وهذه الخاصية استنبطها من اسماء الله تعالى، الرحمن، الرحيم، الرؤوف.

والدين عند النورسي شيء طاهر ونظيف ولا يجوز استخدامه بزعم مصلحة الدعوة بشيء سيء أبداً. إنه لابد أن يبقى صافيا طاهرا بعيدا عن الحقد والمذهبية والطائفية والسياسات الآنية، كي ينهل منه الشاردون، ويرجع إليه الضالون، ويرضع منه المؤمنون، كل على قدر حاجته، وما قدر الله له.

٤ـ إنقاذ الجيل من التصوف المنحرف:

هناك جانب آخر من الحركة التجديدية لهذا الشيخ الجديد وهو إنقاذ الجيل من

براثن المتصوفة المنحرفين، الذين قادوا الأجيال إلى الركون والسكون تحت مظلة السير إلى الله تعالى بلا عودة، بينما السابقون من الأولياء الربانيين كانوا يسلكون الطريق إلى الله من أجل العودة إلى الأرض، وهم أكثر ايمانا وقوة وعزما وإقداما في القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

نعم أثبت النورسي للجيل المثقف الحالي والقادم أن العصر ليس عصر التصوف، لأن التصوف تجربة ذاتية، ولا يستطيع أن يقود حملة الصراع الحضاري الإسلامي مع عوامل النكوص والانحراف ومع هجمة اللادينية المادية الحديثة والزندقة الآتية من الغرب الكافر.

قال النورسي: ''لقد كنت أقول أن هذا الزمان ليس زمان الطريقة فالبدع تحول دون ذلك، مفكرا في حقائق الإيمان وحدها. ولكن الزمان أظهر أنه يلزم لكل صاحب طريقة بل الألزم له أن يدخل دائرة رسائل النور التي هي أوسع الطرق.''[12]

لماذا؟ يجيب الأستاذ:

''إن اخطر شيء في هذا الزمان هو الإلحاد والزندقة والفوضى والأوهام وليس تجاه هذه المخاطر إلا الاعتصام بحقائق القرآن الكريم''.[13]

وموقف النورسي من التصوف واضح في رفضه لمدارج السالكين الطويلة ولنظريات وحدة الوجود ووحدة الشهود والحلول وتقديس المشايخ، وبعد بيان موقفه يعرض البديل، الذي لخّصه في الرجوع إلى أوراد السنة النبوية الشريفة.[14]

٥ـ التعامل مع المجتمع وحدة متجانسة:

من معالم النورسي التجديدية، أنه ركز على وحدة المجتمع الإسلامي، وعارض الإخلال بنظامه الداخلي، واستعمال العنف في سبيل زعزعة أركانه، تحت مظلة إعلان الجهاد على الكافرين اللادينيين. وأكد أن الجهاد في الشريعة لا يوجه إلى المسلمين داخل العالم الإسلامي، وإنما يوجه إلى العالم الخارجي.

أما في داخل العالم الإسلامي فإن الجهاد يكون جهاد دعوة وعلم وبذل ونصيحة لإعادة المسلمين إلى حقيقة الإسلام حسب قانون التدرج الكوني.[15]

إن الحرب التدميرية داخل العالم الإسلامي تؤدي إلى قتل المسلمين بعضهم لبعض، وتنتهي إلى سلب الاستقرار من العالم الإسلامي، فتعيق بذلك نهضته العلمية

والعمرانية التي هي مقدمة مهمة لتقدم العالم الإسلامي وهذا التخريب لا يستفيد منه غير الأعداء الكافرين على المدى البعيد.

قال النورسي:

"إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله لأجل التخريب والشر."[16]

والحق أن هذه السياسة الحركية قد أنتجت ثمارا يانعة في تركيا، إذ في ظلها انتشرت رسائل النور، وغزت العقول والقلوب وانتهت إلى جهاد معنوي كبير وشامل انتهت إلى تكوين جيل مؤمن انطلق في المجتمع ينشر حقائق الإسلام بالتلمذة على رسائل النور في المدارس ودورات تحفيظ القرآن والمدارس الابتدائية والثانوية والجامعات والمؤسسات الثقافية والعلمية، بالنظر أو الاستماع إلى الإذاعات المرئية والمسموعة وقراءة الجرائد اليومية السياسية والعلمية والمتخصصة في شؤون الحياة المختلفة.

بينما لو أن النورسي واجه السلطة يومئذ بالتحدى والعنف، لكان يواجه بالعنف والتصفية الجماعية له ولمن يسير معه، واستمرت المحنة زمنا طويلا، ولم نكن لنرى تلك النتائج الباهرة التي ذكرناها قبل قليل.

٦- التعامل مع الغرب قاعدته الحجة:

هناك جانب تجديدي مهم في دعوة النورسي الإسلامية في تركيا. وهو تأكيده على أن الصراع بين العالم الإسلامي والعالم الغربي اليوم، ليس صراع القوة والسيف. لأن الإفلاس الغربي الفكري سيولد فراغا هائلا في الغرب. ومن هنا فإن جهاد المسلمين للعالم الغربي يجب أن يكون جهاد فكر وشرح لحقيقة الإسلام لهم. والدليل على ذلك أن طلائع دخول الغرب للإسلام قد ظهرت، لكون الصراع في هذا الزمان ليس صراع قوة، وإنما هو صراع ثقافي وفكري. أي أن المسلمين عليهم أن يواجهوا الغرب بسيف القرآن، إذا أرادوا هداية شعوبه إلى نور الإسلام.

والحق أن إدراك النورسي السديد لحقيقة الصراع المستقبلي بين المسلم والعالم دفعه إلى توجيه رسائله ليس إلى المسلمين فقط، وإنما إلى الإنسان في أي مكان من

حيث العموم. فقد عرض الإسلام ومشكلات العالم الإسلامي، لاسيما الصراع بين الإيمان والكفر وكأنها مشكلات الإنسانية جميعها.

أجل كانت دعوة النورسي موجهة إلى الغرب والإنسانية أيضا لأنه:

أ - يثبت الإيمان عن طريق نتائج العلم الذي يفهمه الغربيون.

ب - ينقد مساوئ الحياة الغربية ومناوأتها للدين.

ج - يرد الاعتراضات الفكرية على الدين والتي خرجت أساسا من الغرب.

د - يضع نظما فكرية في المجالات التي يفهمها الغربيون.[17]

٤ -الاهتمام بتوجيه الأمة إلى التفوق العلمي:

من معالم التجديد في حياة النورسي، اهتمامه الكبير بالتوجه العلمي والتقني للأمة وبالسير على نظام اقتصادي متوازن، من أجل الوصول إلى البناء السليم للأمة وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

فالإسلام بأمس الحاجة إلى إعلاء كلمة الله، ليس بالكلام فحسب، وإنما بصياغة حياة الأمة الإسلامية صياغة ربانية في ظل طاعة الله. ولا تستطيع الأمة المحافظة على عزة الإسلام وإعلاء كلمة الله، إلا بأن تعيد بناءها العلمي والتقني والصناعة التخصصية، بتحكيم دستور تقسيم العمل وإبعاد العشوائية والفوضى من حياتها.

وأما في مجال الاقتصاد، فإن النورسي يقدم مخططا دقيقا وعميقا لإيصال الأمة إلى نظام اقتصادي متوازن، من الممكن أن نسميه بـ ''اقتصاد القناعة'' مع الحركة الدائبة في الحياة والاشتغال بالحرف التي توافق قابليات واستعدادات الناس.[18]

هذه بكثير من الإجمال والاختصار، هي معالم فكر النورسي التجديدي. قادها منهج أصولي شمولي عصري، متكامل متوازن، مع قدرة ذاتية فائقة في التخطيط والحركة والاجتهاد، مستندة إلى فهم عميق لأصول الإسلام وفروعه ومعركة ذكية بتطور الزمان العالمي، وملامح عصره ومجتمعه ومشكلاته المستعصية، وكيفية علاجها بالتلمذة على القرآن الكريم ثم الرسول الأعظم ﷺ ثم قراءة الكون بقدرة سَرَيانية عجيبة حتى أبعد خلية مدركة فيه.

* * *

الهوامش:

[1] أ.د. محسن عبد الحميد: أستاذ الفكر الإسلامي وتفسير القرآن الكريم بكلية علوم التربية، بغداد، العراق.

[2] صدر في القاهرة عام ١٩٩٥م.

[3] النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ص: ٢٣٩، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢.

[4] انظر كتابي ''النورسي متكلم العصر الحديث ''ص ١١٠ وما بعدها.

[5] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، المحاكمات ص ١٢٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٥.

[6] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.

[7] كان بحثي الذي قدمته إلى المؤتمر العالمي لفكر النورسي في إستانبول الذي عقد في ايلول ١٩٩٨ بعنوان ''مصادر المعرفة في القرآن الكريم من خلال رسائل النور''.

[8] الكلمات: ص ٢٩٠، ٧٤٩.

[9] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ص ٤٢٤. ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣.

[10] المصدر السابق ص ١٣٥.

[11] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ص ٥٣٦، دار سوز للطباعة والنشر، استانبول ٢٠٠٦.

[12] الملاحق - ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٦٣.

[13] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ص ٣٤٤، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٥.

[14] الملاحق: قسطموني ٢٠٨.

[15] النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣، اللمعة الثلاثون، ولاسيما النكتة الخاصة باسم ''الحكيم''.

[16] اللمعات ص ١٦٠.

[17] الدعوة والإرشاد في الغرب- سعيد ابراهيم - بحث ضمن المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي ص ١٨٥.

[18] راجع البحث القيم ''المنهج العوفي وإعلاء كلمة الله عند بديع الزمان''للدكتور بنيامين دوران، ضمن أبحاث المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي.

العدالة الإلهية وإشكالية الشر في فكر الأستاذ النورسي

ذ. إلياس بلكا[1]

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده وأفضل الصلاة والتسليم على نبيه وآله.

من المشكلات العويصة التي شغلت الفكر الإنساني، منذ بدايته إلى اليوم: قضية وجود الشر والظلم وأنواع الفساد في هذه الحياة الدنيا. كيف يكون ذلك، وكل ما في الكون يشير إلى عدالة الخالق وحكمته ورحمته؟[2]

إنها القضية التي يصفها الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله بـ: "السؤال الرهيب"،[3] والتي اعترف -في عدة مواضع من رسائله- بأنها أخذت قسطا كبيرا من تفكيره العقلي وانشغاله النفسي.[4] فكيف رآها، وكيف أعمل فكره الفذ في حل إشكالاتها؟

المبحث الأول: "قيمة العدالة" في حياة الأستاذ النورسي وفكره

للعدالة مكانة فائقة الأهمية في تصور الشيخ، إذ كان الاستبداد -بجميع أنواعه- من أسباب كسوف شمس الإسلام، ومن عوامل تأخر الأمة في مضمار المدنية، بل لعله أهم هذه العوامل.[5]

وتكشف رسالته المناظرات ومرافعة المحكمة العسكرية العرفية عن هذا الوعي الحاد بقيمة العدل والحرية في حياة الأفراد والمجتمعات..بل والكون أجمع، وبخطورة الظلم والاستعباد وأثرهما السيئ على الأمة.[6]

قال الأستاذ: "إن الاستبداد المتعسف لا صلة له بالشريعة الغراء، وإن الشريعة قد أتت لهداية العالم أجمع كي تزيل التحكم الظالم والاستبداد."[7] لذلك فإن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو الشورى.[8] بل إن كراهية النورسي الشديدة للظلم والظالمين كانت من أهم أسباب ابتعاده عن السياسة وشؤونها، قال: " إن أشد أنواع الظلم مع أشد أنواع الاستبداد قد أصبحا دستورا وقانونا من قوانين

الصراع والنزاع المادي في هذا العصر، وهذا يعني أن كثيرا من الأبرياء يذهبون ضحية خطأ فرد واحد، أو يقع هذا الفرد مغلوبا على أمره.''[9]

ويبدو أن الظلم الكثير الذي وقع على الشيخ -السجن والنفي والمنع من الكتابة ولقاء التلامذة...- أرهف حسه لقضية العدل في جميع أبعادها، أعني سواء كان الموضوع عدلا إلهيا أم عدلا إنسانيا. لقد كان النورسي يرحمه الله يشير مرارا إلى أن حياته كانت مليئة بالآلام وبأنواع الظلم.[10]

لا عجب إذن أن ينشغل هذا العقل الفذ العبقري بواحد من أكبر الإشكالات وأعقدها في تاريخ الفكر البشري، ألا وهو: إذا كان الله سبحانه عادلا فلِمَ يسمح بوقوع الظلم في الكون، وكيف نفسر هذه الشرور العظيمة الحادثة في الحياة الدنيا؟ قال الأستاذ: ''لقد كنت أتألم لحال ذوي الحياة، ولاسيما لذوي الشعور منها، وبالأخص لحال الإنسان، وبخاصة المظلومين والمبتلين بالمصائب منهم، لما أحمل من عطف متزايد وشفقة مفرطة، فكانت أحوالهم تمس عطفي وتثير شفقتي وتوجع قلبي وتعصره. فكنت أقول من أعماق قلبي: إن القوانين المطردة السارية في العالم لا تسمع ما يعانيه هؤلاء البائسون الضعفاء العاجزون. وإن تلك العناصر والحوادث الصماء المستولية لا تسمع أنينهم، أليس من أحد يتدخل في شؤونهم الخاصة رحمة بهم ورأفة بأحوالهم التي يرثى لها؟ فكانت روحي تصرخ من الأعماق. وكذا أليس من مالك حقيقي ومولى كريم يرعى ويتولى أولئك العبيد الرائعين في الحسن وتلك الأموال القيمة الثمينة جدا، وهؤلاء الأحباب الأوّاه المشتاقين الممتنين كثيرا؟ نعم، كان قلبي يصرخ بهذا بكل ما أوتي من قوة.''[11]

مفهوم العدل عند الأستاذ النورسي:

لم يذكرالأستاذ تعريفا لمصطلح العدل، لكن يمكن أن نستنبط مما كتبه في رسائل النور أن مفهوم العدل عنده يرتكز على أساسين:

أ- الأول، هو التوازن وإعطاء كل ذي حق حقه بميزان دقيق، إذ إن فعل الوزن والميزان هو تجل من تجليات اسم العدل والعادل من أسماء الله سبحانه.[12] مثال ذلك الأشجار والثمار والأزهار، فكل منها يعبر عن ذلك الميزان الدقيق العادل الذي هو ضمن النظام البديع المحكم، وفي هذا الميزان الدقيق الذي يدل على العدل نقوش صنعة دقيقة بديعة وزينة فائقة...[13]

ب- الثاني، هو الحق. لذلك بينما تتأسس المدنية الحاضرة على القوة التي من

شأنها التجاوز والاعتداء، فإن المدنية الإسلامية ترتكز على الحق الذي من شأنه العدالة والتوازن.[14] وأصل ذلك أن الفلسفة تحبذ القوة وتتخذها أساسا وقاعدة مقررة لنهجها، حتى إن مبدأ ''الحكم للغالب'' دستور من دساتيرها، وتأخذ بمبدأ ''المصائب الأليمة من زاوية الإيمان بالقدر الحق في القوة'' فأعجبت ضمنا بالظلم والعدوان، وحثت الطغاة والظلمة حتى ساقتهم إلى دعوى الألوهية. أما النبوة فهي تقرر أن القوة في الحق وليس الحق في القوة، فتقطع بهذا دابر الظلم وتحقق العدل.[15]

المبحث الثاني: العدل من صفات الله تعالى:

من أهم الصفات الإلهية التي خصها الأستاذ النورسي بالاهتمام، فَبَيَّنَها وشرح مقتضياتها: صفة العدل، فهي كثيرة الورود والتكرر في رسائل النور.

١ـ تجلي اسم العدل في الكون:

فاضت صفة العدل على الموجودات التي عكست هذا العدل الإلهي الجميل: ''إن العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم 'العدل' إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل.''[16] قال الأستاذ: ''إننا نرى أن وظائف المخلوقات تنسج على منوال الحكمة وتكال بميزان العدل، وهما من الدقة والحساسية لا يتصور الإنسان أفضل منهما..وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة، ابتداء من ميكروب صغير إلى كركدن ضخم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاه بملايين من الأزهار. وتراها تمنح كل عضو تناسقا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاما لا ترى فيه إلا الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال، فضلا عن أنها تهب لكل ذي حياة حق الحياة، فتيسر له سبل الحياة، وتنصب له موازين عدالة فائقة، فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها...''[17]

٢ـ جميع أفعاله سبحانه عدل:

إن الله جل وعلا لا يظلم مثقال ذرة، وكل ما يصدر عنه هو عدل وحكمة. لهذا ذكر تعالى الميزان أربع مرات في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.الرحمن:٧-٩ وهذا بيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في الكون. لذلك فكما لا إسراف في شئ فلا ظلم

كذلك ظلما حقيقيا في شئ، ولا بخس في الميزان قط.[18] قال الأستاذ النورسي: ''هل تريد برهانا على إنجاز الأعمال بالعدل والميزان؟ إن منح كل شئ وجودا بموازين حساسة، وبمقاييس خاصة، وإلباسه صورة معينة، ووضعه في موضع ملائم..يبين بوضوح أن الأمور تسير وفق عدالة وميزان مطلقين. وكذا إعطاء كل ذي حق حقه وفق استعداده ومواهبه، أي إعطاء كل ما يلزم، وما هو ضروري لوجوده، وتوفير جميع ما يحتاج إلى بقائه في أفضل وضع، يدل على أن يد عدالة مطلقة هي التي تسير الأمور. وكذا الاستجابة المستمرة والدائمة لما يسأل بلسان الاستعداد أو الحاجة الفطرية، أو بلسان الاضطرار، تظهر أن عدالة مطلقة وحكمة مطلقة هما اللتان تجريان عجلة الوجود.''[19]

٢- هيمنة العدالة الإلهية على الكون:

وقد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: كيف تكون جميع أفعال الباري عدلا وحكمة ونحن نشاهد في الوجود جوانب من الظلم والفساد؟

وهنا لجأ الأستاذ –على عادته الجميلة في التمثيل- إلى ضرب هذا المثال: لنفترض أن هذا الكون قصر بديع يضم مدينة واسعة تتداولها عوامل التعمير والتخريب، وتغلي من شدة مظاهر الحرب والهجرة، ويسكنها جمهور عظيم يتأرجح بين الحياة والموت..في النهاية وعلى الرغم من كل مظاهر الاضطراب فإن ميزانا دقيقا ونظاما ساميا يسيطران على المدينة ويقودانها. كذلك فإن ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العد من تحولات، وما يلج فيها وما يخرج منها لا يمكن أن يكون إلا بعملية وزن وكيل، وميزان من يرى أنحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجودات جميعها أمام نظر مراقبته في كل حين..ذلكم الواحد الأحد سبحانه.[20] فقد اقتضت حكمته السامية أن ''الكل يوزن ويقدر بميزان خارق الحساسية، وأن الجميع يكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقل الإنسان أن يرى إسرافا حقيقيا في مكان وعبثا في جزء، بل يلمس علم الإنسان ويشاهد أكمل نظام وأتقنه في كل شئ فيحاول أن يريه، ويرى أروع توازن وأبدعه في كل موجود فيسعى لإبرازه. فما العلوم التي توصل إليها الإنسان إلا ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع.''[21]

ولولا هذه العدالة التي لا تكل لكان أي شئ -مهما كان ضئيلا وبسيطا- قادرا على الإخلال بهذا التوازن الكامل بين أجزاء الكائنات ولانهار العالم سريعا.[22]

٣- دقة ميزان العدل الإلهي:

يكثر الأستاذ رحمه الله من الإشارة لميزان العدالة الربانية، وقدم لذلك مثالا بديعا حقا: لو أتينا بميزان جيد ووضعنا في كل من كفتيه بيضة في تعادل تام، فإن جوزة واحدة قادرة على ترجيح إحدى كفتي الميزان. كذلك في ميزان الله تعالى، وهو ميزان عظيم حساس جدا، يمكن لأصغر جوزة أن ترفع إحدى الكفتين وتخفض الأخرى حتى لو كان هناك جبلان عظيمان هائلان في حالة موازنة كاملة.[23]

٤- الصفات الأربعة:

شرح الأستاذ أسماء الله الحسنى أبلغ شرح وأحسنه، وبيّن تجلياتها في الوجود. لكن أكثر عنايته انصرفت إلى الصفات الأربعة: العدالة والحكمة والرحمة والجمال... فهذا واضح من استقراء رسائل النور.

قال في العدل والجمال: ''انظر إلى الكون أجمع، لقد ضم العدل الإلهي جميع موجوداته تحت جناح ميزانه ويديم موازنة الأجرام العلوية والسفلية، ويعطيها التناسب والتلاؤم الذي هو أهم أساس للجمال، ويجعل كل شئ في أفضل وضع وأجمله، ويعطي كل ذي حياة حق الحياة، فيحق الحق ويحد من تجاوز المعتدين ويعاقبهم... فشاهد الجمال الباهر جمال هذه العادلية الإلهية.''[24]

وفي العدل والحكمة: الحكمة المطلقة والعدالة التامة هما منشأ جميع الانتظام والأنظمة والموازنة ومنبعها ومدارها ومصدرها.[25] وأنت إذا نظرت إلى التجلي الأعظم لاسم ''الحكم'' تر أنه قد منح الموجودات كلها -من أصغرها إلى أكبرها- ما تستحقها من نظام مثمر وانسجام مفيد.[26] ثم ''انظر من خلف التجلي الأعظم لاسم 'الحكم' إلى التجلي الأعظم لاسم 'العدل'... تره يدير جميع الكائنات بموجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة بحيث يجعل العقول في حيرة وإعجاب، فلو فقد نجم من الأجرام السماوية توازنه لثانية واحدة، أي إذا انفلت من تجلي اسم 'العدل' لحل الهرج والمرج في النجوم كلها ولأدى -لا محالة- إلى حدوث القيامة.''[27]

أما صفة الرحمة -وما تقتضيه من العناية بالموجودات- فقد كتب عنها في رسائله ما يقدر بمئات الصفحات.

وكل الصفات الإلهية -خصوصا هذه الأربعة- هي تجليات لذات علية واحدة وأفعال في فعل واحد. يقول الأستاذ: ''قد ثبت ببراهين دامغة في أغلب أجزاء رسائل النور أن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجل من تجليات اسم الحكم والحكيم، وأن فعل الوزن والميزان الذي هو تجل من تجليات اسم العدل العادل، وأن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجل من تجليات اسم الجميل والكريم، وأن فعل التربية والإنعام الذي هو تجل من تجليات اسم الرب الرحيم... كل فعل من هذه الأفعال هو فعل واحد، وحقيقة واحدة، تشاهد بوضوح في آفاق الكون كله، فكل منها يشير إلى وجوب وجود واحد أحد، ويبين وحدانيته بجلاء.''[28]

المبحث الثالث: قواعد الاعتقاد في مسألة وجود الشر والظلم والفساد:

كيف نفهم مشكلة الشر، وما هو المعتقد الصحيح الذي يطالبنا به الدين الحنيف؟ للجواب على ذلك يعلمنا الأستاذ النورسي هذه الحقائق الإيمانية:

١ـ الفعالية الإلهية:

إن الحقيقة الأولى -كما قال الأستاذ- هي حقيقة الفعالية المستولية والمهيمنة على الكون، فهي التي تدير وتبدل وتجدد جميع المخلوقات، صغيرة كانت أم كبيرة... ونحن نشاهد فيما حولنا آثار هذه الفعالية الربانية الشاملة ونرى هيمنتها من وراء الستار. قال النورسي: ''هكذا يتقرر بناء على هذه الحقيقة والقاعدة أن هذا الكون -بموجوداته كافة- قد كتب بقلم القدر وبني بمطرقة القدرة.''[29]

٢ـ الله خالق كل شئ:

بما في ذلك الشر: وبناء على شمول الفعالية الإلهية للموجودات جميعا، فإننا نعتقد ''أن كل شئ بخلقه سبحانه، إلا أن الشرور والقبائح والقصور والمساوئ إنما تترتب على لوازم ماهيات الممكنات وقابلياتها، فيجيب الخالق الجواد المطلق بالإيجاد، كل ما تسأله الممكنات بألسنة استعداداتها. فالحسن راجع إليه بالوجهين: أي بالخلق والاقتضاء. وأما القبح والقصور فبالخلق راجع إليه دون المقاضاة والسؤال.''[30]

٣ ـ خلق الشر غير كسبه:

''إن خلق الشر ليس شرا، وإنما كسب الشر شر، لأن الخلق والإيجاد ينظر إليه من حيث النتائج العامة. فوجود شر واحد، إن كان مقدمة لنتائج خيرة كثيرة، فإن إيجاده

يصبح خيرا باعتبار نتائجه، أي يدخل في حكم الخير... أما الكسب الذي هو مباشرة جزئية للأمر، فإنه يصبح شرا لأنه وسيلة تفضي إلى شر خاص معين، فيكون كسب الشر بذلك شرا، بينما لا يكون الإيجاد شرا، بل يكون خيرا، لأنه يرتبط بجميع النتائج المترتبة فلا يكون إذن خلق الشر شرا. وهكذا ولعدم إدراك المعتزلة هذا السر ضلوا، إذ قالوا: إن خلق الشر شر وإيجاد القبح قبح. فلم يردوا الشر إلى الله سبحانه وتعالى تقديسا وتنزيها له، وتأولوا الركن الإيماني: وبالقدر خيره وشره من الله تعالى."[31]

٤- الخير من الله والشر من العبد:

وإذا كان الله تعالى يخلق كل شئ، من خير أو شر، ثم الإنسان يكسبه..فإننا -من باب الأدب مع الباري سبحانه- نضيف الخير إليه بينما نضيف الشر إلى أنفسنا، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ النساء:٧٩ 32.

٥- الوجود خير محض، والعدم شر خالص:

قال الأستاذ في بيان هذه الحقيقة العميقة: "لقد اتفق العلماء المحققون وأهل الكشف على أنّ العدم شرّ محض، والوجود خير محض. نعم، إن الخير والمحاسن والكمالات -بأكثريتها المطلقة- تستند إلى الوجود وتعود إليه، فأساسها إيجابي ووجودي، أي ذو أصالة وفاعلية، وإن بدت ظاهرا سلبية وعدمية. وإن أساس وأصل الضلالة والشر والمصائب والمعاصي والبلايا وأمثالها من المكاره هو عدم وسلبي. وما فيها من القبح والسوء فناجمان من عدميتها، وإن بدت ظاهرا إيجابية ووجودا، لأن أساسها عدم ونفي، أي بلا أساس وبلا فعل إيجابي. ثم إن وجود البناء يتقرر بوجود جميع أجزائه كما هو ثابت بالمشاهدة، بينما عدمه ودماره يمكن أن يحصل بتهدم أحد أركانه وعدمه. أي أن الوجود يحتاج إلى علة موجودة، ولا بد أن يستند إلى سبب حقيقي، بينما العدم يمكن أن يستند إلى أمور عدمية ويكون الأمر العدمي علة لشئ معدوم.

فبناء على هاتين القاعدتين: فإن شياطين الإنس والجن ليس لهم ولو بمقدار ذرة واحدة نصيب في الخلق والإيجاد وما تكون لهم أية حصة في الملك الإلهي، مع أن لهم آثارا مخيفة وأنواعا من الكفر والضلالة وأعمالا شريرة ودمارا هائلا، إذ لا يقومون بتلك الأمور بقدراتهم وقوتهم الذاتية، بل إن أغلب أعمالهم ليس فيها فعل وقدرة حقيقية، وإنما هي من نوع: ترك الفعل، وتعطيل العمل، وصد للخير، فيعملون الشر

بالصرف عن الخير، فتحصل الشرور. لأن الشرور والمهالك هي من نوع الهدم والتخريب فلا يلزم أن تكون علتها إيجادا فاعلا، ولا قدرة موجدة، إذ يمكن التخريب الهائل بأمر عدمي، وبإفساد شرط. ولعدم وضوح هذا السر عند المجوس فقد اعتقدوا بوجود خالق للخير وأسموه يزدان، وخالق للشر وأسموه أهريمان، بينما لا يعدو هذا الإله الموهوم سوى الشيطان الذي يكون سببا للشرور ووسيلة لها، بالإرادة الجزئية وبالكسب، دون الإيجاد."[33]

٦- الأصل هو الخير، والشر تبعي:

"إن الخير هو الأصل في العالم، أما الشر فهو تبعي. فالخير كلي والشر جزئي. إذ: يشاهد أنه قد تكون -وما زال يتكون- علم خاص لكل نوع من أنواع العالم؛ والعلم عبارة عن قواعد كلية. فإذا كانت الكلية قاعدة، فهي إذن كشَّافة عن حسن الانتظام في ذلك النوع. أي أن كل علم من العلوم شاهد صادق على حسن الانتظام. نعم، الكلية دليل على الانتظام، لأن ما لا انتظام فيه لا كلية لحكمه، بل يكون هزيلا لكثرة استثناءاته. والذي يزكي هذا الشهود الاستقراء التام بنظر الحكمة. إلا أنه أحيانا لا يرى الانتظام، لسعة دائرته عن أفق النظر، فلا يمكن الإحاطة به ولا تصوره، وعندئذ يصعب أن يبين النظام نفسه. وبناء على ما سبق: فقد ثبت بشهادة العلوم جميعها، وبتصديق الاستقراء التام الناشئ من نظر الحكمة أن الحسن والخير والحق والكمال هو المقصود بالذات والغالب المطلق في خلق العالم. أما الشر والقبح والباطل، فهي أمور تبعية ومغلوبة ومغمورة، وحتى لو كانت لها الصولة فهي صولة مؤقتة."[34]

المبحث الرابع: حكم وجود الشر والظلم والمعاناة، وغلبتها أحيانا:

هذان سؤالان كبيران شغلا أهل الدين والفكر على مر العصور:

١- السؤال الأول: لماذا يوجد الشر والظلم؟

وقد أجاب أستاذنا عن هذا الإشكال بأجوبة متنوعة، أهمها:

أ- الآلام تجلي بعض أسماء الله الحسنى:

ذلك أن الله سبحانه "لأجل إظهار أسمائه الحسنى المتنوعة يبتليك بأنواع من البلايا فيمرضك حينا ويمتعك بالصحة أحيانا أخرى، ويجيعك مرة ويشبعك تارة ويظمئك أخرى. وهكذا يقلبك في أمثال هذه الأطوار والأحوال لتتقوى ماهية الحياة وتظهر جلوات أسمائه الحسنى."[35] فلأجل "إظهار نقوش أسمائه الحسنى يبدلك

ضمن حالات متنوعة ويضعك في أوضاع مختلفة. فكما أنك تتعرف على اسمه ''الرزاق'' بتجرعك مرارة الجوع، تتعرف على اسمه ''الشافي'' بمرضك.''[36] ولما كانت الحياة تبين نقوش هذه الأسماء الحسنى فكل ما ينزل بالحياة إذن جميل وحسن.[37] وبهذا تتعرف إلى ربك وخالقك.

ب- الحركة ضرورة لتحقيق حكمة الابتلاء:

إذ ''لما كان العدم شرا محضا، فالحالات التي تنجر إلى العدم أو يشم منها العدم تتضمن الشر أيضا، لذا فالحياة التي هي أسطع نور للوجود تتقوى بتقلبها ضمن أحوال مختلفة، وتتصفى بدخولها أوضاعا متباينة... وبناء على هذه الحقيقة تعرض حالات على الأحياء في صور الآلام والمصائب والمشقات والبليات، فتتجدد بتلك الحالات أنوار الوجود في حياتهم وتتباعد عنها ظلمات العدم، وإذا بحياتهم تتطهر وتتصفى، ذلك لأن التوقف والسكون والسكوت والعطالة والدعة والرتابة، كل منها عدم في الكيفيات والأحوال. حتى إن أعظم لذة من اللذائذ تتناقص بل تزول في الحالات الرتيبة.''[38] ويزيد الأستاذ هذا الملحظ الفلسفي الدقيق بيانا، فيقول: ''...إذ من المعلوم أن السكون والهدوء والرتابة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجود وخير.فالحياة تتكامل بالحركة وتترقى بالبلايا وتنال حركات مختلفة بتجليات الأسماء وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع، حتى تكون قلما متحركا لكتابة مقدراتها، وتفي بوظائفها، وتستحق الأجر الأخروي.''[39]

ج- تضاد الخير والشر، وتناقض الكمال والنقص:

الخير والشر صورتان لا يمكن فهم إحداهما دون الأخرى، فوجود الشر هو الذي يبين لنا ما هو الخير ويقدمه لنا في أسطع صورة وأبهى منظر. ولولا النقص لم ندرك حقيقة الكمال. اسمع إلى الأستاذ رحمه الله، وهو يجلي بلسان الحكمة: ''اتفق أهل الحق على القول: إنما الأشياء تعرف بأضدادها. فمثلا: لولا الظلمة لما عرف النور ولظل دون لذة، ولولا البرودة لما عرفت الحرارة ولبقيت دون استساغة، ولولا الجوع لما أعطى الأكل لذته وطعمه، ولولا حرارة المعدة لما وهبنا احتساء الماء ذوقا، ولولا العلة لكانت العافية بلا ذوق، ولولا المرض لباتت الصحة عديمة اللذة. إن الفاطر الحكيم لما أراد إشعار الإنسان وإحساسه مختلف إحسانه وإذاقته أنواع نعمه سوقا منه إلى الشكر الدائم، جهزه بأجهزة في غاية الكثرة لتقبل على تذوق تلك الآلاف المؤلفة

من أنواع النعم المختلفة، لذا فلابد من أنه سينزل الأمراض والأسقام والعلل أيضا مثلما يلطف ويرزق بالصحة والعافية."[40]

د- حكمة خلق الشياطين:

من الأسباب الظاهرية للحوادث، والتي خلقها الله تعالى ستائر تحجب قدره: الملائكة والجن. قال النورسي رحمة الله عليه: "ما يقوم به جميع الملائكة، وجميع الأسباب الظاهرة من واجبات ووظائف إنما (هي) ستائر لعزة الربوبية، لتبقى عزة القدرة الإلهية وقدسيتها ورحمة الله المحيطة الشاملة مصونة في الأمور والأشياء التي لا ترى فيها أوجه الجمال، ولا تعلم فيها حقائق الحكمة، من دون أن تكون هدفا للاعتراضات الباطلة. ولا يشاهد عندئذ بالنظر الظاهري مباشرة يد القدرة في الأمور الجزئية والمنافية للرحمة والأشياء التافهة... فكما أن الملائكة والأسباب الظاهرية المستخدمة في أمور الخير والوجود، هي وسائل للتقديس الرباني وتسبيحه، فيما لا يرى ولا يعلم جماله من الأشياء، وذلك بتنزيه القدرة الربانية وصيانتها عن التقصير والظلم، كذلك فإن استخدام شياطين الجن والإنس والعناصر المضرة في أمور الشر والعدم، هو الآخر نوع من الخدمة للتسبيحات الربانية ووسيلة للتقديس والتنزيه والتبرئة من كل ما يظن نقصا وتقصيرا في الكائنات وذلك لصيانة القدرة السبحانية، كيلا تكون هدفا لإلصاق الظلم بها وتوجيه الاعتراضات الباطلة إليها، ذلك لأن جميع التقصيرات تأتي من العدم، ومن العجز، ومن الهدم، ومن إهمال الواجبات –الذي كل منه عدم– ومما ليس له وجود من الأفعال العدمية. فهذه الستائر الشيطانية والشريرة قد أضحت وسائل لتقديس الحق سبحانه وتعالى لما حملت على عاتقها –باستحقاق– تلك الاعتراضات والشكاوى لكونها مرجعا لتلك التقصيرات ومصدرا لها."[41]

فإن قلت: كيف ذلك، والشياطين هم الشر المحض تسلطوا على بني آدم وأوردوا كثيرا منهم موارد الهلاك؟ جاءك الجواب: "إنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، تكمن في وجودهم كثير من المقاصد الخيرة الكلية وكمالات، ترقى بالإنسان في سلم الكمال. نعم، كما أن هناك مراتب كثيرة بدءا من البذرة إلى الشجرة الباسقة، كذلك للاستعدادات الفطرية الكامنة في ماهية الإنسان من المراتب والدرجات ما تفوق ذلك، بل قد تصل إلى المراتب الموجودة بين الذرة والشمس. ولكي تظهر هذه الاستعدادات وتنبسط لابد لها من حركة، ولابد لها من تفاعل وتعامل. فحركة لولب الرقي ونابض السمو في ذلك التعامل هي بـ 'المجاهدة'. ولا تحصل هذه 'المجاهدة' إلا بوجود

الشياطين والأشياء المضرة، إذ لولا تلك 'المجاهدة' لظلت مرتبة الإنسان ثابتة كالملائكة، وعندها ما كانت لتظهر تلك الأصناف السامية من الناس التي هي بحكم الآلاف من الأنواع في النوع الإنساني. وحيث إنه ليس من الحكمة والعدالة بشئ أن يترك الخير الكثير جدا تجنبا لحصول شر جزئي، فإن انزلاق كثير من الناس بخطوات الشيطان، لا يحمل أهمية كبيرة مادام التقويم والأهمية يأخذ 'النوعية' بنظر الاعتبار ولا ينظر إلى الكمية إلا قليلا، بل قد لا ينظر إليها. مثال ذلك: شخص لديه ألف وعشر من البذور، زرعها في التراب، فجعلها تتعرض للتفاعلات الكيماوية. فإذا أنبتت عشر من تلك البذور وأينعت، فإن المنافع الحاصلة منها تفوق -بلا شك- خسارة الألف بذرة التي تعرضت للتلف والفساد. وهكذا، فإن المنافع والمنزلة والأهمية التي حازتها البشرية من عشرة أشخاص كاملين يتلألأون كالنجوم في سمائها، والذين أخذوا بيد الإنسانية إلى مراقي الفلاح، وأضاءوا السبل أمامهم وأخرجوهم إلى النور بمجاهدتهم للنفس والشيطان... لاشك أنها تزيل ما يلحق بها من أثر الضرر الناجم من كثرة الداخلين في حمأة الكفر من الضالين الذين يعدون من جنس الحشرات لتفاهتهم ودناءتهم. لهذا فقد رضيت العدالة الإلهية وحكمتها وسمحت الرحمة الربانية بوجود الشياطين وتسلطها."[42]

هـ- خلق الشر جزء من العدل وكمال الحكمة:

إن خلق شرور جزئية هو عين العدل وكمال الحكمة، إذ -كما قال الأستاذ رحمه الله-: "إن خلق الشر ليس شرا، بل كسب الشر شر، لأن الخلق والإيجاد يتطلع إلى جميع النتائج ويتعلق بها، بينما الكسب يتعلق بنتائج خصوصية، لأنه مباشرة خاصة. فمثلا: إن النتائج المترتبة على نزول المطر تبلغ الألوف، وجميعها نتائج حسنة وجميلة، فإذا ما تضرر أحدهم من المطر بسوء تصرفه وعمله، فليس له الحق أن يقول: إن إيجاد المطر لا رحمة فيه. وليس له أن يحكم بأن خلق المطر شر، بل صار شرا في حقه بسوء اختياره وسوء تصرفه وبكسبه هو بالذات. وكذا خلق النار، فيه فوائد كثيرة جدا، وجميعها خير، ولكن لو تأذى أحدهم من النار بسوء كسبه وباستعماله السيئ لها، فليس له أن يقول: إن خلق النار شر، إذ النار لم تخلق لإحراقه فقط، بل هو الذي أدخل يده في النار التي تطبخ له طعامه، فجعل بسوء عمله تلك الخادمة المطيعة عدوة له."[43]

فالحاصل أن ترك الخيرات الكثيرة -التي تتحقق بحياة الموجودات- لمنع ضرر جزئي وشر قليل هو -في الواقع- ضرر كلي، وشر كثير، وهذا ينافي حكمة عدالة

العدل الحكم.[44] ذلك أن مؤداه أن مئات الخيرات تفوت فلا تحصل في حين تقترف مئات الشرور والمظالم للحيلولة دون وقوع شر واحد.[45] ويضرب النورسي لهذا مثالا من الجهاد، ففيه خير كثير بنجاة الإسلام من سيطرة الكافرين، فلو ترك الجهاد خشية حدوث أضرار محدودة لحصل شر عظيم، وهذا -كما يقول النورسي- هو عين الظلم.[46]

و- وجود الشر والآلام فتح لباب العبودية:

يعد وجود الشر -بأنواعه- والآلام فتحا لباب العبودية على مصراعيه أمام الناس، لأنهم يدعون ربهم ويستغيثون به، فيسمعهم ويمدهم بإحسانه. ومن المعروف أن أكثر الناس ينسون ربهم في السراء ويذكرونه في الضراء.[47]

٢- السؤال الثاني: أسرار الغلبة الظاهرية للظلمة وأهل الشر:

لكن الكلام عن حكمة وجود الشر هو غير الكلام عن حكمة ''غلبة'' الشر. أعني أننا إذا فهمنا بعض أسرار وجود القبح والظلم في الدنيا، فإن السؤال التالي هو: لماذا ''يغلب'' -كثيرا- أهل الكفر والضلال أصحاب الحق والإيمان، ولم يتفوق حزب الشيطان على حزب الصالحين في كثير من الأحوال؟ وكيف يصح مع هذا أن نقول: الحق يعلو ولا يعلى عليه؟

وقد ورد هذا الاستفهام على الأستاذ النورسي مرارا، وأجاب عنه في مواضع كثيرة تفرقت في كتبه. ويحكي رحمه الله أنه فكر هو أيضا في هذا الإشكال، قال: ''لقد شاهدت مرارا بنفسي أن عشرة في المائة من أهل الفساد يغلبون تسعين في المائة من أهل الصلاح. فكنت أحار في هذا الأمر، ثم بإمعان النظر فيه فهمت يقينا أن ذلك التغلب والسيطرة لم يكن ناتجا من قوة ذاتية ولا من قدرة أصيلة.''[48] فكان جواب الأستاذ: ''إن الضلالة والشر بأكثريتها المطلقة شئ عدمي وسلبي وغير أصيل، وهي إخلال وتخريب. أما الهداية والخير فهي بأكثريتها المطلقة ذات وجود وشئ إيجابي وأصيل، وهي إعمار وبناء. ومن المعلوم أنه يتمكن رجل واحد في يوم واحد أن يهدم ما بناه عشرون رجلا في عشرين يوما.''[49] لذلك يوجد فرق عظيم بين الحفاظ على قصر فخم ضخم وبين تدميره، فإن وجود الشيء يتوقف على وجود جميع أجزائه، بينما عدمه يحصل بانعدام جزء منه، لذا يكون التخريب أسهل.[50] قال الأستاذ: ''نعم، يتولى أحيانا مائة من الأشخاص المحافظة على قصر، عندما يحاول أحد الشريرين أو أي شخص مخرب إلقاء النار فيه خفية لتدميره... ذلك لأن بقاء القصر يتوقف على

جميع الشروط والأركان والأسباب الداعية إلى البقاء. أما تخريبه وهدمه فيكون بانعدام شرط واحد فقط. فعلى غرار هذا المثال نفهم كيف أن شياطين الجن والإنس يقومون بتخريب مدهش وبحريق معنوي عظيم بفعل قليل جدا، بمثل ما يقوم شرير بتدمير بناء فخم بإلقاء عود كبريت فيه... واستنادا إلى هذه النقطة فإن شياطين الجن والإنس والشريرين يتمكنون بقوة هزيلة جدا، أن يصدوا قوة لا حد لها لأهل الحق والحقيقة ويلجئوهم إلى باب الله ﷻ والسعي إليه دائما."[51]

وهذا سر التكرار القرآني للترغيب والترهيب وتحذيره الدائم للمؤمنين وتنبيههم المستمر على سلوك طريق الاستقامة، ذلك أن "طريق الفساد والهوى سهلة جدا، لأنها تخريب وهدم، لذا يسوق شيطان الإنس والجن الإنسانَ إليها بكل سهولة ويسر... لذا كان لابد لأولئك الذين يسلكون طريق الحق والهداية أن يجتنبوا وينبهوا، ويأخذوا حذرهم ويمد لهم يد العون دائما لكثرة حاجتهم إليها. لهذا يقدم الله سبحانه وتعالى في ذلك التكرار عونا وتأييدا لهم بعدد ألف اسم من أسمائه الحسنى، ويمدهم بآلاف من أيادي الرحمة والشفقة لإسنادهم وإمدادهم..."[52]

ثم ينبهنا الأستاذ النورسي على أمرين مهمين ودقيقين:

الأول: لا يلزم أن تكون كل وسيلة من وسائل كل حق حقا، كما لا يلزم أيضا أن تكون كل وسيلة من وسائل كل باطل باطلا. والنتيجة أن الوسيلة الحقة -ولو كانت في باطل- تغلب الوسيلة الباطلة، ولو كانت في الحق. وهذا مقتضى العدل الإلهي الذي يزن كل شيء بميزانه الدقيق ويعطي كل ذي حق حقه. ولذلك قد يتغلب الكافر -بصفة مشروعة يتصف بها- على المسلم الذي يتلبس بصفة غير مشروعة.[53] ثم إن حق الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع. والكفر ليس مانعا لحق الحياة الذي هو تجل للرحمة العامة والذي ينطوي على سر الحكمة في الخلق.[54]

الثاني: إن لله سبحانه إرادتين: واحدة تكوينية، والأخرى شرعية. والمسلم مأمور بطاعة الإرادتين معا، غير أنه في الغالب ما يجازى -بالثواب أو العقاب- مطيع الإرادة التكوينية في الدنيا، ومطيع الإرادة الشرعية في الآخرة. وطاعة الأمر التكويني -الذي هو حق- تغلب عصيان هذا الأمر، لأن مخالفة أي أمر تكويني تندرج في الباطل. فإذا ما أصبح حق وسيلة لباطل فسينتصر على باطل أصبح وسيلة لحق، وتظهر النتيجة كأن الحق مغلوب أمام الباطل، وهو في الحقيقة ليس مغلوبا بذاته، وإنما بوسيلته.[55] وهذا

سر مراعاة النبي الأكرم لقوانين عادة الله وسننه الجارية ونواميسه المؤسسة على العدل والحكمة.[56] فتبارك الله وتبارك عدله وميزانه.

على أن هذه الصورة -تدافع الحق والباطل- لا يمكن أن تكتمل دون أن نضع في حسباننا قدوم عالم الآخرة: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[57]

المبحث الخامس: كمال العدالة بعالم الآخرة.

وما أشد إلحاح الأستاذ على هذه العقيدة الإيمانية الكبرى: وجود العالم الآخر. فالأدلة على الحشر والآخرة كثيرة جدا، بل كل اسم من أسماء الله الحسنى يدل على ذلك بوجوه من الأدلة لا تتضمنها سائر الأسماء.[58]

وقد تفنن النورسي في هذا البيان، فذكر من حجج البعث واليوم الآخر ما لا يحصى، خاصة في ''رسالة الحشر''، وفي غيرها من رسائل النور.[59]

لكنني سأقتصر -بحكم طبيعة الموضوع الذي اخترته- على إيضاح دلالة صفة العدل الإلهي -دون غيرها- على الآخرة. وهي دلالة بسيطة وواضحة وعميقة في آن: لا يمكن لأهل الشر والظلم الواقعين في هذا العالم البديع المتقن ألا يعاقبوا، كما لا يمكن لأهل الخير والعدل ألا يثابوا. وما دام هذا الثواب والعقاب غير متحققين -على وجه مرض- في هذه الحياة، فلابد أن يتحقق ذلك في حياة أخرى.

١- الآخرة ضرورة أخلاقية:

قال الأستاذ في هذا المعنى: ''أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان... أن لا يعامل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وأن لا يجازي أولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟ بينما الإنسان لا يلقى ما يستحقه من الثواب أو العقاب في هذه الحياة الفانية على وجه يليق بتلك الحكمة وتلك العدالة إلا نادرا، بل يؤخر، إذ يرحل أغلب أهل الضلالة دون أن يلقوا عقابهم، ويذهب أكثر أهل الهداية دون أن ينالوا ثوابهم. فلابد أن تناط القضية بمحكمة عادلة، وبلقاء آيل إلى سعادة عظمى.''[60]

ويواصل شرح مقتضى العدالة الإلهية: إن القياس العدلي الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾فصلت:٤٦ خلاصته: ''إننا نرى كثيرا في عالمنا: أن الظالمين والفجار يقضون حياتهم في رفاه وراحة تامة، أما المظلومون والمتدينون فيقضونها في شظف من العيش بكل مشقة وإرهاق. ومن ثم يأتي الموت فيحصد

الاثنين معا دون تمييز، فلو لم تكن هناك نهاية مقصودة ومعينة لظهر الظلم إذن في المسألة؛ لذا فلابد من الاجتماع الأخروي بينهما حتى ينال الأول عقابه وينال الثاني ثوابه؛ إذ المنزه عن الظلم سبحانه وتعالى وهو العادل الحكيم -بشهادة الكائنات قاطبة- لا يمكن بحال من الأحوال أن تقبل عدالته وحكمته هذا الظلم ولا يمكن أن ترضيا به، فالنهاية المقصودة إذن حتمية''.[61]

''وما دام الرب سبحانه... يحب الإنسان، ويحبب نفسه إليه، وهو باق، وله عوالم باقية، ويجري الأمور وفق عدالته، ويعمل كل شيء وفق حكمته، وأن عظمة سلطان هذا الخالق الأزلي وسرمدية حاكميته لا تحصرهما هذه الدنيا القصيرة، ولا يكفيهما عمر الإنسان القصير جدا، ولا عمر هذه الأرض المؤقتة الفانية. حيث يظل الإنسان دون جزاء في هذا الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم، وما يقترفه من إنكار وكفر وعصيان، تجاه مولاه الذي أنعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسق، ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها، ويخالف جماله وحسنه، إذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش. فلا شك أن ماهية تلك العدالة المطلقة -التي يشاهد آثارها في الكائنات- لا تقبل أبدا، ولا ترضى مطلقا، عدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معا أمام الموت. فلابد ولا ريب مطلقا أن القيامة ستقوم، وأن الحشر والنشور سيحدث، وأن أبواب دار الثواب والعقاب ستفتح... لكي تتقرر عدالة رب الأرض والإنسان وحكمته ورحمته وسلطانه. ولكي ينجو الأولياء والأحباء الحقيقيون والمشتاقون على الرب الباقي من الفناء والإعدام الأبدي. ولكي يرى أعظمهم وأحبهم وأعزهم ثواب عمله، (يعني نبينا عليه السلام) ونتائج خدماته الجليلة التي جعلت الكائنات في امتنان ورضى دائمين. ولكي يتقدس كمال السلطان السرمدي من النقص والتقصير، وتتنزه قدرته من العجز، وتبرأ حكمته من السفاهة، وتتعالى عدالته عن الظلم.''[62]

لهذا لا يمكننا الحكم على معركة الحق والباطل بحالها في الحياة الدنيا فقط، بل لابد من اعتبار نهاية المعركة ونتيجتها في الحياة الأخرى:

''نعم، إن تغلب الشر طوال ألوف السنين لا يؤدي إلا إلى مغلوبية مطلقة لألف سنة في الأقل، محصورة في الدنيا. أما في الآخرة فسيحكم الخير على الشر بالإعدام الأبدي.''[63]

٢- الدنيا دار عمل لا جزاء:

وإنما يكون العدل الكامل في العالم الآخر، لأن: ''الدنيا هي دار العمل ودار الحكمة، وليست دارا للمكافأة والجزاء. فجزاء الأعمال والبر الذي يحصل هنا يكون في الحياة البرزخية والدار الآخرة، فتؤتي هناك أكلها وثمراتها. فما دامت الحقيقة هكذا يجب عدم المطالبة بثمرات الأعمال الأخروية وجزائها في هذه الدنيا''.[64]

٣- تجلي العدالة الإلهية في الدنيا:

إن حقيقة المحكمة الأخروية التي تقيم العدل الشامل لا تنفي أن الله جل جلاله قد يثيب المحسن ويعاقب المخطئ في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة. ولذلك ما أكثر ما أنزلت العدالة الربانية عذابها المدمر على الطغاة والظالمين والأمم الضالة.[65] ويسمي شيخنا هذه العدالة بـ ''العدالة السلبية''، ويعرفها بأنها تأديب غير المحقين بإحقاق الحق وإنزال الجزاء والعذاب عليهم. وهي في مقابل العدالة الإيجابية التي تعني إعطاء كل ذي حق حقه، فهي عدالة محيطة وشاملة لكل ما في هذه الدنيا.[66]

٤- لا غنى للأفراد والجماعات عن الإيمان بالآخرة لإقامة العدل:

''إن المرضى والمظلومين وأمثالنا من ذوي المصائب والفقراء والمساجين الذين حوكموا بعقوبات مشددة، كل هؤلاء يمثلون الجزء الأهم من البشرية. فإن لم يعنهم ''الإيمان بالآخرة'' وإن لم يتسلوا به فإن الموت الذي يجدونه أمامهم دائما بما عندهم من مرض، وإن الإهانة التي يرونها من الظلمة -دون أن يتمكنوا من الاقتصاص منهم ولا من إنقاذ شرفهم وكرامتهم من بين مخالبهم- وإن اليأس الأليم النابع مما أصاب أموالهم وأولادهم من الضياع في الكوارث، وأن الضيق الشديد الناشئ من آلام السجن وعذابه لسنوات عدة نتيجة لذة طارئة لا تستغرق دقائق أو ساعات... كل ذلك يصير الدنيا -بلا ريب- سجنا كبيرا لهؤلاء المنكوبين ويجعل الحياة نفسها عذابا أليما لهم! ولكن ما إن يمدهم الإيمان بالآخرة بالعزاء والسلوان إلا وينشرحون فورا، ويتنفسون الصعداء، لما يزيل عنهم من الضيق واليأس والقلق والاضطراب وسورة الثأر إزالة كلية أو جزئية كل حسب درجات إيمانه.''[67]

إن الأمة التي لا تؤمن بالآخرة ينتشر في صفوفها الظلم والرذائل، ويرتفع في سمائها صوت القوة لا الحق، والتعدي لا المحبة...[68] وأخيرا ينادي الأستاذ الكريم: ''أقسم باسم الرحمن الرحيم العادل الحكيم: إن البشرية لن تستطيع أن تهضم بسهولة

وسلامة الشر والقبح والباطل، ولن تسمح لها الحكمة الإلهية، لأن من يتعدى على حقوق الكائنات العامة لا يعفى عنه، ولا يسمح بعدم إنزال العقاب عليه''.[69]

المبحث السادس: جمال الرضا بعدالة القدر والقضاء.

وفي انتظار الآخرة على المؤمن أن يسعى لها سعيها ويعد لها عدتها، ويقابل ما يبتليه به القضاء الإلهي بالصبر الجميل والاعتقاد الحسن... وكذلك تفعل الأمة في مجموعها.

١- القدر عدل ورحمة:

إن ما يقدره الله جل جلاله على الكائنات، ومنها الإنسان، كله عدل وحكمة، لا ظلم فيه ولا حيف، ولا عبث ولا لعب. يحكي الشيخ كيف شعر ذات يوم بحزن شديد لما تقاسيه البشرية من آلام وكيف أنها دخلت شتاءها المعنوي المليء بالدماء، ولعل ذلك كان في فترة الحرب الثانية، فورد إلى قلبه هذا المعنى: إن تألمك هذا يجري مجرى الانتقاد للحكمة الربانية، فكر أن العصاة ينالون جزاءهم، والأبرياء والمظلومون سينالون ثوابهم بأضعاف ما قاسوا.[70]

قال أستاذنا الحكيم: ''كما أن القدر الإلهي منزه عن القبح والظلم، من حيث النتيجة والثمرات، كذلك فهو مقدس عن القبح والظلم من حيث العلة والسبب، لأن القدر ينظر إلى العلل الحقيقية، فيعدل. بينما الناس يبنون أحكامهم على ما يشاهدونه من علل ظاهرة فيرتكبون ظلما ضمن عدالة القدر نفسه. فمثلا: هب أن حاكما قد حكم عليك بالسجن بتهمة السرقة، وأنت برئ منها، ولكن لك قضية قتل مستورة لا يعرفها إلا الله. فالقدر الإلهي قد حكم عليك بذلك السجن، وقد عدل من أجل ذلك القتل المستور عن الناس. أما الحاكم فقد ظلمك، حيث حكم عليك بالسجن بتهمة السرقة وأنت منها بريء.''[71]

وقد تساءل الأستاذ عن وجه الرحمة والعدالة في مصيبة الجوع، حيث إنه يفهم من الحديث النبوي أن هذه الفتنة ستؤدي دورا مهما في آخر الزمان، فقال: '' لما كان لأهل الإيمان وللأبرياء من حيث القدر الإلهي وجه رحمة ووجه عدالة في كل شيء، حتى في عذاب القحط. ترى بأي طرز تكون هذه الرحمة والعدالة في هذا الأمر؟... الجواب: إن أهم سبب لهذه المصيبة هو العصيان النابع من كفران النعمة وعدم الشكر وعدم تقدير النعمة الإلهية حق قدرها. لذا فإن العادل الحكيم لأجل إراءة اللذة

الحقيقية لنعمه ولا سيما الأغذية منها... ولبيان أهميته (أي الغذاء) العظيمة ودرجته الفائقة من حيث النعمة، فإنه سبحانه يسوق الناس إلى الشكر الحقيقي -وفقا لحكمته تعالى- فتنزل هذه المصيبة بالذين لا يشكرون ربهم ولا يراعون الرياضة الدينية في شهر رمضان.''[72]

٢- الأسباب الظاهرة ستار للقدر:

نستهل الفقرة بالتساؤل الآتي: كيف يكون الشيء الواحد عدلا من جهة القدر الإلهي، وظلما من جهة الفعل البشري. كيف يكون في الظاهر عذابا، وفي الباطن رحمة.

إن للحوادث -كما قال الأستاذ سعيد- وجهان، والذي يبدو لنا هو الظاهر لا الباطن، الجلي لا الخفي. إذ في كل حادثة سببين:

الأول: سبب ظاهري، ووفقه يحكم الناس، وكثيرا ما يظلمون.

الثاني: سبب حقيقي، يأتي القدر على وفقه، فيعدل في الحادثة نفسها التي يظلم فيها البشر.[73]

ويضرب لذلك مثالا من سجنه هو وبعض طلبته، فهو في الظاهر ظلم واعتداء، حيث إن الحكومة سلبتهم حريتهم دون حق. ولكنه في الباطن عدل ورحمة، إذ بفتنة السجن يقع فرز الصالحين عن غيرهم، وتمييز المخلصين عن الأنانيين، وتوفرت للأستاذ فرص التفرغ للتعبد والتفكر وكتابة الرسائل.[74] ''فهذا القدر الإلهي هو رحمة إلهية بحقنا في عين العدالة نفسها. إذ جمع في مجلس واحد إخوة مشتاق بعضهم إلى بعض وبدل المصاعب إلى عبادات، وحول الأموال الضائعة إلى صدقات، واستقطب الأنظار إلى الرسائل المستنسخة...''[75]

٣- الرضا بالقدر، لا التعلل به:

يدعونا الأستاذ رحمه الله إلى الرضا والتسليم بما قدره الله علينا: ''إنني إخال أنه في خضم هذه الأهوال والحرائق التي نشبت في الكرة الأرضية لا يقدر على الحفاظ على سلامة قلبه وراحة روحه إلا أهل الإيمان وأهل التوكل والرضى الحقيقي، ومنهم أولئك الذين انضموا إلى دائرة رسائل النور بوفاء تام. فهم مصانون من تلك الأهوال أكثر من غيرهم. وذلك لأنهم يرون أثر الرحمة الإلهية وزبدتها ووجهها في كل حادثة

وفي كل شيء..فهم يشاهدون في كل شيء كمال الحكمة الإلهية، وجمال عدالتها، لذا يجابهون المصائب -التي هي من إجراءات الربوبية الإلهية بالبشر- بالتسليم التام لأمر الله فيبدون الرضى به، ولا يقدمون شفقتهم على الرحمة الإلهية كي يقاسوا العذاب والألم''.[76]

إننا نتقبل القدر وما قضى، لكننا لا نتحجج به على أخطائنا وتفريطنا، خصوصا فيما يستقبل من الأيام.[77] فللقدر -إذن- دور نفسي مهم، لأنه يحرر الإنسان من أثقال الدنيا وهمومها، ولولاه ما سعد أحد في هذه الحياة، يقول النورسي: ''كنت كلما نظرت إلى المصائب الأليمة من زاوية الإيمان بالقدر، كانت تلك المصائب تخف ويقل وطؤها علي، فكنت أسال بحيرة: ياترى كيف يستطع العيش من لا يؤمن بالقدر؟''[78]

لكن الإيمان بالقدر لا ينفي المسؤولية البشرية، وهو ما نسميه بـ: الجزء الاختياري.[79]

المبحث السابع: مصائب الدنيا في ضوء العدالة الربانية.

استخرج الأستاذ دروسا وحكما مما يصيب الأمم والأفراد من بلايا ورزايا ومصائب، فمن ذلك:

١- الآلام: درس وإنذار.

إن ما ينزله الله تعالى بالإنسانية من عذاب وبلاء، مسلميها وكفارها، هو تنبيه وإنذار إلهيين، لعلّ الناس يرجعون إلى ربهم. قال الأستاذ العزيز: ''تجلت ربوبية خالق الأرض والسموات... في العالم أجمع... فصفع رب العالمين البشرية ببلايا وآفات عامة مرعبة كالحرب العالمية والزلازل والسيول العارمة والرياح الهوج والصواعق المحرقة والطوفانات المدمرة. كل ذلك إيقاظا لهذا الإنسان السادر في غفلته، وسوقا له ليتخلى عن غروره وطغيانه الرهيب. ولتعريفه بربه الجليل الذي يعرض عنه.''[80] أما تفاصيل الابتلاءات والمصائب فهي مجرد أسباب ظاهرية، وهي حجب وستائر للقدرة الإلهية.[81]

٢- لماذا اختص المسلمون بقدر زائد من العناء والبلاء؟

سئل الأستاذ بديع الزمان مرارا هذا السؤال، بمناسبة وبدون مناسبة، ومن أجوبته: ''يقول المثل الحكيم: 'الظلم لا يدوم والكفر يدوم'، فأخطاء العاملين في صفوف خدمة القرآن هي من قبيل الظلم تجاه الخدمة، لذا يتعرضون بسرعة للعقاب ويجازون

بالتأديب الرباني... أما العدو فإن صدوده عن القرآن وعداءه إنما هو لأجل الضلالة... وحيث إن الكفر يدوم، فلا يتلقى معظمهم الصفعات بذات السرعة، إذ كما يعاقب من يرتكب أخطاء طفيفة في القضاء أو الناحية، بينما يساق مرتكبو الجرائم الكبيرة إلى محاكم الجزاء الكبرى، كذلك الأخطاء الصغيرة والهفوات التي يرتكبها أهل الإيمان... يتلقون على إثرها جزاءا من العقاب بسرعة في الدنيا ليكفر عن سيئاتهم ويتطهروا منها. أما جرائم أهل الضلالة فهي كبيرة وجسيمة إلى حد لا تسع هذه الحياة الدنيا القصيرة عقابهم، فيمهلون إلى عالم البقاء والخلود، وإلى المحكمة الكبرى لتقتص منهم العدالة الإلهية القصاص العادل، لذا لا يلقون غالبا عقابهم في هذه الدنيا.''[82]

وهذا لا يعني حرمان المسلم من جميع حسنات الدنيا، فإن الله تعالى جعل له منها نصيبا، غير أنه يمكننا القول: إن النعيم المعجل للمؤمن هو بالدرجة الأولى روحي، ''فالمؤمن يجد من النعيم المعنوي في هذه الدنيا ما لا يناله أسعد إنسان، فهو أسعد بكثير من الكافر من زاوية نظر الحقيقة...''[83]

٣- المصائب تأديب وتطهير.

يذكر الأستاذ أنه حين يعرض المسلمون عن تطبيق الشرائع الإسلامية، يقدر الباري تعالى مصائب وصعوبات، فيأخذ هؤلاء المسلمون المفرطون بتلك الشرائع رغما عنهم. إن الزكاة حين لا يخرجها الأغنياء، فإن العزيز الحكيم يستخرجها منهم بوجوه من الإتلاف والبلايا، فيؤدونها بالإكراه حيث لم يفعلوا بالاختيار.[84]

كذلك تقوم الشدائد التي يسلطها سبحانه على المسلمين بتكفير خطاياهم وتطهيرهم من آفاتهم.[85] وقد يقدر الله تعالى مصيبة ما على المؤمن ليصرفه عن الدنيا وبريقها الخداع، فكأنه بذلك يحميه من وسخها.[86]

٤- حكمة شمول المصائب الجميع، وأن ذلك عدل لا حيف فيه.

إنّ شمول المصائب الجميع عدل لاحيف فيه، من ذلك الزلزال الذي لا يستثني أحدا، ولا يميز صالحا عن طالح، كما جاء في سؤال وُجِّه لبديع الزمان: ''مادامت هذه الزلزلة قد نشأت من اقتراف الخطايا والمفاسد، ووقعت كفارة للذنوب، فلماذا تصيب الأبرياء إذن، ويحترقون بلظاها وهم لم يقربوا الخطايا والذنوب، وكيف تسمح العدالة الربانية بهذا؟ ''[87]

وقد أجاب عن ذلك الأستاذ بأجوبة نورانية منها:

أ- إن المصائب العامة إنما تنزل لأخطاء الأكثرية،[88] إذ ''إن أغلب الناس يكونون مشتركين مع أولئك القلة الظلمة، إما مشاركة فعلية، أو التحاقا بصفوفهم أو التزاما بأوامرهم، أي يكونون معهم معنى، مما يكسب المصيبة صفة العمومية، إذ تعم المصيبة بمعاصي الأكثرية.''[89] لهذا يقول الرب سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[الأنفال:٢٥]

ب- إن هذه الدنيا دار امتحان واختبار، وساحة مجاهدة وتكليف، ''فلو سلم الأبرياء من المصيبة ولم يمسهم سوء ولا أذى، لأصبح الإيمان بديهيا، أي لاستسلم الكفار والمؤمنون معا على حد سواء، ولانتفى التكليف وانسد بابه.''[90] ذلك لأن سلامة الأبرياء أظهر حجة على صحة دينهم وصواب طريقتهم، لهذا يصيب القدر الجميع، ثم في الآخرة يعوض الله جل جلاله الصالحين بخير كثير ونعيم مقيم... أين منهما عذاب قليل وهم ضئيل.

٥ـ العدالة الإلهية في ضوء المعاناة الخاصة للأستاذ النورسي.

لم يكن حديث الأستاذ عن الظلم والشر والمعاناة مجرد نظر فلسفي يصدر عن مفكر يعيش في برجه العاجي حياته الهادئة الرتيبة..كلا، فقد عاش بديع الزمان أكثر عمره مسجونا أو منفيا أو تحت الإقامة الجبرية، بل إنه رحمه الله ظُلِم مرتين: ظلم في نفسه بما قاساه من الألم والتعدي، وظلم في طلابه وأحبته الذين بطشت بأكثرهم أيدي الظالمين وآذوهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

ورغم ذلك كان الأستاذ يستشف من وراء أستار القدر حكمة الله ورحمته وعدله، قال: ''إنني عقب معاملتهم الجائرة نحوي، كنت أفكر في القدر الإلهي وأقول: لماذا سلط القدر الإلهي هؤلاء عليّ؟ فأتحرى بهذا السؤال عن دسائس نفسي. ففي كل مرة كنت أفهم أن نفسي إما أنها مالت فطريا إلى الغرور والتكبر من غير شعور مني، أو إنها غرتني على علم. فكنت أقول حينذاك: إن القدر الإلهي قد عدل في حقي من خلال ظلم أولئك الظالمين...''[91] والحق أن الأستاذ مخلص عميق الإخلاص لله سبحانه، فهو قد وهب حياته وأسلمها لربه..وهذا الذي يقوله مبالغة صدرت عن مقام إيماني رفيع أكرمه به الله تعالى، فهو من القلة التي أرهف الإيمان قلوبها لدرجة أنها تتهم نفسها لأرق نسمة وأدنى حركة.

يحكي الأستاذ تفاصيل كيف أن نفسه حين تضجر وتتعب من المضايقات التي لا تنتهي التي يتعرض لها، كانت العناية الربانية تنبهه وتلقي في روعه أنه تحت ستار القدر

وعناية القدير، وأن ما هو فيه ظاهره العذاب ومن قبله الرحمة... قال مثلا -حين وضع في قاعة شديدة البرودة لمدة يومين-: "...فبينما كنت أتقلب من شدة الحمى المتولدة من البرد، وأتململ من حالتي النفسية المتضايقة جدا، انكشفت في قلبي حقيقة عناية إلهية، ونبهت إلى ما يأتي: إنك قد أطلقت على السجن اسم المدرسة اليوسفية، وقد وهب لك سجن دنيزلي من النتائج والفوائد أضعاف ما أذاقكم من الضيق والشدة، ومنحكم فرحا شديدا وسرورا عظيما وغنائم معنوية كثيرة، واستفادة المساجين معكم من رسائل النور، وقراءة رسائل النور في الأوساط الرسمية العليا، وغيرها من الفوائد... فهذه المدرسة اليوسفية الثالثة كذلك ستعطي -بإذن الله- (فوائد جمة)..."[92] لهذا كان غضبه على الذين أساؤوا إليه يتحول إلى إشفاق عليهم ودعاء لهم بالهداية، وهذا خلق نبوي محمدي عظيم.[93]

لا عجب إذن أن نجد الأستاذ الكبير يعدد فوائد دخوله وإخوانه السجن، وهي كثيرة تتعلق بشخصه وتلامذته ورسائل النور..وبالدعوة الإسلامية بصفة عامة.[94] ولذلك ما كان يعزي طلاب النور فيما يصيبهم، بل يهنؤهم.[95] ويقول: لقد شاهدت يقين السلوان الكامل الذي يبعثه المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ الطور:٤٨ [96]

٦- المرض: مثال القدر تتجلى به صفات العدل والرحمة.

أوضح الأستاذ النورسي أن ما يتصور في الوجود ظلما أو شرا أو ألما أو نقصا... ليس كذلك في واقع الأمر، وفي حكمة الله سبحانه. وهذه الحقيقة الكلية شرحها الأستاذ في مواضع كثيرة من الرسائل، ومن خلال موضوعات شتى... أشرت إلى بعضها.

أما هنا فأشير إلى مسألة أخرى، وهي المرض. فقد أوضح الأستاذ سعيد حِكَم الله من الأمراض، وكيف أنها عدل كلها، ورحمة لأصحابها... حتى إن المطلع على رسالته في المرضى قد يتمنى البلاء ليفوز بما أعد الله لأهله. ولولا خوف الإطالة لعرضت لتصور النورسي رحمه الله لقضية الأمراض والأسقام، لكنني أحيل القارئ الكريم على قراءة "رسالة المرضى".[97]

خاتمة:

أحسب أن الأستاذ النورسي وفى هذا الموضوع حقه، وإن كنت أنا لم أفعل، حيث

عرضنا الموضوع وفق ما تسمح به طبيعة المجلة، لذا أنوي بإذن الله تعالى بحث هذه القضية بشمول أكثر وطبعها في كتاب مستقل.

لا أحب أن أكرر ما سبق إيراده في ثنايا المقال. لكنني ألفت نظر القارئ إلى صعوبة مشكلة الشر في علاقتها بالعدل الإلهي، لذا أوصى أحيانا بالاحتياط في عرض أمثال هذه القضايا المركبة بين عامة الناس.[98]

وأنا أعدّ من كراماته ﷺ بحثه هذه القضايا الاعتقادية الخطيرة دون أن يتضرر بذلك القراء، قال (رحمه الله): "إنه ما من كتاب يبحث في مثل هذه الحقائق الإلهية والإيمانية إلا ويترك بعض مسائله ضررا في عدد من الناس، لذا ما كان ينشر كل مسألة منه إلى الناس كافة. أما هذه الرسائل فلم تلحق أي ضرر كان ولم تؤثر تأثرا سيئا في أحد من الناس ولم تخدش ذهن أحد قط رغم استفساري عن ذلك من الكثيرين حتى تحقق لدينا أن ذلك إشارة غيبية وعناية ربانية مباشرة."[99] فلعل هذا المقال أيضا يستفيد قبسا من هذه الكرامة النورسية اللطيفة والجميلة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الهوامش:

[1] ذ. إلياس بلكا: أستاذ بمعهد دراسات العالم الإسلامي، جامعة زايد، الإمارات العربية.

[2] إذا أردت أن تقرأ عن هذا الموضوع، فانظر – في الفكر الإسلامي- كتب علم الكلام، خاصة عند الحديث عن القدر. أو اقرأ: " قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي"، لمحمد السيد الجليند، مطبعة الحلبي بالقاهرة، ١٩٨١. وراجع في الفكر الأوربي ما كتبه: لايبنتس وكانط وهيوم وفولتير..وغيرهم، حول الشر. أو اقرأ:
Michel Lacroix, LE MAL. Collection Dominos, Paris, 1998.

[3] الشعاعات، ص٦٤٤. اعتمدت في رسائل النور على النسخة التي ترجمها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣.

[4] انظر مثلا: اللمعات، ص ١١٤.

[5] صيقل الإسلام، صفحات: ٢٣، ٤٧٢-٤٧٣.

[6] راجع رسالة المناظرات في: صيقل الإسلام، ص ٣٨٥ فما بعدها. وكذلك مرافعة المحكمة العرفية بالكتاب نفسه، ص ٤٣٩ فما بعدها.

[7] صيقل الإسلام، ص ٤٤٢.

[8] صيقل الإسلام، ص ٥١٤.

[9] الشعاعات، ص ٤٢٤. وقد أوضح هذا بشكل أكثر تفصيلا في ص ٣٤٦ من كتاب الشعاعات، فراجعه إن شئت.

[10] الشعاعات، ص ٣٤٤.

[11] الشعاعات، ص ١٢-١٣.

[12] اللمعات، ص ٥١٩.
[13] الكلمات، ص ٨٠٤.
[14] المكتوبات، ص ٦٠٧.
[15] الكلمات، ص ٦٤٣.
[16] اللمعات، ص ٥٢٦.
[17] الشعاعات، ص ٢٦٤.
[18] اللمعات، ص ٥٢٦.
[19] الكلمات، ص ٦٩.
[20] اللمعات، ص ٥٢٣.
[21] اللمعات، ص ٥٢٦.
[22] اللمعات، ص ٥٢٣- ٥٢٤.
[23] الشعاعات، ص ٢٠٥.
[24] الشعاعات، ص ٩٠.
[25] الشعاعات، ص ٢٠٥.
[26] اللمعات، ص ٥٩٢.
[27] اللمعات، ص ٥٩٢.
[28] اللمعات، ص ٥١٩.
[29] راجع: الشعاعات، ص ١٨٧.
[30] المثنوي العربي النوري، ص ٤٤٨. وانظر: ص ٤٠٥.
[31] اللمعات، ص ١١٧- ١١٨. وراجع ايضا: المكتوبات، ص ٥١.
[32] انظر: المثنوي العربي النوري، ص ٣٧١.
[33] اللمعات، ص ١١٣- ١١٤٠ وراجع أيضا: الكلمات، ص ٥٥٣. الشعاعات، ص ٩٤. ولله در الأستاذ الكبير فكلامه نور على نور، وكم أقاسي لاختصاره فلا أنجح إلا قليلا.
[34] صيقل الإسلام، ص ٥٣.
[35] المكتوبات، ص ٥٤.
[36] اللمعات، ص ٣١٨.
[37] الكلمات، ص ٥٥٣.
[38] الكلمات، ص ٥٥٣.
[39] المكتوبات، ص ٥٤.
[40] اللمعات، ص ٣٢١. وانظر في المسألة نفسها: الشعاعات، ص ٣٧.
[41] الشعاعات، ص ٣٢٤.
[42] اللمعات، ص ١١٠- ١١١. وانظر تفاصيل أخرى في: المكتوبات، ص ٥٢- ٥٣. وفي: رسالة حكمة الاستعاذة، وهي اللمعة الثالثة عشر.
[43] المكتوبات:٥١.
[44] المثنوي العربي النوري، ص ٤٠٥.
[45] الشعاعات: ٦٤٤.
[46] المكتوبات: ٥٢، وراجع التفاصيل في: الشعاعات، ص: ٣٧ – ٣٨، ٦٤٤، المكتوبات: ٥٢ – ٥٣.
[47] انظر الشعاعات: ٣٨.

[48] اللمعات، ص ١٣١. ويشير الأستاذ أيضا إلى ما يزرعه أهل الشر بين الخيرين من التنازع، وإلى أثر الخدش إذا أصاب الإخلاص، مهما كان يسيرا، على الأعمال ونجاحها..

[49] اللمعات، ص ١١٠.

[50] الكلمات، ص ٨٤٩.

[51] الشعاعات، ص ٣٢٠. وانظر جوابا آخر في: اللمعات، ص ١٢٣- ١٢٤.

[52] اللمعات، ص ١٢٠- ١٢١.

[53] الكلمات: ٨٧١.

[54] الكلمات: ٨٧١.

[55] الكلمات: ٨٧٢.

[56] راجع في هذه المسالة اللمعات: ١٢٥.

[57] الأعراف: الآية ١٢٨.

[58] إن ما في الدنيا من الخلق العظيم ومن المخلوقات البهية، ومن الإبداع والنظام، ومن تجليات العظمة الإلهية لابد أن تكون له تتمة وديمومة في عالم آخر، ويستحيل أن يعمر كل هذا الجمال والجلال عمر الدنيا القصير جدا. عن: الكلمات، ص: ٨٩ إلى ٩٢.

[59] راجع على سبيل المثال: الكلمات / ٨٩ إلى ٩٣، ٦٦٢ إلى ٦٦٥. اللمعات ٥٢٦ – ٥٢٧، ٥٦٤ -٥٦٥. الشعاعات ٥٣.

[60] الكلمات ٦٨.

[61] الكلمات: ٦٢١.

[62] الكلمات: ١١٢ – ١١٣، ومثله في: الشعاعات: ٢٣٦.

[63] صيقل الإسلام: ٥٤.

[64] المكتوبات: ٥٨٢.

[65] راجع: الشعاعات: ٢٦٤، الكلمات: ٥٢٩. ويذكر الشيخ من هذه الأقوام قديما: عاد وثمود. أما في عصرنا فيذكر العدل الإلهي الذي عاقب المدنية الحديثة جراء إهانتها للإسلام عقابا رهيبا، وهو هنا يشير إلى الحرب العالمية الثانية، انظر الملاحق: ١١٤.

[66] الكلمات: ٩١، الهامش.

[67] الشعاعات ٢٨١. ويذكر الشيخ رحمه الله عن نفسه وإخوانه أن هذا الأمل في الآخرة هو الذي خفف عليهم آلام " المدرسة اليوسفية "، ص: ٢٨٢.

[68] الشعاعات ٢٨٣.

[69] صيقل الإسلام: ٥٤.

[70] الملاحق، ملحق قسطموني، ص: ٢٠٥.

[71] الكلمات، رسالة القدر، ص: ٥٤٣.

[72] الملاحق، ملحق قسطموني، ص: ١٦١.

[73] المكتوبات، ص: ٥٨، الشعاعات، ص: ٣٥٦، صيقل الإسلام، ص: ٥٥٢.

[74] راجع: الشعاعات، ص: ٣٥٦. المكتوبات، ص: ٥٨.

[75] الشعاعات، ص: ٣٥٦.

[76] الملاحق، ملحق قسطموني، ص: ١٥٢- ١٥٣.

[77] انظر المثنوي العربي النوري، ص: ٣٧٥.

[78] وانظر في الدور النفسي للقدر أيضا: الكلمات، ص: ٥٥١ – ٥٥٢.

[79] راجع في مسألة التوفيق بين القدر والجزء الاختياري: رسالة القدر في كتاب الكلمات، خاصة ص: ٥٤٥. المثنوي العربي، ص: ٣٧٠، ٣٧٥.

[80] الكلمات، ص ١٩٩.

[81] الكلمات، ص ١٩٩.

[82] من المناسبات زلزال قوي ضرب جهات أزمير وارزنجان. انظر: الكلمات، ص ٢٠٠. ومن دونها انظر: اللمعات، ص ٧٨. وهنا مثل النورسي رحمه الله بالتنظيم القضائي الوضعي الذي أسند للمحاكم الصغيرة وقضاة الجماعة مهمة الفصل السريع – غير القابل للاستئناف – في الجنح والقضايا البسيطة. بينما تتكفل المحاكم الكبيرة بالمدن الرئيسة بالنظر في الجنايات الخطيرة والأكبر شأنا. راجع أيضا: الكلمات، ص ١٩٦.

[83] اللمعات، ص ٧٨- ٧٩.

[84] المكتوبات، ص ٣٥٤.

[85] الكلمات، ص ٢٠١. وراجع في: صيقل الإسلام، ص ٣٥٥ فما بعدها، تعليل الشيخ لهزيمة الدولة العثمانية في بداية القرن الفائت.

[86] انظر كيف فسر الأستاذ رحمه الله ما أصاب بعض آل البيت النبوي – عليهم السلام -، خاصة الحسين رضي الله عنه: المكتوبات، ص ٦٨ إلى ٧٠.

[87] الكلمات، ص ١٩٦.

[88] المكتوبات، ص ٦٠٧.

[89] الكلمات، ص ١٩٦.

[90] الكلمات، ص ١٩٧.

[91] اللمعات، ص ٢٦٣- ٢٦٤.

[92] اللمعات، ص ٣٩٥- ٣٩٦.

[93] انظر: اللمعات، ص ٣٩٦.

[94] راجع هذه الفوائد في: اللمعات، ص ٣٩٨.الشعاعات، ص ٣٤٨ فما بعدها. أو انظر: السيرة الذاتية، للأستاذ إحسان قاسم، ص ٣٤٦، ٤١٧.

[95] اقرأ إحدى رسائله لطلبته في: الشعاعات، ص ٥٢٤.

[96] الشعاعات، ص ٣٤٨.

[97] وهي رسالة ألفها الشيخ في وقت قياسي من حيث قصره، إذ كتبها في أربع ساعات ونصف. اقرأها في: اللمعات، ص ٣١٧ إلى ٣٣٩.

[98] المكتوبات، ص ٥٤.

[99] المكتوبات، ص ٤٨٤.

ملف العدد

من الأسس الفكرية والحضارية في رسائل النور

أ.د. العربي بوسلهام[1]

يعالج الموضوع: بعض الأسس الفكرية والحضارية في رسائل النور للأستاذ المصلح بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله.

لاحظ الإمام سعيد النورسي، وهو الذي عاصر أخطر فترة انتقالية في حياة المسلمين وهي نهاية القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر، أنّ المجتمع الإسلامي ينحدر في مظاهر حياته كلها انحدارا سريعا، واكتشف أن غزوا فكريا منظما يشن على العقيدة الإسلامية ابتداء من الدوائر الأجنبية إلى صحيفة الاتحاد والترقي إلى أجهزة إعلام الانقلابات اللادينية، وخاصة بعدما صرح وزير المستعمرات البريطاني -غلادستون- في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم قائلا: ''مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به''. ولقد تأكد للنورسي أن الإسلام أصبح في خطر أكيد، وأنه لابد من تقوية الإيمان عند البعض وإنقاذه عند البعض الآخر، أمام هذه الموجات العاتية من تزييف المنطق العقلي والحقيقة العلمية.

ولقد ساعدت دراسته العقلية الرصينة واطلاعه الواسع على تطور العلم الحديث في نجاح محاولة ذلك الإنقاذ، فبدأ بتأليف الرسائل والكتب في دحض شبهات القول واثبات حقائق الإيمان بأسلوب علمي عصري قريب إلى روح العصر وفهم الناس جميعا، وكان يتتبع الشبهات التي كان يثيرها الملاحدة وأعداء الأمة لإدخال الشك في عقول الجيل الحديث فيرد عليها ويخصص لها الرسائل المتنوعة دون ذكر الشبهة إلا نادرا.[2] ومن هنا نرى أن كتابات النورسي تنقل صورة جلية عن الصراع الفكري في

عصره وتضع الأسس الفكرية لتنشئة جيل مؤمن يعرف كيفية التعامل مع عصره.

وبيانا لما سبقت الإشارة إليه مجملا، قسّمت الموضوع إلى المحاور الآتية:

مميزات رسائل النور.

٢- أسسها.

٣- إنجازاتها في واقع حياة الأتراك وغيرهم.

عندما تصفحنا رسائل النور وجدناها اتخذت منهجا وطريقة وغاية لإعادة الناس إلى دينهم وصقل شخصيتهم بالقرآن الكريم، فاتسمت بما يأتي:

١- انسجامها وتلاؤمها مع قوانين الفطرة.

٢- مصدرها رباني ومحور موضوعاتها القرآن الكريم فهي بمثابة تفسير لمعاني القرآن.

٣- تهتم بالبنية الداخلية للإنسان وتتجه لتزيينها.

٤- تعطي أهمية كبرى لصحة البنية الاجتماعية.

٥- تقوم رسائل النور بالتربية والتعليم وتوسيع الأفق وبيان السبيل القويم.

٦- تقوم رسائل النور بمزج المادة مع المعنى وتحتضن الدنيا والآخرة معا.

٧- موقف بديع الزمان النورسي من التيارات المنحرفة موقف الإعراض عنها واللامبالاة بها.

• أما المحور الثاني فسأتناول فيه النقط الآتية:

١- خدمة هذه الرسائل للإيمان وحمل دعوة القرآن.

٢- الدعوة إلى الإخلاص.

٣- الدعوة إلى الأخوة.

٤- الدعوة إلى العجز والفقر إلى الله والشفقة على المستضعفين.

٥- سبيل رسائل النور هو الثبات بصدق.

• أما المحور الثالث فسأعالج فيه ما حققته رسائل النور في نفوس قارئيها ومحبيها، وعرضت تفاصيله في النقط الآتية:

١- أصبحت رسائل النور مرآة للقرآن العظيم ومنهجا تجديديا لتفسير معانيه لمواجهة التحديات وقضايا العصر.

٢- جددت علم العقيدة وعلم الكلام.

٣- أسست شخصية معنوية تجاه الشخصية المعنوية الإلحادية.
٤- جعلت روادها ومريديها يتصرفون تصرفا إيجابيا في المجتمع.
٥- تجرد أصحابها عن السياسة الغربية المقيتة.
٦- تعمل على ترسيخ الإيمان في أصحابها الذين مكنهم ذلك من تخطي الصعاب والتحديات.
٧- حققت نموذجا متميزا في التربية والتعليم مثل ما حققه السلف الصالح.
٨- حركة رسائل النور بعيدة عن الرياء ولا تطلب أجرا عند إيفاء الخدمة.

وأخيرا خلصت في الأخير إلى خاتمة إن شاء الله. سنعرض تفصيل العناصر انطلاقا من كليات رسائل النورن وبناء على ما استفدناه من بحث الأستاذ الدكتور شنر دلك حول منهج وطريقة رسائل النور وغايتها.[3]

المحور الأول عرضت فيه مميزات رسائل النورسي:

أولا: رسائل النور متناغمة، لأنّ موضوعاتها مستمدّة من القرآن الكريم، كما أنّه تمثّل تفسيرا لمعانيه: ومن ثم فهي تتلاءم مع قوانين الفطرة قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾الرُّوم:٣٠ فهناك انسجام مع قوانين الفطرة وقوانين الكون فهذه القوانين الموضوعة في الكون والمنقوشة في الفطرة لا يمكن نزعها من الكون ولا يمكن إخراجها من الفطرة وإهمالها، ويصل الإنسان إلى كماله عندما يدرك العلاقة بين هذه القوانين ويتعامل معها في توازن، إلا أن الإنسان عاجز عن إدراك هذه القوانين المنقوشة في فطرته لذا يحتاج إلى معلم ومفسر هو القرآن الكريم والفرقان الحكيم... نعم! إن الفطرة بلسان حالها تقول للقرآن الكريم: ''لا يتحقق كمالنا من دونك''، تعرض رسائل النور هذه الحقيقة، ويؤكّد مصنّفها أنّ من أراد فهم قوانين الفطرة فعليه بمطالعة القرآن الكريم، يشهد لهذا المعنى قوله: ''أما القرآن الحكيم فهو قراءة كتاب الكون هذا وتلاوة نظامه فهو يقرأ شؤون النقاش الأزلي ويكتب أفعاله''،[4] إن الوظيفة التي أخذتها رسائل النور على عاتقها هي إيضاح قوانين الفطرة هذه السارية في الكون والإنسان: ''اعلم علم اليقين أن أسمى غاية للخلق وأن أعظم نتيجة للفطرة هو الإيمان بالله. وإن ألمع سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة هي محبة الله الموجودة في معرفة الله...''[5]

وهكذا فإن الغاية الأولى لرسائل النور هي إيضاح وبيان أسمى نتيجة للفطرة وهي معرفة الله ونقش محبته في القلوب والأرواح.

ويبين بديع الزمان العلاقة بين الإسلام وبين قوانين الفطرة في الجمل التالية ''أجل إن حقائق الشريعة التي أتى بها رسولنا محمد ﷺ حافظت على التوازن الموجود في قوانين الفطرة فلم تخل بالمناسبات اللازمة للروابط الاجتماعية، فكلما طال الزمن ظهر الاتصال فيما بينها، ويتوضح من هذا أن الإسلام دين فطري للنوع البشري وهو العامل الوحيد في المحافظة على الحياة الاجتماعية ووقايتها من الهزات والزلازل''.[6]

٢- **أما مصدر هذه الرسائل فهو القرآن الكريم:** مصدرها رباني ومرشدها الرسول العظيم ﷺ وسبيلها هو السبيل القويم لأهل السنة والجماعة. إن أي قوة كي تستطيع النفوذ إلى أعماق قلب الإنسان وروحه وربط روحه وقلبه بالحقائق، وإثارة الكرامة الإنسانية بمشاعر الشوق والوجد فلا بد أن يكون مصدرها ومنبعها قدسيا.

فإذا لم تكتسب هذه القوى قدسية عامة وكلية فإن تأثيرها سيكون باهتا وضعيفا، فإن كان المصدر مقدسا فإن التأثير سيكون جذريا وعميقا وكليا ومستمرا، ويشرح بديع الزمان هذه الحقيقة بقوله: ''إن قدسية المصدر تظهر تأثير براهين عديدة، وبهذه القدسية تفرض أحكامها على الناس عامة''،[7] وهكذا فإن رسائل النور تستمد لمعانها من قدسية القرآن وتترنم بهذه القدسية. قال بديع الزمان ''بما أننا نملك في أيدينا معجزة باقية مثل القرآن فإن البحث عن برهان آخر يبدو لعقلي شيئا زائدا، بما أننا نملك برهانا للحقيقة مثل القرآن فهل يصعب على قلبي إلزام المنكرين وإفحامهم''،[8] فكانت رسائل النور برهانا مستمدا من القرآن الكريم وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه ورشحة من رشحات ذلك البحر وشعاع من تلك الشمس الملهمة من كنز العلم وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته... وإذا قيل كيف تُعد رسائل النور تفسيرا للقرآن مع أنها لا تشبه التفاسير المتداولة فالجواب أن التفسير نوعان: هما تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة أو إثبات الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم إثباتا مدعما بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة، وقد ثبت بشهادة ألوف من العلماء المحققين أن رسائل النور هي من القسم الثاني من التفسير بل من أثمنه وأسطعه وأكمله وأكثره قيمة.[9]

٣- **تهتم رسائل النور بالبنية الداخلية للإنسان وتتجه لتزيينها**. وتأثيرفيها تأثيرا عميقا وحيويا وجذريا: إذ تقوم بتشكيل الروح وتوسيع أفق التفكير وتُؤَمِّن امتزاج العقل مع القلب، وتأثيرها يهيء الإنسان لأكبر وافضل تغيير. فهي تزرع في العالم الداخلي للإنسان مشاعر علوية كطلب الرضا الإلهي، والإخلاص والفداء والصفاء والصدق،

سئل الشيخ بديع الزمان النورسي رحمه الله عن ذلك حيث قيل له: ''لماذا نجد تأثيرا غير اعتيادي فيما كتبته في (الكلمات) المستقاة من فيض القرآن الكريم، قلما نجده في كتابات العارفين والمفسرين.. فأجاب النورسي: ''ان الفضل في هذا التأثير يعود إلى إعجاز القرآن الكريم وليس إلى شخصي أنا''.[10]

٤- **تعطي رسائل النور أهمية كبرى لصحة البنية الاجتماعية ولاتجاهها**، لذا عُدَّت من مقاصدها تأمين الهدوء الاجتماعي والراحة العامة ولا تعير أي اهتمام أو التفات لحركات التدمير والهدم والتمزيق بل ترفع شعار الحركة الإيجابية وترى فيها وظيفتها ومهمتها، ولا تسمح مطلقا بالفعاليات السلبية، بل تسعى لتقوية أواصر المحبة والأخوة في بنية المجتمع، وتُلِح على ضرورة الاتحاد والامتزاج. وترد بشكل مطلق كل المشاعر والأفكار التي قد تذهب بروح الأخوة التي أمر بها ديننا الإسلامي، فكان رافضا للشعور القبلي أو العشائري أو الفكرة القومية أو العنصرية أو الملية السلبية، قال بديع الزمان النورسي مخاطبا دعاة التفريق بين المسلمين والمطالبين بحقوق أقليات دون غيرها: ''إن كنتم حقا تحبون هذه الأمة حبا جادا خالصا، وتشفقون عليها فعليكم أن تحملوا في قلوبكم غيرة تسع الإشفاق على غالبية هذه الأمة لا على قلة قليلة منها، إذ أن خدمة هؤلاء خدمة اجتماعية مؤقتة غافلة عن الله، وهم ليسوا بحاجة إلى الرأفة والشفقة-وعدم الرأفة بالغالبية العظمى منهم ليس من الحمية والغيرة في شيء''.[11]

إن استحصال الرضا الإلهي وتحقيق الفضيلة هو هدف وغاية رسائل النور التي تسعى لتحقيقها في البنية الاجتماعية. وفي المجتمعات التي تحل المادة والمنافع المادية محل الفضيلة والتي تنتشر فيها المظاهر الخداعة والتصفيف، بحيث تكون العلاقات قائمة على أسس النفاق والتزلف وفي مثل هذا الجو لا يمكن تأسيس المحبة الحقيقية والتساند.

٥- **تقوم رسائل النور بالتربية والتعليم وتوسيع الأفق وبيان السبيل القويم**: فهدفها تربية مخاطبيها بالحق وبالمعرفة عن طريق القراءة وإكسابهم الشخصية الواثقة. إن مطالعة رسائل النور ممتع ومنهجها مقنع، إذ تعرض المسائل عرضا منطقيا تحليليا، ومدبّجا ومدجّجا بالأدلة والبراهين، فيستفيد العقل والقلب والروح واللطائف المعنوية الموجودة لدى الإنسان ويأخذ كل منها نصيبها، فمعانيها سامية وأفقها واسع، وهي ترمي لتنشئة عناصر دعوة مثالية بهمم عالية.

٦- تقوم رسائل النور بمزج المادة مع المعنى وتحتضن الدنيا والآخرة معا.

اقتصر كثير من المهتمين بعرض حقيقة الإنسان على بُعْدها المادي فقط، فحُرِموا إلى الوصول إلى أعماق الإنسان بالتعرُّف على دقائق روحه وسماته الملكوتية، ففقدت التوازن في عرض المسألة والتخطيط لها، استدركت رسائل النور على الوضع، فأسست على الجمع بين مسؤولية الإنسان الأخروية ووظائفه العبودية بشكل حساس وجدي، فلم تهمل الآخرة وما غفلت عن وظائف الإنسان الدنيوية ومسؤولياته الاجتماعية، قال بديع الزمان: ''فلا بد أن أسعد إنسان هو من: لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا... ولا يضحي بآخرته للدنيا... ولا يفسد حياته الأبدية لأجل حياة دنيوية... ولا يهدر عمره بما لا يعنيه ''.[12]

٧- **موقف بديع الزمان النورسي من التيارات المنحرفة موقف المعرض عنها وغير المبالي بها**: يرى الأستاذ أن مجرد الإطلاع على التيارات التي تستند إلى العناد وإلى العصبية الملية والمنافع القومية الضيقة وعلى أنانية النفس فضلا عن الدعاية الكاذبة والظالمة، والتي تعمل لحساب ظلم لم تشهد الدنيا مثيلا له، شيء لا يجوز. ذلك أن الرضا بالظلم ظلم، فإن كان مناصرا له يكون ظالما فإن مال إليه يكون مظهرا للآية الكريمة ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.هود:١١٣

قأل الأستاذ: ''شك أن الحق القرآني لا يتنازل للاستناد إلى سيوف هؤلاء الظالمين. وبدلا من الاستناد إلى قوة قد تخضبت يدها بدماء ملايين الأبرياء فإن الواجب على أهل القرآن الالتجاء إلى قدرة وإلى رحمة خالق الكائنات بل هو فرض عليهم''.[13]

المحور الثاني: خطط وطرق الخدمة التي تؤديها رسائل النور

وضحت في هذا المحور أسس مسلك رسائل النور.

١ـ خدمة الإيمان وحمل دعوة القرآن:

خدمة الإيمان وخدمة القرآن هما أساس مسلك رسائل النور، ذلك أنّ غاية الخلق هي الإيمان بالله، والدعوى الكبرى هي كسب الحياة الأبدية، فهذه أكبر من الحروب العالمية وأكبر من موضوع حاكمية الشعب على ظهر هذه الأرض، وهي خلاصة دعوة بديع الزمان ولبها.

ولهذا السبب فإن السعي لإنقاذ الإنسان من مستنقع الكفر ومن هوة الفسق والضلالة بالإيمان وبذل كل المساعي والجهود في هذا السبيل إلى درجة الوجد

والعشق هو محور هذه الدعوة، قال بديع الزمان النورسي: ''إن في الإيمان حقا جنة معنوية، وإن في الضلال جحيما معنويا أيضا في هذه الدنيا ذاتها.''

لقد فتحت المدنية السفيهة جراحا يصعب علاجها في روح البشر، فمن ذا الذي سيمد يده إلى الإنسان المحطم والممزق والمنحل بسبب التأثير المدمر والخانق للكفر والإباحية؟ ومن سيرشده إلى السبيل القويم؟ هذا ما يشغل بديع الزمان النورسي، قال (رحمه الله): ''إن العالم يمر بأزمة معنوية كبيرة، فالأمراض الموجودة في المجتمع الغربي الذي اهتزت قواعده المعنوية- بدأت تنشر في سائر الأرض مثل وباء الطاعون، فكيف يستطيع المجتمع الإسلامي أن يواجه هذا الوباء المرعب ويتحداه وبأية وسائل؟ أيستطيع ذلك بالصيغ المتفسخة والمتعفنة والباطلة للغرب؟ أنني أرى الرؤوس الكبيرة سادرة في الغفلة. فالأعمدة المتهرئة للكفر لا تستطيع حمل حصن الإيمان وقلعته. لذا فقد كثفت جميع جهودي حول الإيمان وحول الحياة الداخلية للمجتمع ووجوده المعنوي ووجدانه وإيمانه.

ولكنني عندما أفعل ذلك أفعله على أساس الإيمان والتوحيد الذي أسسه القرآن فقط، فهذا هو العمود الأساس للمجتمع الإسلامي، وعندما يهتز هذا العمود فلا يبقى أثر للمجتمع''.[14]

٢- الإخلاص:

الإخلاص في العمل يعني قصد وجه الله تعالى منه، وهوما رامت تحقيقه رسائل النور، إذ يصرّ بديع الزمان على أنّ الإخلاص هو أكبر قوة في النجاح والفلاح، وقد ألف رسالة بهذا الخصوص، وتظهر درجة عنايته بالإخلاص من الكلمة التي وضعها في أول رسالة الإخلاص التي حثّ فيها على ''إعادة قراءة هذه الرسالة كل ١٥ يوما'' لأن أبطال الحقيقة الذين أخذوا الخدمة القرآنية على عواتقهم طريقهم التخلص من الأحاسيس القذرة مثل الرياء وحب المظهر والحسد والحرص والطمع، ولايتم ذلك بغير التحقق بالإخلاص.

إن سبيل رسائل النور هو جعل طلب رضا الله تعالى هو الأساس.

فإذا كانت رسائل النور قد نجحت كل هذا النجاح وتنجح، بإذن الله في قابل الأيام، فإن السبب في هذا يكمن في سر الإخلاص، قال بديع الزمان النورسي: ''فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص''.[15]

٣- الأخوة:

الأخوة الحقيقية لا تقوم على المعاوضة، وطلاب النور إخوة في مائدة درس القرآن يعين بعضهم بعضا، وتعبر عن هذا رسائل النور بـ ''الفناء في الإخوان''.[16]

أي فناء بعضهم في بعض، فإن رأى في أخيه نقصا أكمله، وأن رأى فيه سوءا تألم له ونصحه، وحاول إصلاحه بلطف ويسر، قال بديع الزمان النورسي: ''إن المؤمن يحب أخاه، وعليه أن يودّه، فأيما تصرف مشين يصدر من أخيه يحمله على الإشفاق عليه، وعلى الجد في محاولة إصلاحه باللين والرفق دون اللجوء إلى القوة والتحكم''.[17]

إن الإيمان يقتضي المحبة، والإسلام يقتضي الأخوة، فروابط الوحدة الموجودة بين المؤمنين والإتفاق والامتزاج وهي مؤسسة بفضل تجليات أسماء الله الحسنى.

ويشرح الأستاذ الترابط قائلا: ''إن خالقكما واحد، ومالككما واحد، معبود كما واحد، رازقكما واحد... وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف، ثم إن نبيكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة.

ثم إنكما تعيشان معا في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة في بلاد واحدة... وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ العشرة.''[18]

كل هذه الروابط سلاسل معنوية تستطيع ربط الكائنات والعوالم بعضها ببعض، تستمد نبعها من القرآن وتستثار بالانفعالات المقدسة للحمية الدينية فهي علاقات وأواصر تتحد وتتماسك وتتكامل ضمن روح الدعوة.

٤- العجز والفقر والشفقة والتفكر:

يتأسس مسلك رسائل النور على أسس أربعة (العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر)، وهو أقصر طريق للوصول إلى الله وأسلمه وأمضاه، وفق ما استخرجه الأستاذ من القرآن لكريم.

فالمؤمن يرقى ويسمو بقدر إدراكه عجزه بين يدي الله وفقره إليه، يوصله العجز عن طريق العبادة إلى اسم المحبوب، ويوصله الفقر إلى اسم الرحيم. وعندما يسلك المؤمن طريق استعمال واستغلال فقره وعجزه فإنه يصبح مرآة لتجلي الصمدانية، يؤكّد هذه المعاني قول الأستاذ: ''ولا يذهبن بكم سوء الفهم إلى الخطأ. فالمقصود

بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك أمام الله سبحانه وليس إظهاره أمام الناس''.[19]

إن ربع سلوك رسائل النور شفقة. الشفقة مثل الحب والعشق (بل ربما أكثر منهما) طريق واسع ومؤثر. فطريق الشفقة هو طريق الرحمة، وقدّ تمثّلها الأستاذ أحسن تمثّل، فقال: ''يقولون لي: لم تعرضت لفلان ولعلان؟ انهم لا يدركون... إن أمامي حريقا هائلا يصل لهيبها إلى السماء ويحترق فيها أولادي، ويحترق فيها إيماني. وأنا أهب لإطفاء هذا الحريق ولإنقاذ إيماني، فإذا تعثرت رجلي بشخص يحاول منعي عن ذلك فما أهمية ذلك؟ وماذا تعني هذه الحادثة الصغيرة أمام هذا الحريق الهائل المرعب؟ أه من التفكير الضيق ومن النظرة الضيقة''.[20]

والتفكير هو الأساس الرابع في مسالك رسائل النور، لهذا تجد رسائل النور غنية بالتفكير الشامل والتأمل العميق، ففيها سباحة في أعماق الأسرار الإلهية باستخدام خريطة الحقيقة الإنسانية وبمطالعة مرآة الماهية الإنسانية بوجدان مذعن للحق وبإيمان تحقيقي سمته الاطمئنان، من خلال قراءة ومطالعة كتاب الكائنات بابا بابا وصفحة صفحة وسطرا سطرا باسم الله وعلى ضوء الأسماء الحسنى لله.

٥- الثبات بصدق:

إن الثبات والاستمرار في آداء الخدمة الإيمانية حتى الموت ومهما كانت الظروف والأحوال ودون خوف أو تراجع، والإيمان بالدساتير الموجودة في رسائل النور والمحافظة على العزة والكرامة الإسلامية وإظهار الوفاء والإخلاص والصدق لدعوة القرآن من أسس النجاح كما أكّدته رسائل النور.

والصدق عند بديع الزمان كان من نوع الصدق الصديقي،[21] تستشف هذه المعاني من قوله: ''لو كنت أملك رؤوسا بعدد شعرات رأسي، وبدأ كل يوم بنزع رأس من رؤوسي لما تخليت عن الخدمة الإيمانية.. لو حولتم الدنيا إلى نار تصبونها على رأسي لما أحنيت هذا الرأس -الذي وضعته فداء للحقيقة القرآنية- أمام الزنادقة''.[22]

٦- الشوق المطلق والشكر المطلق:

الشكر لازم للمؤمن الصالح في كلّ حال وفي جميع الأوقات وفق ما قررته رسائل النور، والشكر هو ثمرة شجرة الخلق و ''مقياس الشكر هو القناعة، والاقتصاد، والرضى، والامتنان. أما مقياس عدم الشكر والاستغناء عنه هو الحرص، والإسراف،

وعدم التقدير والاحترام وتناول كل ما هب ودب دون تمييز بين الحلال والحرام''.[23]

ومن عاش بالشكر والشوق المطلقين لا يستبد به اليأس ذلك أنّ ''اليأس يمنع كل نوع من أنواع الكمال، والذي فرق العالم الإسلامي ومزقه تمزيقا هو اليأس، فاليأس هو أفظع داء يصيب الأمم والشعوب فهو سرطان الأمم''.[24]

وسيرة الأستاذ غنية بطرد اليأس حتى في ظل الظروف المظلمة المرعبة والأحكام القاسية التي صدرت في حقه ظلما وعدوانا، والتي رُمِي بسببها بالخيانة وحكم عليه بالإعدام، وبالرغم من كلّ ذلك لم ينحن بل حافظ على عزمه، وبذر بذور الأمل في كل مكان ذهب إليه مثيرا الهمم وملهبا الحماسة والشوق للدعوة.

قال بديع الزمان: ''أجل كونوا مفعمين بالأمل. ففي الانقلابات المستقبلية سيكون أعلى صوت هو صوت الإسلام.''[25]

المحور الثالث: طرق تنفيذ الخدمة في رسائل النور.

١- أن يتحول المؤمن إلى مرآة للقرآن العظيم:

الأصل أن يكون المؤمن مرآة للقرآن الكريم، وقد حرصت رسائل النور على التعريف بهذه المعاني والدعوة للالتزام بها، وتؤكّد على أنّ الأصل في الكتب الموضوعة والمؤلفات المكتوبة أن تعكس بشكل جيد قدسية المصدر والمنبع وهو القرآن الكريم، لهذا ينتظر منها أن تكون مرآة للقرآن، تبرز القرآن وتظهره أمام الأنظار، فإن أصبحت الكتب وكيلة أو ظلا غابت قدسية المصدر، ذلك لأن الذي يدعو الجمهور إلى الامتثال والطاعة هو قدسية المصدر أكثر من الأدلة والبراهين.

قال الأستاذ: ''عندما ينظر امرؤ إلى كتاب ابن حجر فإنه ينظر إليه بقصد فهم القرآن ومعرفة ما يقوله وليس من أجل معرفة ما يقوله ابن حجر''.[26]

فلو وجهت الأنظار بهذا الشكل إلى القرآن وتمت الإشارة في الضرورات الدينية إلى القرآن لأدى هذا إلى إيقاظ أكثر للضمائر ولزادت أشواق الأرواح إلى الحقائق، ولقامت قدسية القرآن وجاذبيته بهز الضمائر ولأثرت الحقائق على النفوس بواسطة الإيمان، وهكذا تزداد حاكمية القرآن ونفوذه بكل معنى الكلمة على النفوس بصورة مباشرة، لهذا ''يجب أن تعطى الدروس القرآنية بشكل لا تكون آلة لشيء، لكي يمكن كسر الكفر المطلق والضلالة المتمردة العنيدة، ولكي يعطى الإقناع القطعي للجميع.

ولا يتم هذا الإقناع في هذا الزمن وفي ظل هذه الظروف إلا عند حصول القناعة بأن الدين لم يجعل آلة لأي غرض دنيوي أو أخروي أو شخصي، ماديا أو معنويا."[27]

٢- تجديد علم العقيدة:

تمّ في رسائل النور شرح الحقائق القرآنية بلغة العلم كما يستعوبه أهل الزمان، فكان درسا منطقيا يضرب الأمثال ويسلك التمثيل لأجل تقريب الحقائق للعقل المعاصر، فاتبعت رسائل النور طريقة "موسى" عليه السلام الذي كان يجد الماء بعصاه في كل مكان، فأينما ضربه انفجرت عنده عيون الماء الزلال الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي.

وبهذا فـ "إن رسائل النور لا تقوم بإعطاء الدروس مثل العلماء الآخرين، إذ لا تعتمد فقط على أرجل العقل ونظره، ولا مثل الأولياء الذين يتحركون بالكشف القلبي وأذواق القلب. ولكن هذه الرسائل تتحرك باتحاد العقل والقلب وامتزاجهما وبتعاون الروح وسائر اللطائف الأخرى. فتطير إلى الأوج الأعلى وتصل إلى ذرى لا تصل إليها قدم الفلسفة، بل لا يستطيع حتى نظرها الوصول إليها وتستطيع إظهار هذه الحقائق الإيمانية حتى للعيون العمياء".[28]

٣- تأسيس شخصية معنوية.

يرى بديع الزمان أن أي شخص -مهما كانت مرتبته المعنوية كبيرة- لا يستطيع النجاح في إزالة الوساوس الصادرة من الكفر ومن الضلالة ومن الإلحاد الناتج من فكرة الجمعيات السرية التآمرية إزالة تامة. لذا يجب وضع شخصية معنوية تجاه الشخصية المعنوية للإلحاد. ورسائل النور أصبحت شخصية معنوية بعد أن نجحت في جلب ملايين الناس إليها. وهذه الشخصية المعنوية لا تحمل سمة السياسة أو الجمعيات السرية المسلحة التآمرية، ولا سمة الجمعيات الاعتيادية، ولا سمة الفكرة القومية أو المحلية ولا سمة فكرة شخصية. بل هي عبارة عن أفراد تجمعوا وتحلقوا حول رسائل النور التي هي تفسير معنوي وتفسير حقيقي للقرآن يريدون ارتشاف الحكمة والمعرفة منها، وهذه الشخصية المعنوية لا تعني جمعية علنية أو سرية بالمفهوم الاجتماعي والسياسي، بل تعني ربما "وحدة قلبية" نابعة عن علاقات وجدانية وعاطفية أو "انتسابا للقرآن".

لقد جمعت الشخصية المعنوية لرسائل النور أشخاصا من مستويات متعددة في صعيد واحد، والخدمات التي تقدمها حلقات الحقيقة المتداخلة بعضها في بعض

والممتدة من المركز نحو المحيط، والتي تعبر عنها بتعابير"الطالب -الأخ- الصديق" لها وجوه متعددة، وتهدف جميعا إلى إيصال حقائق القرآن وإلى كل جبهات الحياة الاجتماعية المختلفة بصورة صادقة ومخلصة، ومع أن أساس سلوك رسائل النور أساس واحد، إلا أن المظاهر المختلفة لهذه النشاطات تتعلق بالميل النفسي وليس بالأساس. أي أن رسائل النور لا تنشئ أناسا ذوي بعد واحد، أو أناس في قالب معين فقط. فلكونها مظهرا لـ "الاسم الجامع" فإن كل شخص يأخذ من معرفتها الكلية وحكمتها وحقيقتها وإطار فكرها حسب قابليته وميله، يساعد فهم هذه المشارب على وضوح الحقائق النسبية وحضورها، وإذا جاز التعبير فإن الشخصية المعنوية لرسائل النور ليست بستانا فيه نوع واحد من الفواكه بل هي حديقة بستان واسعة تحتوي على أشجار متنوعة وعلى أثمار وفواكه متعددة وعلى ورود وزهور عديدة تنمو كلها في أطيب مناخ وأحلاه وضمن تكاملها فإن هذه تظهر بشكل "جميل" و"أجمل" و "الأجمل".

٤ـ طريقة رسائل النور هي العمل الإيجابي:

كان "التصرف الإيجابي" آخر ما تحدّث فيه بديع الزمان سعيد النورسي، وبهذا الصدد قال (رحمه الله): "إن واجبنا هو العمل بشكل إيجابي وليس بشكل سلبي أي إيفاء الخدمة الإيمانية لتحصيل الرضا الإلهي دون التدخل في الوظيفة الإلهية. ونحن مكلفون بالصبر تجاه كل الظروف الصعبة وبالشكر وبالعمل الإيجابي الذي يحافظ على الأمن وعلى الاستقرار."[29]

وقال أيضا: "لقد بذلت كل ما في وسعي من جهد طوال حياتي للمحافظة على الأمن إذ يجب ألا تستعمل القوة في الداخل بل نحو الاعتداء الخارجي. وظيفتنا هي مد يد المساعدة للمحافظة على الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة. إن أكبر شرط من شروط الجهاد المعنوي هو عدم التدخل في الوظيفة الإلهية، فوظيفتنا نحن أداء الخدمة، أما النتيجة فتعود إلى الله سبحانه وتعالى ونحن مكلفون ومجبرون على أداء وظيفتنا."[30]

وبهذا أسس الأستاذ للبعد عن كلّ عمل أو نشاط يؤدي إلى إثارة أهالي البلد بعضهم ضد بعض، أو عمل يفضي إلى انحياز لجهة على حساب أخرى، والأكثر من ذلك كلّه هي الإصرار على دفع والابتعاد عن كلّ ما يمس الأمن والاستقرار والهدوء. وبهذا أوصى تلاميذه وطلابه.

وللعمل الإيجابي أسباب حيوية، ذلك أنّ الحياة الاجتماعية إن كدر ماؤها، فإن

إعادة السكون والاستقرار إليها تحتاج إلى مدة طويلة من الزمن، وتتطلب همة كبيرة وجهودا مكثفة.

والبنية الاجتماعية إن اهتزت بعوامل الاستبداد أو الإرهاب والفوضى، فلا يمكن أداء الخدمة فيها بشكل مستمر وصحي ومؤثر.

ولكي يتم نقش الحقائق القرآنية في القلوب والعقول فإن الهدوء الاجتماعي شيء ضروري ولازم فإن تم تناول الأمور تحت سيل (التهيج -استعمال القوة الجسدية- الانحياز) وليس في جو (العقل- المنطق - موازنة الأدلة) زادت التناقضات واشدت وارتفع الضغط الاجتماعي، وساد الاضطراب الشديدة، فيضيع الاستقرار والهدوء الداخلي وينفرط العقد الاجتماعي. وهو جو مثالي لشيوع الفوضى والاستبداد والإرهاب، وأساس دفع هذه الأوبئة العمل بحركة إيجابية.

٥- تجرد رسائل النور عن السياسة:

من اللافت للنظر والداعي إلى التفكير تجرد سعيد الجديد عن السياسية، لهذا يحق لنا التساؤل عن أسباب ابتعاد الأستاذ عن تشكيل حزب وأنموذج سياسي؟ ولماذا حصر كل همه وجهوده في خدمة القرآن؟ رتبت جواب السؤال في شكل مواد موجزة بعد القيام بمسح شامل لرسائل النور.

أ- يرى بديع الزمان أنه عندما يتم تقييم الحوادث الاجتماعية يجب أن يكون التشخيص تاما وذو متانة وصحة. وانتهى به تشخيصه الموجز إلى ما يأتي:

''إن الحياة البشرية ما هي إلا كركب وقافلة تمضي، ولقد رأيت بنور القرآن الكريم في هذا الزمان، إن طريق تلك القافلة الماضية أدت بهم إلى مستنقع آسن، فالبشرية تعثر في سيرها فهي لا تكاد تقوم حتى تقع في أوحال منتنة.

ولكن قسما منها يمضي في طريق آمنة، وقسم آخر قد وجد بعض الوسائل لتنجيه -قدر المستطاع- من الوحل والمستنقع. وقسم آخر وهم الأغلبية يمضون وسط ظلام دامس في ذلك المستنقع الموحل المتسخ. فالعشرون بالمائة من هؤلاء يلطخون وجوههم وأعينهم بذلك الوحل القذر ظنا منهم أنه المسك والعنبر، بسبب سكرهم. فتارة يقومون وأخرى يقعون وهكذا يمضون حتى يغرقون. أما الثمانون من المائة فهم يعلمون حقيقة المستنقع ويتحسسون عفونته وقذارته إلا أنهم حائرون، إذ يعجزون عن رؤية الطريق الآمنة.

ومن الصعب إثارة القلوب بمطرقة السياسة. ثم إن إيفاء الخدمة في زمن عاصف يكون صعبا، فإن تكسرت هذه المطرقة لسبب من الأسباب طار حتى النور. (أو انطفأ). لذا يجب ترك تلك الناحية، والالتفات إلى أهم وألزم وأسلم ناحية وهي ناحية الخدمة الإيمانية''.[31]

ب- رسائل النور دروس قرآنية تهدف إلى نيل الرضى الإلهي، ولا يمكن أن نكون متحيزين ضد أي شخص يأتي إلى درس الإيمان مهما كان هذا الشخص فلا نميز في الدرس الإيماني بين صديق وعدو، بينما التحيز الموجود في السياسة يقضي على هذا المعنى ويختل معنى الإخلاص.

ج- هناك دوائر وحلقات للقلب والمعدة والبدن بعضها وسط بعض بدءاً من الأسرة إلى المحلة إلى المدينة إلى البلد إلى الكرة الأرضية والنوع البشري، ففي كل دائرة قد يكون هناك نوع من الوظيفة لكل إنسان، ولكن أكبر وظيفة وأهمها وأكثرها داما توجد في أصغر دائرة وهي دائرة القلب، وقد توجد الوظيفة الصغيرة والمؤقتة والتي لا تحتاج إليها إلا من وقت إلى آخر في أكبر دائرة. ولكن الدائرة الكبيرة تكون أكثر جاذبية، ''وبجاذبيتها هذه تجذب إليها الفضوليين وتشغلهم بها. وتجعلهم ينسون الوظيفة الحقيقية والوظيفة الكبرى، وتعطي دافعا للتحيز ولا ترى بأسا في ظلم الظالمين فتكون بذلك شريكا في الظلم''.[32]

إن أوسع مجال ودائرة تكون سببا في الغفلة وفي الانشغال بالدنيا والغرق فيها وفي نسيان الآخرة هي دائرة السياسية. فمن الصعب على الشخص السياسي المحافظة على الإخلاص وعلى الصفاء وعلى نقاء القلب، فتجاه الحوادث وفي أثناء غمار النضال هناك حاجة ماسة إلى إيمان بوضوح الشمس لكي لا يختنق الإنسان بهذه الحوادث لذا:

''إن السياسي لا يكون -في الأغلب- متدينا ومتقيا تمام التقوى، كما أن المسلمين والمتقين الحقيقيين لا يكونون ساسة. والشخص المتدين الذي يعرف أن الغاية الكبرى للكائنات كلها هي عبودية الإنسان لله، لذا فإنه لا يتعلق بالسياسة تعلق العاشق، بل يمكن أن يهتم بها بدرجة ثانية أو ثالثة وفي سبيل جعلها وسيلة لخدمة الدين وخدمة الحقيقة''.[33]

د- ''وحمدا لله فإنني بسبب تجردي عن التيارات السياسية لم أبخس قيمة حقائق القرآن التي هي أثمن من الألماس ولم أجعلها بتفاهة قطع زجاجية بتهمة الدعاية

السياسية. بل تزيد قيمة تلك الجواهر القرآنية على مر الأيام وتتألق أكثر أمام أنظار كل طائفة''.[34]

هـ- إن الساحة السياسية ساحة ملوثة بالأمراض السارية، وتشبه الأنفلونزا تجعل الفكر يهذي... وهي تفرق ما بين المسلمين، فتجعل الشخص عدوا لأخيه المؤمن ولو كان طيبا كالملاك لمجرد أنه يختلف عنه في النظرة السياسية، ويحتج عليه ويكون محبا لصديق سياسة ولو كان كالخناس ويكون مناصرا له حتى في الظلم ويشترك معه من الناحية المعنوية في جرائمه.

وفي الواقع العملي يكون السياسي في الغالب مخلا بالعدالة والحق وبأسسهما، ويتخذ التحيز السياسي أساسا فتختل بسببها الروابط الاجتماعية.

و- في الحوادث السياسية ''لسنا متحركين ذاتيا، بل نتحرك بالواسطة. فأوربا تنفخ ونحن نرقص هنا''.[35]

فمنبع الحوادث السياسية ومصدرها ومواضع صنعها هو الغرب، لذا فهناك احتمال الاشتراك بعلم أو دون علم بالأعمال القذرة وبمناورات الغرب وألاعيبه. والذين ينحرفون في تلك التيارات تكون أعمالهم لحساب القوى الخارجية لأن إرادتهم لا تأثير لها وكون نياتهم خالصة لا تفيد شيئا.

ز- لا يؤيد بديع الزمان الانشغال بالسياسة من الناحية النفسية أيضا للفرد... ذلك لأن الذين يتعلقون بالسياسة والنظر إليها من زاوية متحيزة يجعلون أرواحهم غبية وعقولهم منتكسة.

والسياسة في هذه الأيام تفسد القلوب وتجعل النفوس العصبية في عذاب دائم. فمن كان يرغب في قلب مستريح ونفس مرتاحة فعليه الابتعاد عن السياسة.

ط- إن للخدمة القرآنية منزلة أسمى من جميع السياسات، ولا تستطيع هذه الخدمة النزول إلى مستوى السياسة الدنيوية التي صبغتها -في الأعم الأغلب- هي الكذب، وبالنسبة إلينا فإنه تكفينا الأذواق المعنوية والأنوار الإيمانية.[36]

٢ـ قوة رسائل النور أصلية:

إن الخدمات التي لا تأسر القلوب ولا تشغل الأرواح مهما بدت كبيرة في المظهر الخارجي، فإنها -من منطلق الحقيقة- تشبه النار المشتعلة في القش، لا تملك دواما ولا تأثيرا، إن فعالية ونشاط رسائل النور هو في سبيل أسمى معنى، فلكونها تأخذ

"العقل، القلب، الروح" أساسا فهي لا تهتم بإطلاق الشعارات، بل تهتم بالحياة الواقعية، ووسيلتها ليست الهدم والتمزيق واستعمال القوة العمياء والسلاح، بل وسيلتها عشق الحقيقة والإرشاد القلبي، فليست هي دون غاية أو هدف أو نظام. وفعاليتها تساعد على استتباب الأمن والاستقرار والهدوء، وتقف في وجه الفتن والهدم الاجتماعي والاضطرابات والهزات ولا تعطي لها فرصة، وهذه الفعالية تحاول بالرفق واللين وبمشاعر الرحمة والشفقة معالجة دواليب المجتمع التي أصابها الخلل والفساد.

وتتميز فعاليتها بأنها تقوم بنقش الحقائق في النفوس، وبالنفاذ إلى أعماق القلوب لتثير أرق المشاعر ولتوسع الاستعدادات السامية.

٦- طريقة تعليم وتربية رسائل النور متكاملة:

أسست رسائل النور في طول البلاد وعرضها ورشة تربية دائمية، وقلبت سطح الوطن إلى مدرسة وإلى مؤسسة معرفة، إن رسائل النور تقرأ الآن بكل شوق داخل البلد وخارجه من قبل جميع الأعمار بدءاً من الأطفال إلى الشيوخ قراءة مستمرة. إن اجتماع العديد من الناس-قد يبلغ عددهم الملايين- حول دروس وحقائق رسائل النور في سبيل الله، دون وجود أي إكراه ودون وجود أية روابط فيما بينهم، وتوحدهم حول هذه الحقائق يعد خدمة قرآنية كبيرة وحادثة مهمة. فلم يحدث في تاريخ الإسلام أن اجتمع كل هذا العدد من الناس حول كتاب مؤلف. ولما كانت رسائل النور تجليا لسلوك الصحابة في هذا العصر فإن نظام التربية عندها انعكاس لأنموذج ''دار الأرقم'' في عصر النبوة. إن طريقة التربية برسائل النوروتعليمها يعطي أهمية كبيرة لتربية المؤمنين -ولاسيما أجيال الشباب- تربية قرآنية. ويركز هدفها التربوي على الكيفية أكثر من الكمية.، لهذا تجدها متميّزة بما يأتي:

أ- لا تطلب أجراً ولا أجرة عند إيفاء الخدمة:

تتبع رسائل النور الأنبياء في موضوع نشر الحق، أي أنها لا تطلب أجرا مقابل خدماتها، بل تنتظر أجرها من رب العالمين فهذه الدنيا عالم خدمة وليس عالم الأجر. وطريقة رسائل النور هذه بعيدة عن الرياء وعن المظاهر وعن حب التصفيق، فهي طريقة خالصة للخدمة، فاتخذت ''تقديم الخدمة دون مظاهر''دستورا، فأنقذت العلم من أن يكون واسطة لجر المنافع فحافظت بذلك على عزة العلم وعلى كرامته.

خاتمة:

قال بديع الزمان سعيد النورسي: ''إنني أؤكد لكم وأقسم على ذلك بأن قصدي من الثناء على رسائل النور هو تأييد حقائق القرآن وتأييد أركان الإيمان والبرهنة عليها ونشرها. إنني أحمد خالقي الرحيم مائة ألف حمد وشكر، لأنه لم يجعلني أعجب بنفسي، وأنه أراني كل تقصيرات نفسي وكل عيوبها فلم تبق هناك أية رغبة للسعي لجمع الإعجاب لهذه النفس الأمارة بالسوء.''[37]

وعلى ضوء هذا البيان فقد حاولنا في هذا البحث استعراض الخدمات التي قدمها الأستاذ للقرآن وللإسلام، غير أن مدح هذا المجدد العلاّمة والثناء عليه لا يعد إسرافا كما اعتقد، ذلك لأنه كان تحت إمرة القرآن وتلميذا من تلاميذه.

ذلك لأنه مثّل امتدادا لدور لقمان الحكيم في عصره الذي شخص حيرته، وطبيب الإيمان ودلال القرآن وهو من الناحية المعنوية من أبرز أخصائي الزمان في الدعوة هدايات القرآن.

بديع الزمان هو طبيب زمانه الذي قدم من صيدلية القرآن أدوية لأمراض العصر.

بديع الزمان هو دلال القرآن الذي عمل على إحياء سنة الرسول ﷺ وأعلن عن قدسية القرآن.

بديع الزمان هو دليل زمانه الذي فتش عن الخلاص ووجده في القرآن، فجلب الأنظار إلى القرآن.

بديع الزمان هو ناشر نور القرآن الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الدعوة القرآنية.

بديع الزمان هو معمار الإيمان الذي عالج الوجدان العام والقلب العام بالحكمة القرآنية.

بديع الزمان هو الجواد الأصيل الذي سبح في أعماق أسرار معرفة الله، وهو معرف بالقرآن، وهو في النهاية الأمل المنتظر للإسلام بعد الله.

لقد أرسى بديع الزمان مسلكه على أسس صلبة، فالطريق الذي أختطه طريق حكيم وملائم للفطرة، فقد بدأ بألزم شيء للإنسان، فدعا البشر إلى ''التوحيد''. وبعد أن جعل منتسبي طريقه يمرون من مراحل انتقاله في الفكر والقلب والروح، جعلهم يتجولون في الآفاق الرحبة للفكر والتأمل، فتشكلت منهم جماعة حصينة وكاملة، واستخدم الحكمة والكلمة اللينة واللسان العذب في تبليغ دعوته، ولم يلتفت أو يتهم

أبدا بالأسلوب الخشن الحاد وبالأسلوب الهدام المخرب، واستمر في دعوته بصبر وجلد، وتحمل كل الآلام دون خوف ودون استسلام ودون التخلي عن أسلوبه الإيجابي في التصرف.

ونجح بديع الزمان النورسي في تأسيس جيش فدائي متماسك نقي وصميمي، وأنشأ شخصية معنوية قوية تشع نورا تجاه الشخصية المعنوية للكفر، وقد تطلع إلى المستقبل بأمل ولم يقع في اليأس.

عاش مثلما تحدث، وتحدث مثلما عاش، فتربع على عرش القلوب كحقيقة تعيش في الواقع، ففي سبيله وطريقته وطرازه وأسلوبه اتخذ الإنسان أساسا ورسم سبل الوصول إليه، واهتم كل الاهتمام بإنشاء هذا الإنسان وبكيفية صعوده مدارج الكمال.

وقد أصبح سعيد النورسي المنقذ المنتظر في عصره بإخلاصه التام وبتفكيره العميق وبتضحيته اللامحدودة وبتواضعه الكبير وبروحه المتألقة وشفقته الواسعة وشخصيته الكبيرة الخالية من الأنانية، وبخدماته الجليلة وبعبوديته الخالصة الخالية من حب المظاهر وبالتزامه المتين.

لقد عكس الأستاذ في القرن العشرين أنموذج عصر الصحابة، ونشر أسلوب دار الأرقم وأصحاب الصفة، فحرك الجماهير الجامدة، بمشاعر عشق الحقيقة، وجعل غاية الإسلام ومثله الأعلى، والغاية العلوية والمقدسة للدين فوق جميع المنافع الشخصية، وفوق جميع المآرب.

حافظ على العزة الدينية، وجعل الإخلاص والاستغناء عن الناس والتضحية والاقتصاد التام أسس قواعد حياته. وبمفهومه عن طراز الخدمة -الذي يبدأ من المركز ويتوجه نحو المحيط- فقد بدأ بشخصه وخاطب نفسه، ولم تقتصر طاقة خدماته في مكان معين أو زمان معين أو بيئة معينة.

بل داوم على أداء خدماته المخلصة في كل مكان وفي كل زمان وفي جميع الأحوال.

وخلاصة القول أن رسائل النور أخذت نورها من القرآن الحكيم مباشرة أي أنها أصبحت مثلما قال الشاعر:

إن التقدير الإلهي لا يمكن رده بقوة الذراع

وأن شمعة أوقدها الله لا تنطفئ بالنفخ

إن رسائل النور برسالتها الغنية وبفكرها المؤثر وبعلمها العميق تحمل بحق صفة ''المعلم'' ولكونها تزكي الأنفس وتطمئن القلوب وتهذب الأرواح فهي تحمل بحق صفة ''المربي''.

إن قراءة رسائل النور تجعل الإنسان ينسى الإنسان، إذ تحمله إلى أقاليم المعرفة وتعجنه بأسرار وبأنوار القرآن، وتصفي نفسه وتعيد تشكيله من جديد، وتربطه برسول الله وبالقرآن وبالله. وتجعله يطير في أنوار أسماء الله الحسنى ويتنزه في حدائق العشق والمحبة الإلهية.

لذا فإن العالم الإسلامي بأجمعه، والبشرية جمعاء في حاجة إلى مثل هذا التفسير للقرآن وإلى منظومة الحقائق هذه في بداية نقطة انطلاقها للهداية. وستزداد هذه الحاجة يوما بعد يوم وستحتفظ رسائل النور بشبابها وطراوتها ونصاعتها حتى يوم القيامة.

تم والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

* * *

الهوامش:

[1] أ.د. العربي بوسلهام: أستاذ الفكر والحضارة بكلية الآداب والعلوم الأساسية بالرباط.

[2] النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، مقدمة رسالة المعجزات القرآنية –ص٤٢٠، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢. مقدمة رسالة المعجزات القرآنية، ص٤٢٠.

[3] بديع الزمان النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، ترجمة أورخان محمد علي ص ١١٧-١٦٥ الطبعة الأولى ١٩٩٧ دار سوزلر للنشر

[4] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني ص ١٢٢..

[5] النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات، ص ٢٨٩، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢.

[6] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني ص ١٢٤.

[7] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني ص ١٢٥..

[8] الكلمات ص ٤١٩

[9] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ص ٥٦٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣. (بتصرف يسير)

[10] بديع الزمان سعيد النورسي، السيرة الذاتية، ص: ٢٤٢.

[11] المكتوبات ص ٥٤٢-٥٤٤

[12] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني ص ١٣٠.

[13] نفسه

[14] نفسه

[15] صيقل الإسلام -الخطبة الشامية - ص: ٥١٥.

[16] اللمعات، اللمعة الحادية والعشرون، ص: ٢٤٥.
[17] المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون، ص: ٣٤٠.
[18] المكتوبات ص ٣٤١
[19] السيرة الذاتية، ص: ١٧٧.
[20] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني ص ١٣٨.
[21] نسبة إلى ابي بكر الصديق رضي الله عنه
[22] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني ص ١٤٠.
[23] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني.
[24] صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٥٠٥.
[25] صيقل الإسلام -السانحات- ص: ٣٦٠ بتصرف
[26] صيقل الإسلام –السانحات- ص: ٣٤٨.
[27] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني
[28] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني
[29] السيرة الذاتية ص: ٤٧١.
[30] السيرة الذاتية، ص: ٤٦٩.
[31] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني
[32] الملاحق-ملحق قسطموني- ص: ١٢٠.
[33] الملاحق -ملحق أميرداغ- ص: ٢٥٩.
[34] الملاحق-ملحق أميرداغ- ص: ٢٥٩.
[35] صيقل الإسلام -السانحات- ص: ٣٦١.
[36] بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي- الثاني
[37] الملاحق-ملحق أميرداغ- ص: ٢٦٣.

البعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي

أ.د. عبد المجيد النجار[1]

تتوقّف المذاهب الاجتماعية والحركات الإصلاحية في نجاحها وفشلها إلى حدّ كبير على صوابها وخطئها في تقديرها لحقيقة الإنسان، ولا غرو، فإنّ الإنسان هو المادّة التي تعالجها تلك المذاهب والحركات بالتغيير، وهو ما يستلزم المعرفة الصّحيحة بحقيقته في أبعادها المختلفة، حتّى يكون التعامل معه على أساس تلك الحقيقة، فتثمر المعالجة بما يتّفق مع الغايات المنشودة. وحينما يحدث الخطأ في تقدير حقيقة الإنسان، فإنّ المآل يكون الفشل الذّريع، ولعلّ من أوضح الشواهد على ذلك وأقربها زمنا منّا، المآل الذي آل إليه المذهب الشيوعي، حيث قُدّر الإنسان فيه على أنّه ذو بعد واحد؛ هو البعد المادّي في حقيقته تكويناً وغاية ومصيراً، فانهار المذهب دون إنجاز ما رسم من آمال في تحقيق الخير والسعادة للنّاس.

وإذا كانت المذاهب والحركات تسعى دوما لأن تقيم مشاريعها على تقدير لحقيقة الإنسان الذي تقوم لمعالجة أوضاعه، فإنّها تكون أحيانا كثيرة في تقديرها لتلك الحقيقة جارية على نحو من التلقائيّة التي تسري فيها التّصوّرات من تلقاء المعتقدات الدّينيّة أو المبادئ الفلسفية، في غير تقدير مصنوع بالنّظر يفضي إلى صورة متكاملة للإنسان في أبعاده المختلفة فيما يشبه العلم المستقلّ او الفرع المتميّز من علم من العلوم. ولكنّها قد تكون أحيانا أخرى جارية في التّقدير على أساس من الصّنعة المستقلّة لفرع علميّ يختصّ بتقرير حقيقة الإنسان بصفة شاملة، وهو ما انتهت إليه المذاهب الغربية الحديثة التي أصبحت تقوم في بعدها الفلسفي، وفي نظمها التطبيقيّة على ما يسمّى بعلم الإنسان، ذلك الذي أصبحت الحضارة السائدة اليوم تقوم عليه.

والثقافة الإسلامية وما أثمرت من حضارة، كانت هي أيضا متأسّسة على تصوّر لحقيقة الإنسان، ولكنّه كان تصوّراً سارياً في الأذهان على سبيل التلقائيّة، مضمّنا في اليقين بالمعتقدات الدّينيّة، ولم ينشأ[2] في تلك الثقافة تصوّر للإنسان مصنوع بالنّظر المستقلّ، فيما يشبه الفرع العلمي المتميّز الذي يوازي سائر الفروع العلميّة الأخرى، ونحسب أنّ سبب ذلك هو عدم قيام الدّاعي لهذه الاستقلالية، فقد كانت العقيدة الإسلامية في مجملها بما تحمل في ثناياها من تقدير للإنسان في بعده التّكويني والغائي، كافية لكي يتأسّس عليها المشروع الحضاري الذي أُنجز محقّقاً للإنسانية الخير العميم، بناءً على ما تحمله تلك العقيدة في ثناياها من تقدير للحقيقة الإنسانيّة.

ولكنّ الثقافة الإسلامية اليوم أصبحت في وضع غير الوضع الذي كانت عليه عهد الازدهار؛ إذ هي في هذا الوضع غدت في تدافع شديد مع مذهبيّات عاتية، مسلّحة من بين ما هي مسلّحة به بفلسفة متكاملة للإنسان في أبعاده المختلفة، وعلى تلك الفلسفة تُبنى المذاهب والمشاريع النظريّة والتطبيقيّة، وذلك ما يقتضي أن يتأسّس في الثقافة الإسلامية فرع علمي يختصّ بتقرير حقيقة الإنسان تقريراً مستقلاّ، قائماً بذاته، يتأصّل على حقائق العقيدة الإسلامية، ويفرّع بالنّظر المصنوع تلك الحقيقة إلى أبعادها المختلفة، ليكون ذلك الفرع العلمي مرجعيّة بيّنة المعالم يرشّد مشروع التحضّر الإسلامي في أبعاده الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، ويطاول الثقافات في مجال التدافع الحضاري العامّ.[3]

وفي سبيل تأسيس علم للإنسان من منظور إسلامي، كفرع علمي مستقلّ يكون من الضّروري الرّجوع إلى التراث الثّقافي الإسلامي للاستفادة منه في هذا الموضوع، فهذا التّراث، وإن لم يكن كما أشرنا قد اشتمل على نظر مصنوع مستقلّ بموضوع الإنسان، فإنّه لم يُعدم بيانات في هذا الخصوص على قدر كبير من الأهمّيّة،[4] فيكون جمعها وترتيبها وشرحها مادّة مساعدة على الانطلاق في صناعة علميّة مستقلّة لموضوع الإنسان، قائمة على أساس عقدي، وتنبني إذن هذه الصّناعة على تعاليم الوحي تأسيساً، وعلى بيانات التراث إثراء واستئناساً.[5]

وإسهاماً في تحقيق هذا الغرض؛ فإنّنا نحاول تالياً أن نستجلي ما في تراث بديع الزمان النورسي من بيانات متعلّقة بتصوّره لعنصر من عناصر حقيقة الإنسان، وهو عنصر"البنية الإنسانية في دلالتها العقدية"، تمهيداً بالعوامل التي أدّت به إلى بحث موضوع الإنسان عامّة، والموجّهات الأساسية التي وجّهته فيه، ثمّ عرضاً لبعض

النماذج التي نظمت آراءه وتصوّراته في ذلك العنصر من حقيقة الإنسان عامّة، يدفعنا في ذلك ما وقفنا عليه في هذا الخصوص من عمق في الطّرح وثراء في المادّة.

١. العوامل والمُوجِّهات:

القارئ لتراث بديع الزمان النورسي متمثّلا في مؤلّفاته ورسائله وخطبه وتأمّلاته، يلحظ اهتماماً كبيراً بقضيّة الإنسان، فهو وإن لم يكن حسب علمنا قد خصّص مؤلَّفاً مستقلاّ لهذا الموضوع، فإنّه تناوله بالبحث في مواطن عديدة ومناسبات مختلفة،[6] ويشعر القارئ بأنّ ذلك التناول كان تناولاً مقصوداً بالأصالة وليس عرضياً طارئاً؛ إذ هو بالإضافة إلى كثرة المواطن التي تعرّض فيها بالبحث لقضيّة الإنسان، تراه في بحثه يفصّل القول تفصيلاً، ويتناول فيه الموضوع بشمول، ويؤصّل فيه رؤاه في تعاليم الوحي، ويدافع مخالفات الرّأي من الثقافات الأخرى بالاستدلال، وكلّ ذلك دالّ على أنّ النورسي كان ينزع إلى تأسيس رؤية إسلامية متكاملة لحقيقة الإنسان، وإن لم تكن تلك الرّؤية قد حظيت عنده بمؤلّف مستقلّ، وربّما كان ذلك بسبب من منهجه في التّأليف الذي نحا في عمومه منحى الإرشاد الإصلاحي، ممّا اقتضى منه مسلك المقالة، التي تتوخّى المناسبات، أكثر ممّا اقتضى مسلك التّأليف المطوّل المتكامل في القضايا المراد بيانها.

ولعلّ من أهمّ العوامل التي دفعت بالنّورسي إلى هذا الاهتمام بقضيّة الإنسان فيما يشبه الريادة بالنسبة للثقافة الإسلامية الحديثة؛ ما كان عليه من منزع صوفي عميق انتهت إليه حياته الروحية، فقد كان بذلك المنزع يستشعر بعمق حقيقة الإنسانية التي هي المَجْلى الأكبر لتحقّق الصّفات الإلهية، فهي إذن الرّابط الأمتن بالله تعالى، ويكون الاشتغال فيها بالتّأمّل والنظر والبحث ضرباً من ضروب العبادة العالية الواصلة بالله تعالى.

ولا يبعد أن يكون من عوامل ذلك أيضا ما انخرط فيه بديع الزمان انخراطاً كلّياً من مشروع الإصلاح الإسلامي، الذي يستهدف إصلاح الذّات الإنسانيّة الفردية، كما يستهدف البعد الجماعي للإنسان متمثّلا في الهيئة الاجتماعية العامّة، وكلّ ذلك يستلزم أوّل ما يستلزم التّعمّق في فهم حقيقة الإنسان على أساس إسلامي، ليكون ذلك منطلقا للإصلاح المبتغَى منه تحقيق النّهضة على أسس إسلامية أيضا.

وقد وافى النورسي في تبشيره الإصلاحي زمن عنفوان الهجمة الثقافية الغربية، متأسّسة في بعدها الفلسفي والحضاري على تصوّر متكامل للإنسان، مبنيّ على اعتباره

الكائن ذا البعد المادّي في تكوينه وغايته ومصيره، وهو ما أدّى فيما أدّى إلى كوارث حلّت بالإنسان من حيث كان يُبتغى إسعاده، وقد عايش هو بذاته من تلك الكوارث حربين عالميتين، بل طاله شخصيّاً من مآسيها شيء كثير مع من طال من ملايين البشر، فكان ذلك عاملاً أيضا كي يتأمّل النورسي بعمق في حقيقة الإنسان، ويخرج من ذلك بتصوّر لتلك الحقيقة يرى أنّه كفيل بجلب الخير للإنسانية، ودرء الشّرّ عنها.

ومن مجمل هذه العوامل، وتأسيساً على تعاليم الوحي التي كان موصولاً بها على حبل متين، تكوّنت الموجّهات العامّة التي وجّهت النّورسي في بياناته لحقيقة الإنسان، وحدّدت معالم تصوّراته فيها، فكانت منطبعة بتلك الموجّهات في ذاتها وفي أسلوبها، بحيث يساعد تبيّنها على فهم الصّورة التي رسمها النورسي للإنسان في أركانها المختلفة من حيث المحتوى ومن حيث الأسلوب على حدّ سواء.

الموجّه الأوّل:

أصول العقيدة الإسلامية فيما يتعلّق بحقيقة الإنسان، فقد كان النورسي يتّخذ مرجعيته في هذا الموضوع دوماً من نصوص القرآن والحديث، منها ينطلق وإليها ينتهي، وعليها يؤسّس كلّ بيان، بل لقد كانت أكثر بياناته وتقريراته في طبيعة الإنسان ومهمّة وجوده ومصيره، استنتاجات استخرجها من التأمّل في آيات قرآنية، فجرت مجرى التّفسير لها، وهو ما حفلت به رسائل النّور، التي كان في الغالب يصدّر كلاّ منها بآيات قرآنية، ثمّ ينطلق في شرحها والاستنتاج منها؛ ليبني على أساسها تصوّره لحقيقة من حقائق الإنسان.

الموجّه الثاني:

ما كان النورسي يقف عليه سبباً من أسباب التخلّف الذي يعوق المسلمين عن الانطلاقة الحضارية، وهو المتمثّل في الشّعور بالهزيمة النفسيّة التي أفضت إلى أن يرى المسلم نفسه صغيراً ضعيفاً، وينتهي به الأمر إلى أن تهتزّ ثقته بذاته الإنسانية، فلا يكون له إذن أن يتجاوز وضعه الحضاري المتخلّف بالمبادرة والإقدام اللّذين لا ينشآن إلاّ من الشعور بقوّة الذّات الإنسانية فيه، فاستدعى ذلك منه أن يتّجه في نطاق مسلكه الإصلاحي إلى التبشير بصورة للإنسان، وخاصّة الإنسان المتحقّق بمعرفة الله على أنّه الأقوى في معرض الموجودات الكونية، والأعلى شأنا من بينها، ليتجاوز المسلم المنهزم داخليا بهذا التّصوّر هزيمته، وينطلق في مسيرة البناء.

الموجّه الثالث:

ما رأى النورسي من انحراف خطير في تقدير حقيقة الإنسان في الثقافة الغربية، التي كانت لها صولة شديدة الوقع في زحمة التدافع الحضاري، والتي منها صُنعت الحضارة السائدة في تطبيقاتها المادّية والمعنوية المختلفة، ففي تلك الثقافة اختُزلت حقيقة الإنسان في بُعد وحيد هو البعد المادّي، سواء في طبيعة تكوينه أو في مهمّة وجوده أو في مصيره، وذلك المفهوم الذي بشّرت به المذاهب المادّية على اختلاف ألوانها في إغراء بما تحقّق من رفاه مادّي كان له أثر مدمّر على الحياة الرّوحيّة للإنسان، فإذا هي حياة الحيرة والقلق في مستوى الأفراد، وإذا هي علاقات الاستعمار والحروب في مستوى الهيئة الاجتماعية البشرية العامّة.

إنّ ذلك كلّه استدعى من النورسي في سبيل مدافعة هذه الصّورة للإنسان، وما أثمرت من ثمار مُرّة؛ أن يؤصّل لصورة أخرى يبنيها على الحقيقة القرآنية، ويبشّر بها النّاس عامّة والمسلمين خاصّة؛ لتثمر في ذات الفرد الطّمأنينة والأمن، وتثمر في المجتمع البشري السلم والتعاون على التعمير؛ ولذلك فقد كان في بياناته المختلفة لحقيقة الإنسان ينتهج منهج العرض المزدوج لكلّ من الرّؤية القرآنية لحقيقة الإنسان، والرّؤية الفلسفيّة المعبّرة عن وجهة الثقافة الغربيّة، مبيّناً بالاستدلال وجوه الحقّ في الأولى ووجوه الباطل في الثانية،[7] ليصبح ذلك إحدى الموجّهات في تقديره لحقيقة الإنسان تكوينا وغاية ومصيراً كما أراد أن يؤصّلها في العقيدة الإسلامية.

٢. البعد العقدي للتّكوين الإنساني:

من بين العناصر العديدة المندرجة ضمن قضيّة الإنسان أولى النورسي أهمّيةً خاصّة للتّكوين الإنساني في أبعاده المادّيّة والرّوحيّة، فقد خصّص لذلك حجماً كبيراً في نطاق ما خصّص لقضيّة الإنسان عامّة. وإذا كان تناولُ هذا العنصر من قِبل الباحثين في موضوع الإنسان أمراً مألوفاً، فإنّ النّورسي بحث فيه بمنهج يحمل من ملامح الجدّة والابتكار ما لا نجده عند غيره إلاّ في الأقلّ بإشارات عارضة، أمّا هو فقد كان عنده منهجاً مطّرداً يكاد لا يتخلّف في أيّ موطن من مواطن البيان للتّكوين الإنساني، ممّا يدلّ على أنّه كان يقصد إليه قصداً، ويهدف منه إلى أهداف مخصوصة يريد أن يحقّقها في نطاق خطّته الإصلاحيّة العامّة. ونبيّن فيما يلي ملامح ذلك المنهج، ثمّ نعرض نماذج من المسائل التي أدرجها فيه متعلّقة بالبنية الإنسانية:

أ. ملامح المنهج:

يتمثّل ذلك المنهج في الرّبط المستديم بين الآيات التّكوينيّة في طبيعة الإنسان الجسمية والرّوحية وبين الدّلالات العقديّة لتلك الآيات، بحيث تُعرض كلّ آية من تلك الآيات في معرض البيان لبعدها العقدي الذي هو مرتبط بها ارتباطاً مكيناً في أصل الغاية من خلقها، كما هو مرتبط بها في الوظيفة الحياتيّة التي أُنيطت بالإنسان. إنّ التّكوين الإنساني بعناصره المختلفة يغدو في هذا المنهج عند النورسي، يشبه أن يكون رمزاً قيمته ليست في ذاته بقدر ما هي فيما يرمز إليه من أبعاد عقدية، وبالتّالي فإنّ وجوده الحقيقي ليس إلاّ في تأديته إلى ما يدلّ عليه من المعاني، ويرمز إليه من الأبعاد.

وغاية النورسي من هذا المنهج في شرح عناصر التكوين الإنساني تندرج ضمن غايته في الاهتمام بشرح حقيقة الإنسان عامّة، مع خصوصيّة في نطاق ذلك الاهتمام، فالرّبط بين آيات التّكوين الإنساني، وبين المدلولات العقدية لتلك الآيات حينما تصبح ثقافة أصيلة في تصوّر المسلم لحقيقة الإنسان، فإنّ من شأنه أن يجعله دائم الاستحضار لأبعاد الغيب، فيرتفع في أخلاقه وتصرّفاته عن أن يمارس صغائر الأعمال، إذ يرتفع به ما يستحضر من رفيع المعاني عن أن يستعمل آلاته التكوينيّة في غير ما يناسب مدلولاتها العقدية من رفيع السلوك في القول والعمل، فينتهي الأمر إذن بهذا المنهج إلى الترقّي في الممارسة من صغائر الأعمال إلى كبارها.

وحينما يرتبط في تصوّر المسلم أيضا آيات تكوينه بمدلولاتها، فإنّه يغدو ناظراً إلى نفسه بعين الاستعظام، إذ تلك الآيات في مظاهر ضعفها وقوّتها على حدّ سواء ليست إلاّ وسائل لغايات عظمى، ورموزاً لمعانٍ عليا، فقيمتها إذن ليست في ذاتها بقدر ما هي في غاياتها ومدلولاتها، وذلك من شأنه إذا ما صار يقيناً في النفس أن يشعر برفعة الذّات وقوّتها، وأن ينفض ما عسى أن يرين على القلوب من الشعور بالضّآلة والهزيمة، وتلك ما كانت حالاً للمسلم الذي عالجه النورسي بالإصلاح، إذ هو منهزم حضارياً ومستضعف لذاته نفسياً، فهذا المنهج من شأنه أن يقوّي في المسلم الشّعور بالذّات، ويجعله يتجاوز العطالة النّاشئة من ذلك الاستضعاف؛ لينطلق بما يشعر من قوّة الذّات في طريق المبادرة والفعل لينجز التعمير في الأرض.

إنّ هذا المنهج إذن هو منهج ذو بعد إصلاحي، وليس هو مجرّد آليّة من آليّات التحليل لشرح الحقيقة المجرّدة للإنسان، إذ قد وظّفه النورسي لإصلاح ما بذات

المسلم الذي كان يتّجه إليه بالخطاب، ليحوّل إرادته من صغائر الغايات والأعمال إلى كبارها، ويحوّل ما بنفسه من شعور بالضّعف إلى شعور بالقوّة، وتلك كلّها شروط ضروريّة لتجاوز التّخلّف الذي كان عليه المسلمون ضارباً في الأعماق من نفوس الأفراد، والانطلاق في طريق النهضة التي لا تبدأ إلاّ من قوّة الفرد متمثّلة في استشعار رفعته قيمةً وغاياتٍ.

وفي نطاق هذا المنهج بأهدافه الإصلاحية تناول النورسي بالبيان عناصر متعدّدة من تكوين الذّات الإنسانية في بعدها المادّي والروحي، فإذا هو في كلّ مناسبة يتعرّض فيها بالشّرح لحقيقة الإنسان لا يفتأ يتطرّق إلى جانب من جوانب تكوينه في أعضائه الظّاهرة والباطنة، وفي غرائزه وطبائعه، وفي استعداداته وقدراته، وفي مظاهر ضعفه وقوّته، وفي آماله وأشواقه الرّوحيّة، فيشرح آيات الخلق في تلك الجوانب، ثمّ يخلص سريعاً إلى المقصد من ذلك الشرح، ليبيّن الدّلالة العقدية لتلك الآيات، ويوجّه الأنظار من ظواهرها المشهودة إلى أبعادها الغيبيّة، فيتحوّل الهمّ من الانشغال بالمقتضيات الصّغيرة لتلك الظّواهر إلى المقتضيات الكبيرة لأبعاد الغيب، ويكبر إذن الهدف فتكبر معه الجهود والأعمال، وتحدث حركة النّهوض. وإذا كانت الآيات التّكوينيّة في ذات الإنسان كما تناولها النورسي مرتبطة بأبعادها العقدية كثيرة متنوّعة، فإنّ بعضا منها تتجلّى فيه بصفة أكثر وضوحاً، وأبين غاية، هذه المنهجيّة الرّابطة بين الظّاهر المشهود والبعد الغيبي، وذلك ما نعرضه تاليا.

ب- الرّمزية العقدية لكينونة الإنسان:

يعمد النورسي قبل التفصيل في عناصر التكوين الإنساني من حيث دلالاتها العقدية إلى تناول الكينونة الإنسانية جملة، وبقطع النّظر عن تفاصيلها بالبيان من هذا المنظور المنهجي، فيشرح الكيان الإنساني من حيث هو موجود من موجودات الكون ذو طبيعة متّصفة بالوعي والمسؤولية، شرحاً يستطلع فيه ما وراء هذه الكينونة في جملة الطّبائع التي رُكّبت فيها من مدلولات تتجاوز كينونتها الظّاهرة إلى حقائق غيبيّة.

وفي هذا النّطاق يذهب في بيانه إلى أنّ كينونة الإنسان التي يعبّر عنها بـ ''ماهية الأنا'' ليست حقيقتها الوجوديّة مستمدّة من ذاتها، وإنّما هي مستمدّة من خارجها، أي من واهب الوجود لها وهو الله تعالى، فدلالة وجودها لا تُلتمس في ذاتها، بل تُلتمس من واهب الوجود لها، إذ تلك الكينونة لا تعدو أن تكون رمزا للوجود الحقّ، أو تابعاً من توابعه وظلاً من ظلاله. وفي هذا المعنى يرى النورسي أنّ على الإنسان أن ''يفهم

أنّ ماهيته حرفيّة، أي دالّة على معنى في غيره، ويعتقد أنّ وجوده تبعي، أي قائم بوجود غيره وبإيجاده، ويعلم أنّ مالكيته للأشياء وهمية، أي أنّ له مالكيّة مؤقّتة ظاهرية بإذن مالكه الحقيقي، وحقيقته ظلّية ليست أصيلة، أي أنّه ممكن مخلوق هزيل، وظلّ ض**ه٤ث**عيف يعكس تجلّياً لحقيقة واجبة حقّة''.[8]

وفي سبيل مزيد من توضيح هذه الصّورة بطريق المقارنة، يوازن النورسي بينها باعتبارها صورة لحقيقة الأنا الإنسانيّة، جاءت تبشّر بها النّبوّة، وبين الصّورة التي جاءت تبشّر بها الفلسفة، وهي صورة تمثّل وجهاً مناقضاً للوجه النّبوي، إذ الفلسفة ''قد نظرت إلى (أنا) بالمعنى الأسمى، أي تقول: إنّ (أنا) يدلّ على نفسه بنفسه، وتقضي أنّ معناه في ذاته، ويعمل لأجل نفسه، وتتلقى أنّ وجوده أصيل ذاتي وليس ظلاّ؛ أي له ذاتيّة خاصّة به''.[9] فكينونة الإنسان هي إذن في الصّورة النبويّة رمز دالّ على غيره متقوّم في وجوده به، وهي في الصّورة الفلسفيّة وجود معناه في ذاته، وهو دالّ على نفسه بنفسه.

إنّ هذه الصّورة لحقيقة الكينونة الإنسانيّة ليست قيمتها في ذاتها فحسب، بل قيمتها أيضاً فيما ينشأ عنها من آثار عمليّة في السّلوك الفردي والاجتماعي، وذلك ما كان النّورسي يعمل دوماً على استنتاجه في مقام البرهان على حقّيّة تلك الصّورة من تلقاء الثمرة العملية بعدما يكون قد استدلّ عليها استدلالاً نظريّاً، وذلك في سبيل مزيد من ترسيخ هذه الصّورة في الأذهان فتحدث فيها التغيير المطلوب.

ومن الآثار العملية لهذه الصّورة الأثر المعرفي، فالإنسان لمّا يكون معتبراً نفسه أثراً لله تعالى، متقوّماً في وجوده به، ورامزاً بكينونته إليه، فإنّه يفيض عليه من النّور ما يستطيع به أن يكشف عن الحقائق الكونيّة المحيطة به؛ إذ تلك الحقائق هي ذاتها مطبوعة بنفس ما الذّات الإنسانية مطبوعة به، فيفضي ذلك التّجانس إلى استقبال صحيح من قِبل النفس لمظاهر الكون، فتتمّ المعرفة الحقّ. وأمّا لو تصوّر الإنسان حقيقة نفسه بالصّورة الفلسفيّة فإنّ ذلك من شأنه أن يجعله ''يتخبّط في درك جهالة مركّبة حتى لو علم آلاف العلوم والفنون؛ ذلك لأنّ ما تتلقّفه حواسّه وأفكاره من أنوار المعرفة المبثوثة في رحاب الكون لا يجد في نفسه مادّة تصدّقه وتنوّره وتديمه، لذا تنطفئ كلّ تلك المعارف، وتغدو ظلاماً دامساً؛ إذ ينصبغ كلّ ما يرد إليه بصبغة نفسه المظلمة القاتمة، حتى لو وردت حكمة محضة باهرة فإنّها تلبس في نفسه لبوس العبث المطلق''،[10] وإذن فإنّ النّفس الإنسانيّة حينما يقع فيها أنّها ظلّ للوجود الأعظم؛ فإنّها تستقبل الإشارات المعرفيّة الكونيّة بما يحوّلها إلى معرفة حقّ، أمّا حينما يقع فيها أنّها

قائمة في وجودها بذاتها فإنّها تعجز عن ذلك الاستقبال، فتضطرب عليها المعارف، ويفوتها تحصيل الحقائق.

وفي مجال الاعتقاد، فإنّ الصّورة النبويّة لكينونة الإنسان بما تقوم عليه من الرّمزيّة للموجود الأعلى تثمر في النّفس العبودية لله الواحد، إذ هي بتلك الرّمزيّة والظّلّيّة تثمر في النّفس بالنّسبة لمن يؤمن بها إيمانا بـ ''أنّ الغاية القصوى للإنسانية؛ والوظيفة الأساسية للبشرية؛ هي التّخلّق بالأخلاق الإلهية، أي التحلّي بالسّجايا السامية، والخصال الحميدة، التي يأمر بها الله سبحانه، وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوّته تعالى''،[11] وتلك هي العبودية لله تعالى في صورتها العالية.

وأمّا الصّورة الفلسفيّة بما تقوم عليه من تقدير الإنسان قائماً بنفسه، فهي تفضي بل قد أفضت عند الفلاسفة بالفعل إلى أن اعتبروا ''أنّ الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي (التشبّه بالواجب) أي بالخالق جلّ وعلا، فأطلقوه حكماً فرعونياً طاغياً، ومهّدوا الطّريق لكثير من الطّوائف المتلبّسة بأنواع من الشّرك... وذلك بتهييجهم الأنانية لتجري طليقة في أودية الشرك والضّلالة، فسدّوا سبيل العبودية لله''.[12] فتصوّر الإنسان نفسَه إذن كينونة تابعة للوجود الحقّ وظلاّ له، يفضي إلى السّعي في التّخلّق بأخلاق الله، وهو ما ينتهي إلى التّوحيد الحقّ، وتصوّرها كينونة قائمة الذّات يفضي إلى السّعي في ''التّشبّه بالواجب'' كما هو شعار الفلاسفة، وهو ما ينتهي إلى الشّرك.

وفي المجال الاجتماعي، تثمر الصّورة النبويّة لكينونة الإنسان بقوامها الرّمزي ثقافة التعاون بين النّاس تصوّراً وعملاً؛ وذلك لأنّ التبعيّة للموجود الأعلى تفسح للتّابعين من أفراد النّاس أن يتكاملوا فيما بينهم بالتعاون، إذ هم متساوون في تلك التّبعيّة التي تكسر فيهم الأنانية الفرديّة، ذلك العائق الأكبر دون التعاون، والدّافع الأكبر للتّعادي والخصام.

وأمّا الصّورة الفلسفية، التي تقوم فيها كينونة الإنسان بنفسها، فإنّها تفسح المجال لثقافة الصّراع؛ إذ تشعر كلّ ذات بأنّها قائمة بنفسها، فتتشبّع إذن بالأنانيّة التي تتولّد منها تلك الثقافة، ''فأين هذا الدّستور القويم، دستور التعاون، وقانون الكرم، وناموس الإكرام -النّاشئ من الصّورة النبويّة لكينونة الإنسان- من دستور الصّراع، الذي تقول به الفلسفة من أنّه الحاكم على الحياة الاجتماعية، علماً أنّ الصّراع ناشئ فقط لدى بعض

الظّلمة والوحوش الكاسرة، من جرّاء سوء استعمال فطرتهم بحسبان أنّ معناها في ذاتها، وأنّها تدلّ على نفسها بنفسها".[13]

إنّ كينونة الإنسان كما شرحها النورسي في أصل وجودها، وفي مجمع طبيعتها بما هي كينونة رمزية، تستمدّ حقيقتها من خارج ذاتها، وتنتهي إلى الوجود الحقّ الذي هو الله -سبحانه وتعالى-، إذا ما أصبحت في صورتها تلك إيماناً راسخاً للفرد المسلم، فإنّها تثمر في نفسه النّزوع إلى سلوك المسالك الصّحيحة معرفياً وعقدياً واجتماعياً، وذلك ما دفع به إلى التبشير بهذه الصّورة في نطاق مسلكه الإصلاحي، استنتاجاً استدلالياً من القرآن الكريم، ودحضاً للصّورة المقابلة التي كانت الفلسفة الغربية تروّج لها، فتجد بعض القبول والتّأثير في قطاع من المسلمين.

ج- دلالة التكوين على قيمة الإنسان:

إنّ قيمة الإنسان كما يرى النورسي يمكن أن تقدّر من قراءة صحيحة لتكوينه في بعديه الجسمي والرّوحي، سواء بقراءة ذلك التكوين اقتصاراً على نفس الذّات الإنسانية، أو مقارنة لها بسائر العناصر من الموجودات الكونية، فكلّ من هذه وتلك تفضي إلى علم بأنّ هذا الإنسان الذي أُعدّ في نفسه، وفي نسبته من سائر الموجودات على هيئته المخصوصة، التي هو عليها بأبعادها التركيبيّة والوظيفية؛ ليس إلاّ على درجات عليا من الرّفعة وعلوّ الشّأن، بحيث يقوم ذلك التكوين مقام الشّاهد اليقيني على تلك الدّرجات العليا.

على هذه المنهجية، جعل النورسي يثمّن قيمة الإنسان بقراءة آياته التّكوينية، بالنّظر إليها حينا في حدود ذاتها بما صُنعت عليه من دقيق الصّنعة، وما أُضمر فيها من عظيم الطّاقات، وبالنّظر إليها حينا آخر في صلاتها بموجودات الكون، من حيث استجماعها في التركيب لما تفرّق في الآفاق الواسعة العريضة، ومن حيث توافقها العنصري والكيفي مع مُركّبات الموجودات الكونية وأنظمتها في الحركة والتغيّر. وفي كلّ ذلك تراه يعرض المظهر التكويني عرضاً تصويرياً بسيطاً لكنّه دقيق، ثمّ يستخلص منه المغزى القيمي للإنسان، ليبيّن في الخلاصة أنّ هذا الإنسان تدلّ آيات تكوينه على رفعة شأنه وعلوّ مقامه، مدرجاً ذلك كلّه في غرض إصلاحي نبيّنه بعد حين.

ومن الأمثلة على هذا المنحى النورسي في تقدير حقيقة الإنسان؛ التّأكيد المتجدّد في بياناته لتكوين بنيته الظّاهرة والخفيّة، على أنّ تلك البنية الدّقيقة الصّنعة إنّما هي المجْلى الأعظم للصّنعة الإلهية، والمعرض الأكبر لصفاته تعالى وأسمائه الحسنى، فالله

تعالى أحسن كلّ شيء خلقه، ولكنّ أعظم درجات حسنه إنّما هي تلك التي ظهرت في تركيب الإنسان، حتى غدا هذا التركيب هو أعظم درجات التّجلّي لصفاته تعالى، وكفى بذلك علوّ قيمة للإنسان، وكفى به رفعة في مقام العزّة والشرف، وفي ذلك يقول النورسي: ''إنّ الإنسان بسرّ التوحيد صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات، وهو أثمن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها''.[14]

والتركيب الإنساني قد أُودع فيه من عظيم القدرات ووفير الطّاقات، ومن لطيف الأسرار ودقيق الآلات ما ينبئ يقينا بأنّه أُعدّ لغايات عليا، وأُنيطت بعهدته مهامّ جسيمة تفوق الغايات والمهامّ التي خُلقت من أجلها جميع الكائنات الأرضية الأخرى، فقد ''خلقه الله سبحانه على فطرة جامعة، لها من القدرة ما يثمر ألوف سنابل الأنواع، وما يعطي طبقات كثيرة بعدد أنواع سائر الحيوانات، إذ لم يحدّد سبحانه قوى الإنسان ولطائفه ومشاعره كما هو الحال في الحيوانات، بل أطلقها واهباً له استعداداً يتمكّن به من السياحة والجولان ضمن مقامات لا تحدّ، فهو في حكم ألوف الأنواع وإن كان نوعاً واحداً، ومن هنا أصبح الإنسان في حكم خليفة الأرض''، وكفى بمهمّة الخلافة من مهمّة عظيمة، وحيث كانت الخلافة هي المهمّة التي تقوم على العبادة، فتكون هذه أيضاً غاية عليا هُيّئ الإنسان في تركيبه لإنجازها، فـ ''فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلاّن على أنّه مخلوق للعبادة''،[15] وفي خلاصة هذه الفكرة يقول النورسي: ''فإنّ الإنسان لم يوهب له رأس مال العمر، ولم يودع فيه أجهزة إنسانية راقية؛ إلاّ ليؤهّله ذلك على تأدية الوظائف الجليلة المذكورة''.[16]

وقد استجمع الإنسان في تركيبه من العناصر ومن الهيئات الكيفيّة ما تفرّق في آفاق الكون، حتى غدا بذلك كخلاصة للعالم، أو كعالم صغير يحاكي في تكوينه ذلك العالم الكبير، ولمّا كان الإنسان على هذا النّحو من المحورية التكوينيّة للكون كلّه، وعلى هذا النحو من المركزية بالنّسبة لسائر الموجودات، فإنّه اكتسب العلوّ والرّفعة بالنّسبة للكون، كما تكتسب مستخلصات العطور الرّفعة بالنّسبة للنّباتات الكثيرة التي استخلصت منها، وأصبح تبعاً لذلك سيّداً للكون، وأصبح ما في الكون مسخّراً وخادماً لأغراضه، كما يكون الخادم في طاعة سيّده.

إنّ الله تعالى ''إذا ما كتب -وهو الصانع المعجز المطلق- كتاب السماوات والأرض، ذلك الكتاب الضّخم في نسخة مصغّرة وهي الإنسان، وإذا ما جعل هذا الإنسان منتخباً وخلاصة كاملة لذلك الكتاب، فإنّه -أي الإنسان- سيملك ذلك الشرف

والكمال والقيمة العالية،[17] فهذه المركزيّة الكونية في التكوين الإنساني أكسبت الإنسان إذن قيمة إضافية في نسبته من الكون تؤكّد وتعزّز تلك القيمة التي أكسبته إيّاها طبيعته الذّاتية.

إنّ هذه المرتبة الرفيعة، ذات التّحقّقات المختلفة التي حرص النورسي أيّما حرص على أن يبيّنها مدلولاً لتكوين الإنسان بالنّظر إلى ذاته، وفي نسبته من الكون، إنّما كان ينحو في تبيانها منهجاً تربوياً إصلاحياً، ويوجّهها بذلك في تحقيق غايته القائمة على تغيير ما عليه المسلمون في ذوات الأفراد وفي هيئة المجتمع، فهو إنّما كان يبرز تلك الرّابطة الدّلالية بين تكوين الإنسان وقيمته ليشيع في النفوس بما تتشرّبه من يقين التّلازم بين الطرفين الشّعور الرّاسخ بقيمة الذّات وعلوّ الشّأن وجسيم المسؤولية، فإذا المرء لمّا ينظر في نفسه -وهو النّاظر فيها في كلّ أحواله- ييقن من ملاحظة تركيبه بأنّه خُلق لأمر عظيم، وإذا هو بذلك اليقين يسعى في ممارسات عملية يبلغ بها من الجدّ والدّأب والإتقان ما يتناسب مع ما هو عليه من قيمة رفيعة، وما هو معدّ له من مهمّة جسيمة، وإذا هو أيضا ينصدّ عن أن يأتي الصّغائر من الأعمال، ويهدر جهده في سفاسف الأمور، إذ كيف وهو الرّفيع الشّأن يأتي ما هو صغير حقير؟

ذلك المعنى هو الذي عبّر عنه النورسي في منحى توجيهي إصلاحي، إذ يقول: "أتحسبون أنّ مهمّة حياتكم محصورة في متطلّبات النّفس الأمّارة بالسّوء، ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعا لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنّون أنّ الغاية من درج ما أُودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حسّاسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواسّ متجسّسة؛ إنّما هي لمجرّد استعمالها لإشباع حاجات سفليّة لرغبات النفس الدّنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاش وكلاّ"،[18] إنّ خلق تلك اللّطائف والحواسّ والمشاعر؛ إنما هو للقيام بمهمّة في الحياة أعلى وأسمى من ذلك كلّه، تلك هي مهمّة الخلافة القائمة على عبادة الله تعالى ترقيةً للذّات الإنسانية وتعميراً في الأرض.

د- البعد الأخروي في التكوين الإنساني:

إنّ التّكوين الإنساني في بعديه المادّي والرّوحي، حينما يُتأمّل بالنّظر الدّقيق بما يفوق لحظة وجوده الرّاهنة إلى الدّلالات الزّمنية لتركيبه؛ فإنّ ذلك التّأمّل يفضي إلى يقين بأنّ هذا التّكوين يمتدّ في دلالته الزمنية إلى ما يتجاوز مقدّراته من الحياة في هذا العالم المشهود إلى آماد أخرى من الحياة، تمضي في الزّمن إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، وتلك هي حياة الخلود التي ليس لها نهاية. هذه فكرة انشغل بها النّورسي

انشغالاً كبيراً في مضمار شروحه لحقيقة الإنسان من حيث آياته التكوينيّة، ودلالاتها العقدية، وخصّص لها في رسائله، وخطبه، وإرشاداته، مساحة واسعة. وقد ركّز في تبيانها على جهتين أساسيتين من جهات تكوين الإنسان من حيث دلالة كلّ منهما على الحياة الأخرى، فكان إذن جاعلاً البعث في الحياة الأخرى بعداً من أبعاد تكوين الإنسان.

الجهة الأولى من تلك الجهتين، هي ما رُكّب عليه الإنسان من أجهزة مادّية وروحية، ومن استعدادات وقدرات، فهذه كلّها تبلغ في التّركيب الإنساني من دقّة الصّنعة وإتقانها، ومن القدرة على العطاء والكفاءة في الأداء، ومن طاقة الإنجاز وقوّة الفعل؛ ما تتجاوز به آماداً بعيدة حاجات الإنسان ومطالبه في حياته القصيرة، فتلك الحاجات والمطالب يمكن أن تُلبّى بما هو أقلّ من ذلك بكثير من التّكوين الإنساني، فلماذا إذن أُضمرت في ذلك التّكوين من المقدَّرات أكثر بكثير ممّا يحتاجه الإنسان في حياته الدّنيويّة القصيرة لو كانت تلك الحياة تنتهي بالموت؟

يأتي جواب النورسي على هذا السّؤال، بأنّ المقدّرات الواسعة للتكوين الإنساني إنّما هي دالّة دلالة القطع على أنّ حياة الإنسان ممتدّة في الوجود إلى ما بعد هذه الحياة الدّنيا، حيث يكون البعث والحشر والحساب، ثمّ الخلود في حياة أبدية، وتلك المقدّرات الواسعة للتّكوين الإنساني إنّما خُلقت على ذلك النّحو لتُصرف في جزء منها على المطالب المحدودة للحياة المشهودة، ثمّ لتُصرف فيما زاد على ذلك لتلبية مطالب أخرى تقتضيها الحياة الباقية في أقدار غير محدودة، إذ هي سعادة غير خاضعة لقياس كمّي ولا زمني، وعلى هذا النّحو يتمّ التّكافؤ بين مقدّرات التكوين الإنساني، وبين الآماد الزمنيّة للحياة المحدود منها والباقي، ويتمّ التّعادل المنطقي بين الطّرفين، وينتهي ذلك التفاوت بين قدرات الإنسان وما تتطلّبه حاجاته الضّروريّة في حياته الدّنيا.

يقول النورسي في بيان هذه المعاني، أو ما هو قريب منها: ''كلّ ذي شعور يعلم أنّ الله -سبحانه- قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، وربّاه أحسن تربية، وزوّده من الأجهزة والأعضاء كالعقل والقلب ما يتطلّع به إلى السّعادة الأبدية ويسوقه نحوها، ويدرك كذلك مدى الظّلم والقسوة إذا ما انتهى مصير هذا الإنسان المكرّم إلى العدم الأبدي، ويفهم كذلك مدى البعد عن الحكمة في عدم البعث الذي يجعل جميع

الأجهزة، والقوى الفطرية، التي لها آلاف المصالح والفوائد دون جدوى، ودون قيمة، في الوقت الذي أودع سبحانه مئات من الحكم والفوائد في دماغه فحسب''.[19]

والجهة الثانية من جهات التكوين الإنساني في مضمار دلالتها على الحياة الأخرى، هي المتعلّقة بما هو مضمر في النّفس البشريّة من الآمال والأشواق والمطالب الرّوحية، فهذه النّفس تنطوي من ذلك على أقدار واسعة جدّاً تتجاوز إلى غير حدّ ما هو متاح لتلبيتها في حياة الشّهادة، فالإنسان ينطوي على حبّ للعلم لا يشبعه المتاح في حياته، بل لا تكفي تلك الحياة لإشباعه، وينطوي على شوق للبقاء لا يلبّي منه العمر إلاّ شيئاً قليلاً، وينطوي على تطلّع للسّعادة لا يتحقّق منها في الحياة الدّنيا إلاّ النّزر اليسير، وقد لا يتحقّق منها شيء. فكيف يمكن تفسير هذا التّفاوت بين تكوين الإنسان في أشواقه وآماله وتطلّعاته، وبين الممكن تحقيقه منها في الحياة؟

يجيب النورسي على هذا السّؤال بنفس المنهج الذي أجاب به على السّؤال الذي قبله، فيذهب إلى أنّ هذه الأقدار الواسعة من آمال الإنسان وأشواقه التي لا تجد لها في الحياة الدّنيا تحقّقا ممكنا، إنّما تحمل في نفسها دلالة على أنّ حياة الإنسان ليست هي هذه الحياة التي تعجز عن تحقيق تلك المطالب والأشواق، بل هي حياة ممتدّة بعد الموت إلى آماد الخلود، حيث يمكن هناك أن تتحقّق كلّ الآمال والأشواق والتّطلّعات.

وفي بيان هذا المعنى قال النورسي: ''إنّ حقيقة الإنسان وكمالاته، وحاجاته الفطرية، وآماله الأبدية، وحقائقه واستعداداته، تتطلّب النتائج والفوائد المذكورة للإيمان بالآخرة، وتدلّ قطعاً على الآخرة، وعلى الجنّة، وعلى لذائذ مادّيّة محسوسة باقية، وتشهد على تحقّقها''،[20] وقال في موطن آخر: ''ما دام الإنسان مشتاقاً فطرةً لجمال باق، وقد خلق محبّاً لذلك الجمال... وإنّ الجمال الباقي لا يرضى بمشتاق زائل... فلا بدّ أنّ هذا الإنسان سيبعث إلى دار البقاء والخلود، ولا بدّ أن سينال حياة باقية دائمة''،[21] وفي خلاصة هذه الفكرة ''ما دام جميع لذائذ الدّنيا لا تشبع الخيال الذي هو أحد خدّام الماهية الإنسانيّة، فلا بدّ أنّ حقيقة الماهية الإنسانيّة الجامعة الشّاملة جدّاً مرتبطة فطرة بالخلود والبقاء''.[22]

إنّ الإنسان إذن ينطوي على قدرات واستعدادات تزيد عن حاجته من مطالب حياته الدّنيا، ومن جهة أخرى ينطوي على أشواق وآمال لا يكفي ما في هذه الحياة لتحقيقها، وفي كلا الجهتين ميلان غير مقبول في ميزان العقل لو قُدّرت الحياة على

أنّها منحصرة في هذه الفانية، وليس من حلّ منطقي يعدّل طرفي المعادلة في الوجهين، ويبعد ما ينطوي عليه ذلك الميلان من العبثيّة في الخِلقة الإنسانيّة إلاّ بحياة أخرى تمتدّ إلى الأبد، وتصل بها الاستعدادات والقدرات إلى مداها في تحقيق مقتضياتها، كما تصل فيه الأشواق والآمال إلى مداها في إشباع مطالبها.

إنّ النورسي لم يكن في بياناته هذه، كما درج عليه في كلّ بياناته في هذا الشّأن محلّلاً نظرياً، أو مقرّراً فلسفيّاً، ولكنّه كان يدرج هذه البيانات في نسق تربوي إصلاحي، فحينما يقع في نفس المسلم أنّ تركيبه الذّاتي المادّي والمعنوي يشهد بحياة البقاء، ويرمز إليه ويدلّ عليه، فإنّ هذه الحياة ستكون قائمة في الوعي حاضرة فيه باستمرار، وهو ما من شأنه أن يحفّز الإرادة للعمل في هذه الحياة الدّنيا بما يدفع الاستعدادات والقدرات إلى مدى طاقاتها اطمئناناً لريعها الذي سيكون في الآجل بعد استيفاء العاجل، وبما يفضي إلى إشباع الأشواق والآمال إشباعاً تسعه حياة البقاء إن لم تسعه حياة الفناء، وفي كلّ من هذا وذاك يُثرَى عمل الإنسان في كمّه وكيفه، فتعمر به حياة الإنسان في الدّنيا والآخرة.

ويمتدّ النّورسي بآثار هذا الارتباط في ذهن المسلم بين حقيقة تركيبه وبين دلالتها على الآخرة إلى المجال الاجتماعي، فهو بعدما يبيّن دلالة التكوين الإنساني على الآخرة، يستنتج ما يفضي إليه الإيمان بتلك الدّلالة من أثر في الرّوابط الاجتماعية، فيقول: ''ما إن يأتي الإيمان بالآخرة إلى هذا الإنسان، ويمدّه ويغيثه، حتى يحوّل ذلك الزّمن الضّيّق الشبيه بالقبر إلى زمان فسيح واسع جدّا، بحيث يستوعب الماضي والمستقبل معا، فيريه وجوداً واسعاً بسعة الدّنيا، بل بسعة تمتدّ من الأزل إلى الأبد، وعندئذ يقوم هذا الإنسان باحترام والده وتوقيره، بمقتضى الأبوّة الممتدّة إلى دار السّعادة وعالم الأرواح، ويساعد أخاه ويعاونه بذلك التّفكير بالأخوّة الممتدّة إلى الأبد، ويحبّ زوجته ويرفق بها ويعاونها لأنّها أجمل رفيقة حياة له حتى في الجنّة''.[23]

هذه نماذج من المنهج الذي انتهجه النورسي في شرح حقيقة الإنسان، فيما يتعلّق منها بالجانب التّكويني فيه، سالكاً مسلك الرّبط بين المظاهر التّكوينيّة وبين مدلولاتها العقدية، جاعلاً تلك المدلولات بعداً أساسياً من أبعاد مظاهر التّكوين، وجزءً مكمّلاً لحقيقتها، بحيث يقف النّاظر فيها على الوجه الظّاهري المشهود، والوجه العقدي الغيبي؛ كوجهين لحقيقة واحدة، ليكون من ذلك أثر فاعل في النّفس، مغيّر ما بها، دافع بالإرادة إلى مقتضيات الوجه العقدي الغيبي من الفعل الثريّ الذي يعمر الحياة.

إنّه منهج في التّقرير العقدي لمفهوم الإنسان من شأنه أن يؤسّس فرعاً من فروع علم العقيدة، ينظّر للإنسان موضوعاً قائماً بذاته، ليكون مرجعاً لكلّ ما يُبنى من نظم في نطاق مشروع النّهضة الإسلامية، وليفعّل إرادة المسلم بما يصبح للبعد العقدي من مدخل في تصوّره لحقيقة نفسه، وبما يكون للاستدلال العملي ببيان المنفعة الواقعيّة للعقيدة التّصديقيّة النظرية من استنفار للنزوع إلى المبادرة والفعل والإنجاز، فيصحّ إذن في حال المسلم الفكر والعمل معاً، وتلك هي الشروط الضروريّة التي لا تكون نهضة بدونها.

وإنّ هذا المنهج النّورسي لحريّ بأن يُدرس لتتبيّن معالمه، وأن تُجمع عناصره، وتؤلّف أجزاؤه، ليبدو صورة متكاملة سوف تكون -بدون شكّ- مفيدة كبير الفائدة في سبيل إنشاء علم الإنسان الإسلامي. وليت بديع الزمان خفّف في منهجه هذا قدراً مّا من منزعه الصّوفي، الذي نحا به في تقريره لحقيقة الإنسان منحى الإصلاح الرّوحي، الذي يغلب فيه معنى التّعبّد كصلة مباشرة بالله تعالى، ويضمر فيه إلى حدّ كبير معناه كصلة بالله بطريق التّعمير في الأرض، فهي عبادة توازي العبادة في معناها المباشر، والمسلمون اليوم في أشدّ الحاجة إلى أن يُصحّح في أذهانهم هذا المفهوم لينطلقوا في عبادة الله تعالى بالتّعمير في الأرض؛ كجزء أساسيّ من مفهوم الخلافة. وهذا ملحظ ينبغي فيما نرى أن يؤخذ بالتّلافي، لمّا يُستفاد من هذه المنهجيّة النّورسيّة في تقرير حقيقة الإنسان، فيقع تطوير هذه المنهجيّة في اتّجاه الاهتمام بعبادة التّعمير.

* * *

الهوامش:

[1] أ.د. عبد المجيد النجار: باحث متفرغ، تونس.

[2] يمكن أن يستثنى من ذلك ما دوّنه الراغب الأصبهاني في كتابه "تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين"، "فقد خصّصه لمبحث الإنسان، وفصّل فيه حقيقته في أبعادها المختلفة بتأصيل قرآني، فيما يُعدّ طفرة في سياق الثقافة الإسلامية في هذا الموضوع.

[3] راجع شرحاً أوسع لهذه الفكرة في مقدّمة تحقيقنا لكتاب "تفصيل النّشأتين وتحصيل السعادتين" للراغب الأصبهاني (ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م).

[4] يمكن أن نذكر في هذا الخصوص ما ورد في المدوّنة العقدية الواسعة للقاضي عبد الجبّار المسمّاة بـ "المغني في أبواب التوحيد والعدل»، وذلك في أجزاء ومواطن متعدّدة، وخاصّة في الجزء ١١/ ٣٠٩ وما بعدها (ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م). ونذكر أيضا ما دوّنه الصّوفية في مبحث الإنسان الكامل، وما دوّنه الفلاسفة في مبحث النّفس.

[5] شعوراً منّا بأهمّية هذا الأمر كانت لنا محاولة في إنشاء سلسلة من خمس حلقات بعنوان: "الإنسان في العقيدة الإسلامية، وقد نشرت منها حلقتان: (١) مبدأ الإنسان (٢) قيمة الإنسان" (ط دار الزيتونة للنشر، الرباط ١٩٩٦)، وفي الطريق إلى النشر إن شاء الله الحلقات الثلاث الباقية، وهي: (٣) قَوام الإنسان (٤) مهمّة

الإنسان (٥) مصير الإنسان. ونذكر في هذا الصّدد أنّ دراسات عدّة بدأت منذ زمن تظهر في الثقافة الإسلامية تندرج في هذا السياق، ممّا يدلّ على أنّ علماً جديداً هو علم الإنسان من منظور إسلامي في طور التشكّل، ونذكر من ذلك على سبيل المثال: الإنسان في القرآن للعقّاد، ومقال في الإنسان لعائشة عبد الرحمن، وآدم عليه السلام للبهي الخولي، والإنسان والقرآن لمرتضى مطهّري، والإنسان والكون لأبي الوفا الغنيمي التفتازاني، وحقيقة الإنسان بين القرآن وتصوّر العلوم لأبي اليزيد العجمي.

[6] راجع تلك المواطن في: النورسي – كلّيات رسائل النّور، وهي في أربعة أجزاء: (١) الكلمات، (٢) المكتوبات، (٣) اللّمعات، (٤) الشعاعات: الفهارس، مادّة: إنسان (ترجمة إحسان قاسم، نشر دار سوزلر للنشر، استانبول، ١٩٩٢م).

[7] راجع في هذا المنهج المقارن على سبيل المثال: الكلمات، النورسي، ص ٦٤٠ وما بعدها.

[8] الكلمات، النورسي، ص ٦٤١.

[9] المصدر نفسه، ص ٦٤٢.

[10] المصدر نفسه، ص ٦٣٩.

[11] المصدر نفسه، ص ٦٤٢.

[12] المصدر نفسه، ص ٦٤٢.

[13] المصدر نفسه، ص ٦٤٤.

[14] الشعاعات، النورسي، ص، ١٨ وراجع أيضاً: المكتوبات، ص ٤٢٦ – ٤٧٣، واللّمعات، ص ١٥٣. اللّمعات، النورسي، ص ٢٥٨.

[15] الكلمات، النورسي، ص ٢٠.

[16] المصدر نفسه، ص ١٣٦.

[17] الشعاعات، النورسي، ص، ٨١ وراجع أيضاً فكرة الإنسان العالم الصّغير ودلالاتها على قيمة الإنسان في: اللمعات، ص، ١٩، ١٢٧، ٤٧٣، ٥٠٨ والشعاعات، ص ٦٤٥ –، ٧٠٢ والمكتوبات، ص ٣٠١.

[18] الكلمات، النورسي، ص ١٣٦.

[19] الشعاعات، النورسي، ص ٣٦٨.

[20] المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

[21] اللمعات، النورسي، ص ٥٩٨.

[22] الشعاعات، النورسي، ص ٢٧٨.

[23] الشعاعات، النورسي، ص ٣٧٩.

منهجيّة الاهتمام بعبادة التّعمير
سؤال استعادة الأمة وظيفة الشهادة
عند الأستاذ النورسي

أ. عبد الرحمن طيبي[1]

مدخل

يكفي فقط حمل همّ المحاولة.. محاولة المرور على شريط حياة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠م) لاستذكار المعطيات الزمانية والمكانية التي سبقت لحظة ميلاده، وواكبتها، بل وتلك التي رافقته إلى مماته، فجعله الله عاملا مهما من عوامل تجاوز الأمة نكباتها المعاصرة، ذلك أنّ الظروف التي واكبته في ضيقها وسعتها، دفعته إلى التعاطي الإيجابي مع مسائل الكون والوجود، فكان بمثابة درس استئناف عملي للتعامل مع معطيات الزمان والزمان بتعقيداتها النظرية والعملية، وفي الوقت نفسه كان درسا يمشي على الأرض في تثبيت الأمة على ميراثها، وأوّل الطريق الإقرار الواقعي بالحال التي وصلته الأمة في تخلّفها مشرقا ومغربا، فهي بالرغم من شساعة المكان (الممتد من الماء إلى الماء) أي من طنجة إلى جاكرتا على قول المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي (رحمه الله)،[2] وبالرغم من النور المستمد من قيمها الخالدة المنبثقة عن الإسلام، إلا أنّها حرمت نفسها، والإنسانية جمَعاء من العيش في ظلال هذه القيم الرفيعة، ولم يكن التقصير أو القصور خاصا بفئة دون أخرى، بل تتحمّل الأمة بكلّ مكوناتها تبعات التخلّف عن صناعة وعي إنساني وتحريكه وفق ما ينفع الإنسانية في حاضرها ومستقبلها، فهي في وضع تعيس لا يسرّ[3] وفق ما قرر كثير من أهل الفكر والذكر وعلى رأسهم الأستاذ بديع الزمان النورسي (رحمه الله).

كان للظروف الحضارية والتربوية والاجتماعية فضلا عن السياسية -المأساوية بكل

معنى الكلمة- التي عاصرها الأستاذ بديع الزمان، أثر كبير في بروز جهوده بوصفها نقطة انعطاف في منحى سير الأمة الإسلامية، بل الإنسانية جمعاء، فبذل الأستاذ كل غال ونفيس لأجل استعادة الأمة إشعاعها على نفسها ثم على الإنسانية، وحاول جهده المساهمة في استعادة الأمة قيمتها وإشعاعها على الكون كلّه، والإنسان دوره في الحياة، مؤسسا تشخيصه للخلل وتقديمه للعلاج على ما جاء به الوحي الشريف،[4] فدقق الرجل في معرفة أسئلة الراهن، واقتراح الحلول العملية، إنقاذا للإيمان باعتباره مبدأً مركزيا في كل نهضة محتملة، فكانت رسائل النور مصدرا مهما في السعي نحو استعادة الأمة دورها الحضاري الطلائعي المنشود، مستنبطا هذه المعاني من القرآن الكريم، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾،البقرة:٣٠ قال فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ): ''الخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه... والخليفة اسم يصلح للواحد وللجمع، كما يصلح للذكر والأنثى...''[5] استثمر الأستاذ هذه المعاني وربط الآية بما قبلها وما بعدها، مؤكّدا أنّ البشر خليفة الأرض وحاكمها، قال الأستاذ بديع الزمان: ''**إنه لما كانت هذه الآيات في تعداد النعم العظام، وأشارت الأولى إلى أعظمها -من كون البشر نتيجة للخلقة وكون جميع ما في الأرض مسخراً له يتصرف فيها على ما يشاء- أشارت هذه إلى أن البشر خليفة الأرض وحاكمها**''،[6] فما بالك إذا كانت الأمة صاحبة الكتاب الذي حوى الآية السابقة أمة سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين ''**لأن المضاف إلى المعرفة معرفة بجهة والمنسوب إلى الشريف يتشرف**''،[7] ''(لأن المضاف إلى المعرفة) أي لأننا قد خُصصنا بالإضافة والانتساب إلى خير الرسل ذي الشهرة والمعرفة. والتخصيص بالإضافة إلى المعرفة وإن لم يكن معّرفاً للنكرة حقيقة، لكن يقربها إلى المعرفة ويشّرفها بها. نعم، لتلك الإضافة والانتساب صرنا خير أمة أخرجت للناس. والمنسوب إلى الشريف شريف''،[8] ولا يمكن لمن نُسِب إلى الشريف أن يكون شريفا إلا بالعمل بما كان به الشريف شريفا، ورأس ما تنال به تلك الرتبة، القيام بوظيفة الشهادة، فسؤال الشهادة أهم مدخل لاستعادة الأمة وظيفتها الحضارية المؤسسة على هدايات القرآن الكريم والسنة المطهّرة.

١- سؤال الشهادة:

مما لا شك فيه أنّ دارس وممحص الخبرة المعرفية التي ورّثها الأستاذ بديع الزمان يدرك بجلاء القضية المّركزية التي شغلته والهم المحوري الذي امتلك عليه أنفاسه،

كان رحمه الله مسكونا بالعمل على استعادة مجد هذه الأمة، والذي لن يكون إلا بتحقيقها الشهادة على الناس، كما كان متحققا في أول أمر هذه الأمة، لأن فعل إنقاذ الإيمان مقدمة لاستعادة دور الإنسان المسؤول المتحمل لأمانة التكليف في هذا الوجود، يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾،[البقرة:١٤٣] ويذكر الأستاذ بديع الزمان متسائلا في هذا المضمار بمعاني تنضح بالشعور بمرارة الوضع، وتؤرخ للبون الكبير بين واقع التديّن والأنموذج المطلوب، كما كانت رسائله في الوقت نفسه غنية بأمل الاستدراك، قال الأستاذ: ''فيا ترى هل يقبل عقل بأن يُترك هذا الإنسان الذي أصبح مكرّماً **بالخلافة والأمانة**، والذي **ارتقى إلى مرتبة القائد والشاهد على المخلوقات**، بتدخله في شؤون عبادة أغلب المخلوقات وتسبيحاته بإعلانه الوحدانية في ميادين المخلوقات الكثيرة وشهوده شؤون الربوبية الكلية... فهل يمكن أن يُترك هذا الإنسان، يذهب إلى القبر لينام هادئاً دون أن ينبّه ليُسأل عن كل صغيرة وكبيرة... كلاّ ثم كلاّ!''[9]

بيّن مما سلف تقريره أنّ عبارات الأستاذ غنية بالتذكير بوظيفة الشهادة، وتجاوز في العناية بها مستوى العبارة، فكانت نصوص رسائل النور طافحة بالإشارات إلى تجسيد مهمة الشهادة، فماذا قدّم الأستاذ بديع الزمان النورسي على مستوى الإشارة للاستعادة الإنسان المسلم وظيفة الشهادة القرآنية المتضمنة لمعاني التكريم بالخلافة وتحمل الأمانة لنيل الاستحقاق؟

وقبل الاسترسال حري بنا التنبيه إلى مقصدية لفظ ''السؤال''[10] في عنوان هذا البحث.

يعبر ''السؤال'' عن قلق وحيرة منهجيتين، مستمدة من الاستجابة المدروسة من الأستاذ بديع الزمان لأسئلة الراهن، والتي استدعت منه البحث عن الحلول الممكنة والمثلى لها، والتي تنتهي باجتماعها عند سؤال استعادة مرتبة الشهادة، عبر العودة بالأمة إلى سابق عهدها في الريادة على الأمم الأخرى بتحققها وتحقيقها لمفهوم الخيرية في ظلال أستاذية القرآن الكريم، وتكفي إطلالة سريعة على عدد مرات ورود لفظ ''السؤال'' مجردا دون تثنية أو جمع في صفحات كليات رسائل النور، ليتبين لنا ذلك الزخم الهائل منه في عدة مقامات، مقام التعليم والتوجيه، ومقام الرد والمنافحة، ومقام التقرير والإثبات، ومقام الاستنكار والإبطال وغيرها من المقامات، فعلى سبيل المثال فقط لا الحصر، ورد ذكره على اللفظ السابق أكثر من ٦٣ مرة في الكلمات،[11]

وأكثر من ٩٠ مرة في المكتوبات،[12] ونفس الأمر يتكرر مع باقي الأسفار المكونة لكليات رسائل النور، والقضية ليست إحصائيات جافة، بل نستمد منها أهمية الشهادة في التأسيس للبعث الحضاري المنشود، أوّلها أنّ العمل على إنقاذ الإيمان يقوم على استعادة وظيفة الشهادة.

أ- بوابة إنقاذ الإيمان والعلاقة بالشهود:

يفرض بيان العلاقة القوية بين إنقاذ الإيمان واستعادة وظيفة الشهادة، التنبيه إلى أن مقصود هذا البحث التركيز على إيحاءات الأفكار المركزية والإشكالات الكبرى التي كان الأستاذ بديع الزمان عنها يكتب وبها يعظ وينصح ويوجّه ويربي، والتي جمعت في مجموعته الموسومة برسائل النور، ومضامينها تؤكّد انسجامها مع العمل الجدي والاجتهاد المستمر لأجل استعادة الأمّة مرتبة الشهادة القرآنية.

تقيّدت في البحث بنوع من القراءة الموجهة وفق معطيات زمان ومكان الأستاذ بديع الزمان، معطيات عايشها، ومنها شخّص العلل التي أصابت الأمة في تدينها ودنياها، وبناء عليها اقترح الحلول المثلى لها، ونصوص الرجل ناطقة بالمعاني التي أشرنا إليها، فهي تؤرخ لسيرة رجل فذ، فقد مثّلت جهوده بحق منعطفا حسما في تاريخ الأمة المسلمة، فقد خلخلت مساعيه الرتابة التي أصابت دافعية حركة الأمة بالخلل ثم بالعطل، كما أنّنا لا نعدم نصوصا أخرى، تنتهي بنا إلى المقصد نفسه عند استنطاقها، ويتجلى منها أنّ وظيفة الشهود القرآني لا مطمع في تحقيقها بغير إنقاذ الإيمان، يشهد لها قول الأستاذ بديع الزمان واصفا الحال ومشخصا الوضع ومبينا الحلول: ''**أيها التعساء!** ماذا فعلت بكم، وما الذي أفعله بحقكم؟ إنني أسعى **لإنقاذ إيمانكم** وإبلاغكم السعادة الأبدية.''[13]

وإنقاذ الإيمان لتحقيق السعادة الأبدية التي لا تتحقق دون استعادة مرتبة الشهادة، إيحاء قوي وتوجيه صارخ لذوي العقول والألباب إلى استيعاب عملية الإنقاذ، لأن السعادة الأبدية في أبجديات الأستاذ بديع الزمان لن تكون إلا عبر الاقتداء بأنموذج الإنسان الكامل المتمثل في أفضل البشر سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، العامل المهم في معادلة الشهادة والمجسد لها أنموذجا حيا على البسيطة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾،[البقرة:١٤٣] قال الأستاذ بديع الزمان: ''وحيث إنّ أشرف الموجودات هم ذوو الحياة، وأنبل الأحياء هم ذوو الشعور، وأكرم ذوي الشعور هم بنو آدم الحقيقيون الكاملون، لذا

فالذي أدّى من بين بني الإنسان المكرم تلك الوظائف المذكورة آنفاً وأعطى حقها من الأداء في أفضل صورة وأعظم مرتبة من مراتب الأداء، لا ريب، أنه سيعرج - بالمعراج العظيم - فيكون قاب قوسين أو أدنى، وسيطرق باب السعادة الأبدية وسيفتح خزائن الرحمة الواسعة، وسيرى حقائق الإيمان الغيبية رؤية شهود، ومن ذا يكون غير ذلكم النبي الكريم ﷺ ؟''[14]

وفي خضم المضامين الثقيلة التي تتضمنها عملية إنقاذ الإيمان –مع استصحاب فكرة استرجاع مرتبة الشهادة–، إحالة قوية من الأستاذ بديع الزمان إلى مضامين حضارية تتجلى في تحليل معادلة الإنقاذ:

ب- فعل الإنقاذ:

هو فعل التشخيص، فبالتوجيه إلى هذه الفكرة تنبيه قوي إلى عاملين أساسيين من عوامل البناء الحضاري هما الإنسان والزمن –فضلا عن عامل التراب أو المكان المتضمن فيهما– يتعرضهما الخطر الشديد، أو يكاد المقصود بعملية الإنقاذ يشارف على الهلاك، وبالتالي فعل الإنقاذ إقرار بحالة الخطر المعيشة، والتعطل عن أداء الدور المطلوب شرعا وعقلا، أي أنّ الحال، على وفق ما ذكر سابقا في مستهل البحث، لا يليق به إلا وصف التعاسة وعدم السرور، أو كما عبّر عنه أحد المفكرين الجزائريين بـ ''الغثائية الحضارية المقرفة التي تطبع حياة الأمة''،[15] أي بالملخص المفيد أن فعل الإنقاذ يستهدف الإنسان، ويسارع الزمن بالبحث عن الحلول والبدائل، ''ليس زماننا زمن طريقة''[16] لاستعادة الدور المطلوب، والفعالية المنشودة، والتي لنا منها الأنموذج الحي والمثال الواقع في إحدى لحظات الزمن السابق، وقد عبر عنها الأستاذ بديع الزمان بالتعاسة لما وصف الغافلين عن هذا الأمر بالتعساء،[17] كما أن الإيحاء بالخطر يتضمن توجيها لطيفا إلى اشتراك قوى داخلية وأخرى خارجية في رعاية هذا الخطر وسقي عوده للقضاء على الإيمان بمشمولاته ودفعه إلى الانسحاب من جميع مناحي الحياة، قال الأستاذ بديع الزمان: ''إن الذي يواكب خيالاً زمن تأليف رسائل النور ونشرها يجد أن الأمة، **أمة الإسلام تمر في أحلك فترات حياتها**، حيث تجتاح سيول الظلمات، ظلمات الفتن العاتية أرجاء العالم الإسلامي كافة، وتغزو الشبهات والأفكار الباطلة العقول والقلوب من كل صوب، فأظلمت النفوس واختنقت الأرواح حتى انقطع الرجاء...''[18]

ج- وسائل الإنقاذ:

لا تختلف عن الوسائل التي كانت سببا في تحقيق مرتبة الشهادة للأمة في زمن سابق، قال الأستاذ بديع الزمان: ''إن رسائل النور برهان للقرآن الكريم وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس الملهمة من كنز العلم، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته''،[19] وبالتالي تحقيق مرتبة الشهادة باستخدام وسائل الإنقاذ التي نبّه إليها الوحي لنكون الأمة الوسط[20] كما جاء في الآية السابقة، ولا يتأتى ذلك إلا بالوحي، أو بالأحرى بالقرآن الكريم، قال الأستاذ بديع الزمان: ''وإذا قيل كيف تعد رسائل النور تفسيرا للقرآن مع أنها لا تشبه التفاسير المتداولة، فالجواب أن التفسير نوعان: هما تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة، أو **إثبات الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم إثباتا مدعما بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة**، وقد ثبت بشهادة ألوف من العلماء المحققين أن رسائل النور هي من القسم الثاني من التفسير، بل من أثمنه وأسطعه وأكمله وأكثره قيمة.''[21] فهو يخرج بها عن التفسير الكلاسيكي –إذا صح التعبير- والمعروف في غالب مدونات هذا العلم، إلى التفسير الهدائي المستصحب للبعد الكلي للوحي ممثلا في الكتاب والسنة، ''هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسّر كتاب العالم... وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض... وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المُضْمَرة في سطور الحادثات... وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة... وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية... وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي... وكذا هو **خريطة للعالم الأخروي**... وكذا هو قولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهان قاطعٌ وترجمان ساطعٌ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه... وكذا هو مربٍّ للعالم الإنساني... وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية... وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خُلِقَ البشرُ له... وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل. حتى إنه أبرز لمشرب كل واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلكِ كل واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك

المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل".[22] إن إطلاق لفظ القرآن الكريم كثيرا ما يفيد في سياقات رسائل النور: القرآن والسنة الشريفة، وفي مرات يصلح أن تضاف إليها الخبرة المعرفية الإسلامية والإنسانية من المعارف والعلوم في مقام التأييد كما جاء في قوله السابق "مدعما بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة" وغيرها من التصريحات في مواضع أخرى من رسائل النور، ولا يخفى في هذا المضمار إيحاء الهدائية إلى الدور الحقيقي للإنسان في هذا الوجود الذي لا يخرج عن تحمل مسؤولية أمانة التكليف للقيام بدور الخلافة والعمران، مع استحضار المعية الإلهية منطلقا ومصبا "ثم أجابوا إظهار ذلك الغني المطلق سبحانه ثروتَه التي لا تنفد ورحمته التي وسعت كل شيء، بالدعاء الملح والسؤال الجاد، بإظهار فقرهم وحاجتهم قائلين: إياك نستعين"[23] لتحقيق الوسطية القرآنية الموصلة أو بالأحرى التي يترتب عنها استعادة مرتبة الشهادة، كما لمّح إلى ذلك في أقوال له سابقة مقيدة في بدايات هذه الورقة.

د ـ المنقِذ والمنقَذ:

المنقذ –بقاف مكسورة– إنسان مؤيد بنور الوحي، ومؤزر بالنماذج التاريخية المتحققة لسلف الأمة، ومدعم بمعارف التحكم وفقه استحقاقات اللحظة، ومسكون بهمّ استعادة المؤسسات المجتمعية ابتداء من الأسرة البسيطة كمكون أساسي لمسمى الأمة لدورها في صناعة الإنسان الرسالي، كما فعلها من قبل سيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ، قال الأستاذ بديع الزمان: "فهو إمام جميع المرسلين، وقرة عين كل الأصفياء، وسلطان جميع المرشدين، وزبدة كل المختارين والمقربين"[24] والمنقذ –بقاف مفتوحة– إنسان مكبّل بأغلال الشهوات، ومقيد بنير الابتعاد عن الهدي الرباني، بالتخلي عن أداء دور الخلافة في الأرض وعمارتها، سواء إنسان الدائرة الإسلامية أو من يصنف خارجها، ولم يهنأ للأستاذ بديع الزمان بال بغير التذكير والنصح الدائبين المستمرين، فلم يفتر ما وسعته أيامه عن التذكير وفق هذا المنوال، منها قوله: "أتحسبون أن "مهمة حياتكم" محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أُودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسسة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَى وكلا!!"[25]، ولا يليق في هذا المقام لتبيان تعدية العلاقة بين الأول والثاني غير استعمال الأول مع الثاني الأسلوب القرآني

المتمثل في منهج التخلية والتحلية، قال الأستاذ: ''إن أثر القرآن في كل هذا التقدم (الحضاري الإسلامي) لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة.''[26]

وكلّ ذلك قائم على التحقق بوظيفة الشهادة في النفس والروح والعقل وسائر الأعضاء، ثم السعي إلى القيام بمتطلبات الشهادة على الناس.

هـ ـ غايات الإنقاذ:

غايات الإنقاذ واضحة جلية كما عبّر عنها الأستاذ بديع الزمان في مواضع عديدة من كليات رسائل النور، خلاصتها الانتقال من واقع التعاسة والتعساء إلى واقع السعادة والسعداء، فيصبح الإنسان قرآنا يمشي على الأرض ''فإذا نظرتَ إلى ذلك القرآن الكريم ببصيرة قلب سليم، ترى أن جهاته الست ساطعة نيّرة، وشفافة رائقة، بحيث لا يمكن لظلمةٍ ولا لضلالة ولا لشبهة ولا لحيلة أيّاً كانت أن ترى لها شقاً وفرجة للدخول في رحابه المقدس قط، حيث إن عليه: شارة الإعجاز، تحته: البرهان والدليل، خلفه ''نقطة استناده'': الوحي الرباني المحض، أمامه: **سعادة الدارين، يمينه: تصديق العقل باستنطاقه، شماله: تثبيت تسليم الوجدان باستشهاده. داخله: هداية رحمانية خالصة بالبداهة، فوقه: أنوار إيمانية خالصة بالمشاهدة. ثماره: الأصفياء والمحققون والأولياء والصديقون المتحلّون بكمالات الإنسانية بعين اليقين.**''[27]، ويفصلها في مكان آخر أنها طريق معرّفة بالواجب، ومن عرف ما يجب عليه أدى دوره ''الكون الذي يراه الغافلون فضاء موحشاً بلا نهاية، وجمادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق والآلام، يبينه القرآن: كتاباً بليغاً، كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسقة عمرها الرحمن الرحيم، ومعرضاً بديعاً أقامه الرب الكريم لإشهار مصنوعاته. فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخر، وكل جزء يغيث الآخر ويعينه، كأنه يحاوره محاورة ودية صميمة، فكل شيء مسخر وكل شيء أنيط به وظيفة وواجب.. وهكذا يلقي القرآن دروس الحكمة الحقيقية والعلم المنور إلى الإنس والجن والملائكة كافة...''[28]

٢. تجليات سؤال الشهادة:

وزيادة في توضيح هذا المسعى، مسعى إنقاذ الإيمان وعلاقته بالعمل على استعادة

الأمة لوظيفة الشهادة على الأمم الأخرى، يتطلب المقام التطرق إلى تجليات سؤال الشهادة[29] وفق مسلك الإشارة، وضمن أدبيات الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، والتي يمكن التطرق إلى بعضها فيما الآتي:

أ- مقصدية الخدمة:

كثيرا ما يوظّف الأستاذ بديع الزمان من غير ملل مفهوم خدمة الإيمان وخدمة القرآن، والتي تحمل مضامين التضحية، والهم المشترك من أجل الوصول إلى غايات معينة، حتى وصل به الأمر حدّ الاستعداد للتضحية بالجنة من أجل إسعاد الآخرين عبر إنقاذ إيمانهم، قرر هذه المعاني في قوله: ''سعيت بكل ما أملك من وقوة لتوفير خدمة إيمانية لأهل الإيمان، وربما كنت مستعداً لا للتضحية بالمراتب الدنيوية الفانية وحدها بل - إن لزم الأمر -بالتضحية حتى بالمراتب الأخروية الباقية لحياتي في الآخرة، مع أن الجميع يسعون للحصول على هذه المراتب، ويعلم أصدقائي المقربون بأنني- إن لزم الأمر **أقبل ترك الجنة والدخول إلى جهنم من أجل أن أكون وسيلة لإنقاذ بعض المساكين من أهل الإيمان**''.[30]

هذه الخدمة التي لن تتحقق مضامينها دون السعي بإلحاح وجهد من أجل مقاربة مفهوم الرسالة المتجسدة في شخص سيدنا محمد ﷺ، واستحضار مسار دعوته المليء بالمعاني والعبر، والتي جعلت من هذه الأمة في ظرف وجيز أمة شاهدة على الأمم، والخدمة التي عاش لها الأستاذ بديع الزمان وعايشها وكابدها، تصب في منحى استرجاع الإرث المعنوي والمادي لهذه الأمة من باب تبرئة الذمتين الشرعية والحضارية، قال الأستاذ: ''وحيث إن الإيمان وسيلة الفوز بالحياة الأبدية ومفتاح السعادة الخالدة، فينبغي إذاً السعي لأجله. بيد أني عالم ديني، مكلف شرعاً بإفادة الناس، لذا أريد أن أخدمهم من هذه الناحية أيضاً. **إلاّ أن هذه الخدمة تعود بالنفع إلى الحياة الاجتماعية والدنيوية، وهذه ما لا أقدر عليها، فضلاً عن أنه يتعذر القيام بعمل سليم صحيح في زمن عاصف، لذا تخليت عن هذه الجهة وفضّلت عليها العمل في خدمة الإيمان التي هي أهم خدمة وألزمها وأسلمها. وقد تركت الباب مفتوحاً ليصل إلى الآخرين ما كسبته لنفسي من حقائق الإيمان وما جربته في نفسي من أدوية معنوية. لعلّ الله يقبل هذه الخدمة ويجعلها كفّارة لذنوب سابقة.**''[31]

مضامين مفهوم فلسفة الخدمة:

مفهوم فلسفة الخدمة ومضامينها تستدعي الخوض في أمرين:

الأمر الأول: مركزية الإنسان في عملية الشهادة.

الأكيد أن تحميل الإنسان أمانة التكليف والخلافة في الكون له دلالته في هذا الباب، فلا يمكن المكابرة وغمطه حقه أو الطغيان به تعديا على طوره الذي خلقه الله له، فلا هو بالحقير الوضيع، ولا هو بالمتربّب –من الربوبية- المنازع بلا حول ولا قوة لخالقه صاحب الحول والقوة، والأمر والنهي، فهو إنسان مكرم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾،الإسراء:٧٠ وهو المخاطب بالخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾البقرة:٣٠ ف ''الإنسان يمثل أعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكمل وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضع خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً''[32]، فبمعرفة القيمة الحقيقية لهذا الإنسان ووظيفته في الوجود[33]، وعلاقته به تسهل عملية إدماجه في مسار استرجاع مرتبة الشهادة المفقودة، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾،الذاريات:٥٦ عبودية شعائر[34] وعبودية استخلاف.[35] كما أن ''الإنسان في هذا الكون أشبَه ما يكون بالطفل الضعيف المحبوب يحمل في ضعفِه قوةً كبيرةً وفي عجزه قدرةً عظيمة؛ لأنه بقوة ذلك الضعفِ وقدرةِ ذلك العجز سُخِّرت له هذه الموجوداتُ وانقادت. فإذا ما أدرك الإنسانُ ضعفَه ودعا ربَّه قولاً وحالاً وطوراً، وأدرك عجزَه فاستنجد واستغاث ربَّه، وأدّى الشكرَ والثناءَ على ذلك التسخير، فسيوفّق إلى مطلوبه وستخضع له مقاصدُه وتتحقق مآربُه.''[36]

الأمر الثاني: أهمية قيمة الحرية.

لن يُتنبه إلى مركزية الإنسان في عملية الشهادة دون التفطن إلى قيمة من القيم الراقية المتمثلة في مبدأ الحرية، تلك الحرية المنسجمة مع الفطرة الإنسانية، والتي تخدمها إبرازا ومحافظة، فمن الناحية الأولى نفض كل غبار أو شوائب تحول دونها، ومن الناحية الثانية تعهدها بالتزام نهج التوحيد، فهي حرية العبودية لمستحقها الواحد الأوحد من جعل من الإنسان خليفة في الأرض.

حتى أن الأستاذ بديع الزمان يبدي استعداده لقبول جوع دائم مقابل التمتع بالحرية

''ظلمي أن يردّوا عليّ حريتي ولا يمسوها بسوء. إنني أتمكن أن أعيش من دون طعام ولكني لا يمكن أن أعيش من دون حرية.''[37]

ويشرح المسلك السابق في ضرورة انسجام الحرية مع الالتزام بالأوامر والنواهي التي تعتبر في حد ذاتها إنقاذا للإيمان وتطويعا للكون بقوله: ''إن جني فوائد الحرية الحقة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستمداد من الإيمان؛ ذلك لأن من أراد العبودية الخالصة لرب العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبداً للعبيد. وحيث إن كل إنسان راعٍ في مُلكه وعالَمه فهو مكلّف بالجهاد الأكبر في عالمه الأصغر ومأمور بالتخلق بأخلاق النبي ﷺ وإحياء سنته الشريفة.''[38] لأن ''الحرية الخارجة عن دائرة الشرع، إنما هي استبداد أو أسرٌ بيد النفس الأمارة بالسوء، أو بهيمية أو وحشية.''[39]

ومن باب الحرية التي تمثل صورة من صور تجلي مفهوم الشهادة عبر فلسفة الخدمة التي يرتكز عليها فكر الأستاذ بديع الزمان يحمّل المسؤولية للمؤمنين تجاه من فقدوا حريّتهم بعبادتهم ''سوى الله'' بأنهم مطالبون بالعمل والسعي لمساعدتهم في استرجاع حريتهم، قال: ''إخراج آدم عليه السلام من الجنة، هو عين الحكمة ومحض الرحمة. كما إن إدخال الكفار جهنم حق وعدالة، مثلما جاء في ''الإشارة الثالثة من الكلمة العاشرة'' أن الكافر وإن عمل ذنباً في عمر قصير، إلاّ أن ذلك الذنب ينطوي على جناية لا نهاية لها؛ ذلك لأن الكفر تحقير للكائنات جميعاً وتهوين من شأنها.. وتكذيب لشهادة المصنوعات كلها للوحدانية.. وتزييف للأسماء الحسنى المشهودة جلواتها في مرايا الموجودات... ولهذا يلقى القهار الجليل، سلطان الموجودات، الكفارَ في جهنم ليخلدوا فيها، أخذاً لحقوق الموجودات كلها منهم.''[40] وبمفهوم المخالفة، من فرط في واجب تبيان الحق لهؤلاء فيتحمل مسؤولية يقتص منه على أساسها كما أن عقاب الكفار اقتصاص لهم لغمطهم حق واجب الوجود وحقوق من يتمتعون بحرية العبودية لله ﷻ من باب الواجب الوقتي ومسؤولية الشهادة الحضارية.

ج- دفع تشويش ما يمنع القيام بوظيفة الشهادة.

شاعت في عصر النورسي -تعبيرا عن دركات الانحطاط التي بلغتها الأمة- روح الاتكالية عن أداء الدور الرسالي بسبب التفاسير السيئة لمفهوم صاحب الوقت، وقرب خروج المهدي المنتظر ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا، مما دفع طبقة واسعة من المسلمين إلى نفض أيدهم من العمل والتفريط في الخيرية القرآنية المقترنة بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر لاستحقاق مرتبة الشهادة كما جاء في الوحي الشريف، حتى وصل الأمر بأحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر الراحل محمد الغزالي إلى التعبير عن هذا الوضع بأن المسلمين انتقلوا من درجة ترقب المهدي المنتظر إلى دركة ترقب المهدي غير المنتظر من الدجالين والمشعوذين، مما أشاع الاتكالية والخنوع،[41] اعتبر الأستاذ بديع الزمان فكرة المهدي في حد ذاتها دافعا قويا للاستمرار في العمل، ومعينا للاستمداد، ومانعا قويا من الاستقالة عن أداء الدور المطلوب في هذه الحياة، فكل مسلم يمتلك حظا من المهدوية التي تسعى لملء الأرض عدلا كما ملئت جورا، مساهمة في نهاية المطاف في استرجاع مرتبة الشهادة ''وأما المهدي فلتقوية القوة المعنوية وردّ اليأس عند استيلاء الضلالة، ولتشجيع ذوي الهمم المجدّدين في الانسلاك في سلك نوراني إمامُه ورأسُه المهدي رضي الله تعالى عنه. فهذه الحكمة تقتضي الإبهام ليُمكَن الانتظار في كلّ زمان.''[42]

فالانتظار في عرف الأستاذ بديع الزمان ليس انتظارا سلبيا قريبا من مفهوم السكون، بل هو انتظار إيجابي مفعم بالحركية وقوة الاندفاع ''إن كل وقت وكل عصر بحاجة إلى ''معنى'' المهدي الذي يكون أساساً للقوة المعنوية، وخلاصاً من اليأس. فيلزم أن يكون لكل عصر نصيب من هذا المعنى. وكذلك يجب أن يكون الناس في كل عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق وتقود تياراً عظيماً من الشر، وذلك لئلا يرتخي عنانُ النفس بالتسيّب وعدم المبالاة.''[43]

ومن هذا الباب يفسر الأستاذ بديع الزمان المسألة، محاولا استجلاء حكمة تغييب وقت ظهور المهدي بأنه لا ينفك عن الحفاظ على استمرارية الهم الرسالي في المؤمنين ''فلو كانت أوقات ظهور المهدي والدجال وأمثالهما من الأشخاص معينةً لضاعت مصلحة الإرشاد والتوجيه.''[44]

وفي هذا المقام جدير التنبيه إلى فكرة راقية لفت إليها الأستاذ بديع الزمان الأنظار، وهي العلاقة بين المهدوية كتجسد في فرد واحد، وروح الجماعة في إجابته عن تساؤل حول الرابط بين العصر الذي نعيشه والذي هو عصر الجماعة لا الفرد، وبين المهدوية التي تعتبر مجسدة في فرد واحد حسب الآثار الواردة في هذا الباب، ملمحا إلى ذلك الدور التكاملي، وكأنه بأداء كل فرد لدوره الرسالي سيكون عاملا مساعدا، أو بما يقرب لفلسفة التهيئة، من البواكير إلى النهايات العظمى.[45]

كما أنه في مقابل استثمار دافعية المهدوية لاستعادة مرتبة الشهادة زاوجها الأستاذ

بديع الزمان بدافعية أخرى، هي دافعية الأنموذج السابق المتحقق، والذي يجعل عملية الاستعادة أسهل بكثير من عملية البناء من عدم، وفق ما قام بذلك النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالتاريخ يحفظ لنا أنباء تمكن هذه الأمة من مرتبة الشهادة لأزمنة عديدة، كان التوحيد جوهر الإنسانية خلالها، وأمة الإسلام الشاهدة على الأمم، قال الأستاذ بديع الزمان ''فلنرجع القهقرى، ولننظر عصراً عصراً، كيف اخضرت تلك العصور واستفاضت من فيض هذا العصر؟ نعم، ترى كل عصر تمر عليه قد انفتحت أزاهيرُه بشمس عصر السعادة، وأثمر كلُ عصر من أمثال أبي حنيفة والشافعي و... وجنيد والشيخ عبد القادر الكيلاني... والإمام الغزالي والشاه النقشبندي والإمام الرباني ونظائرهم ألوف ثمراتٍ منوراتٍ من فيض هداية ذلك الشخص النوراني...''،[46] حيث انتقلت بهم الأمة من مكان إلى آخر وارتقت من درجة إلى أخرى كما انتقلت زمن الصحابة والتابعين فقد ''كانوا مغمورين في ظلمة عصر ''الفترة''، فصاروا في زمن يسير أساتذة مرشدين وسياسيين وحكاماً عادلين لأرقى الأمم حضارة وعلماً واجتماعاً وسياسةً، فحكموا العالم شرقاً وغرباً ورفرفت رايات عدالتهم براً وبحراً.''[47]

٣ ـ فضاء الشهادة ومصادر بعثها:

لا مراء في أن العمل على استعادة مرتبة الشهادة لا يكون إلا في هذه الأرض، كل الأرض من دون استثناء جزء منها؛ فالأصل أن تكون فضاء توجّه المسلمين بالتبليغ والإصلاح، لأنّها جُعِلت مسخّرة للإنسان، وما دامت كذلك فهي والإنسان مشتركان في المأتى والمصير، فكلاهما مخلوق لله ﷻ، والثاني مطية الإنسان للفوز بالآخرة، فالمكان هو مجال النشاط، ودافعية المكان لاسترجاع مرتبة الشهادة في فكر الأستاذ بديع الزمان تتجلى في الآتي:

أ ـ الأرض مكان العبادة:

يؤكّد الأستاذ على أنّ ''الأرض مائدة رحمانية أقيمت تكريماً للإنسان''[48]، وهذه المائدة الرحمانية يجب أن تستعمل فيما خلقت له بعيدا عن كل انحراف قد يتطرق إلى وظيفتها، ومصدر ما يجعله الأرض مستعملة فيما خلقت له ''توحيد القبلة'' باتباع المنهج الحق، منهج صاحب الفضل في تكريم الإنسان بالخلافة وعمارة المكان الذي عبّر عنه أكثر من واحد بالقرآن المسطور الذي وافقه القرآن المنظور (الكون)، قال الأستاذ بديع الزمان ''فَخَطَرَ على قلب ذلك السعيد القديم الممخض بالجروح - ما في مكتوبات ''الإمام الرباني'' من أمره له غيباً: ''وحِّد القبلة'' أي أن الأستاذ الحقيقي

إنما هو القرآن ليس إلاّ، وأن توحيد القبلة إنما يكون بأستاذية القرآن فقط...''[49] على اعتبار ثقل المسؤولية لأن الذي ''منحكم من الشجر الثمرَ والنار، ومن الأعشاب الرزقَ والحبوب، ومن التراب الحبوبَ والنباتات، **قد جعل لكم الأرض مهداً**، فيها جميع أرزاقكم، والعالم قصراً فيه جميع لوازم حياتكم، فهل يمكن أن يترككم سدىً فتفروا منه، وتختفوا عنه في العدم؟ فلا يمكن أن تكونوا سدىً فتدخلوا القبر وتناموا براحة دون سؤال عما كسبتم ودون إحيائكم؟''[50]

ووحدة القبلة بدلالتها المعنوية عبر وحدة منهج السير في استعادة رتبة الشهود من خلال وحدة المكان في الاشتراك في أصل الخلقة مع الإنسان ''الحدوث''، والإنسان من تراب، ووحدة قبلة التوحيد تتطلب أيضا في فكر الأستاذ بديع الزمان العمل على وحدة الأمة من أجل أداء هذه الأمة رسالتها المتجلية في وظيفة الشهادة.

قال الأستاذ: ''إن تباين الأفكار هذا قد هزّ أساس الأخلاق الإسلامية وفرّق اتحاد الأمة، وأخّرنا عن ركب الحضارة، لأن أحدهم يكفّر الآخر ويضلله، بينما الآخر يعدّ الأول جاهلاً لا يوثق به. وهكذا ساد الإفراط والتفريط. وعلاج هذا الداء هو الصلح النابع من توحيد الأفكار، وربط العلاقات ووصلها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافح الجميع، ويتفقوا جميعاً لئلا يُخلّوا بنظام الرقي''،[51] لأن فائدة استعادة الأمة لمرتبة الشهادة لن يعود نفعها على أمة الإسلام فقط بل يشع نورها على الإنسانية جمعاء عبر نظام الرقي هذا.

ب- هجرة المكان:

يتطلب النظر إلى المكان كمحل للنشاط وفضاء تتحقق فيه الوحدة والتوحيد التفكير في الهجرة من مكان إلى مكان آخر تحقيقا للمقاصد المشار إليها، ليس تفريطا في المكان المهاجر منه، بقدر ما يندرج في إطار محاولة إنقاذه للعودة به إلى وظيفته الأساسية التي خلق لها، ولهجرة المكان دافعية خاصة لتحقيق المقاصد والغايات عبر الشعور بمركزية الإنسان وقيمة الحرية وتقدير المسؤولية، والاستمداد من معاني المهدوية، والتسلي بالنماذج السابقة، قال الأستاذ بديع الزمان ''وبعد أن تلقيت هذا التنبيه القرآني، باتت تلك المقبرة عندي مؤنسة أكثر من إستانبول نفسها، وأصبحت الخلوة والعزلة عندي أكثر لطافة من المعاشرة والمؤانسة، مما حدا بي أن أجد مكاناً للعزلة في صارى ير على البسفور. وأصبح الشيخ الگيلاني رضي الله عنه أستاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه فتوح الغيب، وصار الإمام الرباني رضي الله عنه كذلك بمثابة

أستاذ أنيس ورؤوف شفيق بكتابه مكتوبات فأصبحت راضياً كلياً وممتنّاً من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومتعها الزائفة، ومن إنسلالي من الحياة الاجتماعية وانسحابي منها، فشكرت الله على ذلك كثيراً.''[52] كما تعتبر فرصة لائقة للبحث في مواطن الخلل الذي أبعدنا أو أقعدنا عن أداء الوظيفة، والتفكير الجدي في سبل الاسترجاع، لأن الغربة المذمومة هي العيش وسط الأحياء بلا غاية ولا هدف ولا اهتمام بأمور المسلمين بل والإنسانية جمعاء، لهذا كانت الهجرة سعيا لاسترجاع وظيفة الشهادة وليس فرارا منها كما يتبادر من أوّل وهلة.

ج- المسؤولية الوقتية:

يرتكز الأستاذ بديع الزمان في هذا المقام على واجب الوقت، أي أن عدم أداء البعض لواجباتهم في هذا الزمن أو الزمن الذي سبقه لا يعفيه وأهل زمانه من مسؤولية العمل على استعادة رتبة الشهادة على الناس، قال النورسي: ''مالي وللناس، فكل الناس خائرون مثلي، فيتخلى عن الشهامة الإيمانية ويترك العمل الجاد للإسلام''،[53] وزيادة في إيضاح الفكرة لا غرو من الإحالة على لفتة من لفتات أحد المجددين في الفكر الإسلامي عند وقوفه مع الآية القرآنية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة:١٣٤،١٤١] حيث استفاد منها بطلان التقليد من باب تحمل كل جيل لمسؤولياته، فضلا عن عدم إثابة الأبناء عن طاعة الآباء،[54] على أساس المسؤولية الوقتية، فلكل جيل حظه من العمل سواء للحفاظ على مرتبة الشهود أو العمل على استعادتها.

خاتمة:

لن نعدم حيلة في الدلالة على أن عمل الأستاذ بديع الزمان لم يخل من التصريح فضلا عن التلميح إلى ضرورة استعادة مرتبة الشهادة، لاسيما على مستوى الأفكار لمركزية المبثوثة في خبرته المعرفية على ضرورة، وتشهد لها عناوين كليات رسائل النور[55] وإن لم يتسع لعرضها تفصيلا، رأس ما تقوم عليه وترمي إلى تحقيقه رتبة الشهادة التحقق بالإيمان في شعاب الحياة، فالإيمان ليس كلاما يلاك ويمضغ ثم يرمى، بل هو حقيقة قلبية وقناعة عقلية وتمثّل بسائر الأعضاء، كلّ ذلك لأجل استرداد المؤمن وظيفة الشهادة على الناس.

لن نختم هذه الورقة دون الإشارة إلى الخلفية النظرية لفكرة ''إنقاذ الإيمان''، عمدة هذا البحث، حيث لم يوظف الأستاذ بديع الزمان عبارة ''إنقاذ الإسلام'' مثلا،

وفي هذا إشارة لطيفة إلى حديث جبريل الشهير الذي أتى فيه يعلم الناس دينهم والمعروف بحديث الإسلام والإيمان والإحسان،[56] فبحق الإيمان يعبّر عن المعتقد أو الدافع النظري للإسلام الذي يعتبر انعكاسا لهذا الإيمان عبر أداء الشعائر، في حين يمكن اعتبار مرتبة الإحسان ''أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك'' مقاربة لبوابة مرتبة الشهادة، فالإيمان هو المحرك والدافع الأكبر لاستعادة مرتبة الشهادة، وكل ما سبق من تفصيلات يصب في هذا المنحى.

* * *

الهوامش:

[1] أ. عبد الرحمن طيبي: جامعة الجزائر، رئيس تحرير يومية الحوار.

[2] انظر: بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط ٤، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٤٠٤-١٩٨٤، ص ١٠٠.

[3] Al Faruqi, Ismail Raji, AL TAWHID: Its Implications for Thought and Life, iiit Virginia, U S A, iiph Riyadh, Saudi Arabia, third edition, 1416-1995, p xiii

[4] المقصود بالوحي في هذا السياق بالذات القرآن الكريم والسنة والشريفة، والخبرة المعرفية الإسلامية التي ساهمت في صناعة أنموذج الإنسان المسؤول على عمارة الأرض في ظلال التوحيد.

[5] الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط ٠١-١٤٠١-١٩٨١ دار الفكر بيروت لبنان، ج ٢ ص ١٨٠-١٨١.

[6] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط ٣، ٢٠٠٢، ص ٢٣٣.

[7] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، صيقل الإسلام، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، ط ٣، القاهرة، مصر ١٩٩٥، ص ١٧١.

[8] النورسي، صيقل الإسلام، م، س، هامش ٢ ص ١٧١.١٠٨

[9] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط ٣، ٢٠٠٠، ص ٨٣.

[10] سأل السُّؤْل ما يسأله الإنسان وقرئ ''أوتيت سؤلك يا موسى'' بالهمز وغيره، وسأله الشيء سؤالا ومسألة... قال الأخفش: يقال خرجنا نسأل عن فلان وفي فلان... الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، رتبه: محمود خاطر، دار الفكر، بيروت، لبنان، د، ت ص ٢٨١.

وجاء أيضا: سألته الشيء استعطيته... وسألته عن الشيء استخبرته... قال ابن الأثير السؤال في كتاب الله والحديث نوعان أحدهما ما كان على وجه التبيين والتعلم مما تمس الحاجة إليه، فهو مباح أو مندوب أو مأمور به، والآخر ما كان على طريق التكلف والتعنت، فهو مكروه ومنهي عنه.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، د،ت، مجلد: ٣ ص ١٩٠٧.

[11] انظر: النورسي، الكلمات، م، س.

[12] انظر: النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، المكتوبات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط ٣، ٢٠٠١.

[13] النورسي، بديع الزمان، كليات رسائل النور، المكتوبات، م، س، ص ٩٥.

[14] النورسي، الكلمات، م،س، ص ٩٥- النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، الشعاعات، ترجمة:

إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة مصر، ط ٢، ١٩٩٣، ص ٥٠١.

[15] برغوث، الطيب، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط ٠٢، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ص ٠٩.

[16] النورسي، المكتوبات، م، س، ص ٧٩.

[17] انظر: المرجع السابق، ص ٦٩١.

[18] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٨٩٨.

[19] المرجع السابق، ص ٤١٩.

[20] ''وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا'' [البقرة: ١٤٣]، ''والوسط هو العدل... وهو الخيار والخيرية... وفيه... خطاب لجميع الأمة أولها وآخرها... أمة وسطا فعبر عنهم بلفظ النكرة ولا شك أن هذا يتناول أهل كل عصر...'' راجع: الرازي، مفاتيح الغيب، م، س، ج ٤، ص ١٠٧-١٠٨-١١٠-١١١.

[21] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٦٩١.

[22] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٢٦٤.

[23] المرجع السابق، ص ١٣٥.

[24] المرجع السابق، ص ٦٣.

[25] المرجع السابق، ص ١٣٦.

[26] النورسي، إشارات الإعجاز، م، س، ص ٢٨٠.

[27] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٣٤٥.

[28] المرجع السابق، ص ٥٢٧.

[29] ''أداء هذه الشهادة إنما يكون في الدنيا، وتقريره أن الشهادة والمشاهدة والشهود هو الرؤية، يقال شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته، ولما كان بين الإبصار بالعين والمعرفة بالقلب مناسبة شديدة لا جرم قد تسمى المعرفة التي في القلب مشاهدة وشهودا، والعارف بالشيء شاهدا ومشاهدا، ثم سميت الدلالة على الشيء شاهدا على الشيء لأنها هي التي صار بها الشاهد شاهدا، ولما كان المخبر عن الشيء والمبين لحاله جاريا مجرى الدليل على ذلك سمي ذلك المخبر أيضا شاهدا، ثم اختص هذا اللفظ في عرف الشرع بمن يخبر عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات مخصوصة، إذا عرفت هذا فنقول إن كل من عرف حال شيء وكشف عنه كان شاهدا عليه، والله تعالى وصف هذه الأمة بالشهادة، فهذه الشهادة إما ان تكون في الآخرة أو في الدنيا، وجائز أن تكون في الآخرة لأن الله تعالى جعلهم عدولا في الدنيا لأجل ان يكونوا شهداء، وذلك يقتضي أن يكونوا شهداء في الدنيا،... فإن قيل تحمل الشهادة لا يحصل إلا في الدنيا، ومتحمل الشهادة قد يسمى شاهدا وإن كان الأداء لا يحصل إلا في القيامة، قلنا الشهادة المعتبرة في الآية لا التحمل، بدليل أنه تعالى اعتبر العدالة في هذه الشهادة، والشهادة التي يعتبر فيها العدالة هي الأداء لا التحمل، فثبت أن الآية تقتضي كون الأمة مؤدين للشهادة في دار الدنيا، وذلك يقتضي أن مجموع الأمة إذا أخبروا عن شيء أن يكون قولهم حجة، ولا معنى لقولنا الإجماع حجة إلا هذا....'' الرازي، مفاتيح الغيب، م،س، ج٤، ص ١١٢.

[30] النورسي، الشعاعات، م، س، ص ٤٥٩.

[31] النورسي، المكتوبات، م، س، ص ٧٨.

[32] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط ٣، ٢٠٠١، ص ٥٥٥.

[33] انظر في هذا المقام الكتاب القيم: جيدل، عمار، ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور، دراسة تحليلية نقدية، شركة نسل للطباعة والنشر، إستانبول، تركيا.

[34] انظر: الغزالي، محمد، عقيدة المسلم، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، ١٩٨٥. ص ١٢٨.
[35] انظر: الغزالي، محمد، نظرات في القرآن، ط ٢، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩، ص ٥١.
[36] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٣٦٩.
[37] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، الملاحق، ملحق أميرداغ، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط ٣، ٢٠٠٢، ص ٢٣٣.
[38] النورسي، صيقل الإسلام، ص ٥٣١.
[39] المرجع السابق، ص ٥٣٥.
[40] النورسي، المكتوبات، م، س، ص ٥١.
[41] انظر: الغزالي، محمد، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، منشورات العالمية للإعلام، طبع دار هومة، الجزائر، ٢٠٠١، ص ١٠٥- ١٠٥/ الغزالي، محمد، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، ط ٥، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ١٣٨٠- ١٩٦٠، ص ٥٤.
[42] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط ١، ١٩٩٥، ص ٤٤٦.
[43] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٣٩١.
[44] المرجع السابق، ص ٣٩١.
[45] انظر: النورسي، المكتوبات، م، س، ص ٥٦٦-٥٦٧.
[46] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٢٦٢.
[47] النورسي، المكتوبات، م، س، ٢٨٦.
[48] النورسي، الكلمات، م، س، ٢٨٧.
[49] النورسي، المثنوي العربي النوري، م، س، ص ٣٠.
[50] النورسي، الكلمات، م، س، ص ٤٦٢.
[51] النورسي، صيقل الإسلام، م، س، ص ٤٧٣.
[52] النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط٣، ص ١٦٠.
[53] النورسي، صيقل الإسلام، م، س، ص ٥٠٥.
[54] الرازي، مفاتيح الغيب، م، س، ج٤، ص ٨٦.
[55] الكلمات، المكتوبات، الشعاعات، اللمعات،...
[56] عن عمر رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ''الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا'' قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه.
قال فأخبرني عن الإيمان. قال: ''أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره''. قال: صدقت.
قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: ''أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك''.
قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ''ما المسؤول عنها بأعلم من السائل''، قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: ''أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان''.
ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال: ''يا عمر أتدري من السائل؟'' قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ''فإنه جبريل أتاكم

يعلمكم دينكم''.

رواه مسلم عن عمر بن الخطاب في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٨.

كما رواه البخاري قريبا منه عن أبي هريرة باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة رقم ٥٠ جاء فيه عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟. قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟. قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ ''إن الله عنده علم الساعة'' الآية. ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئا، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.

الرؤية الحضارية
من خلال رسالة الاقتصاد

أ. د. صباح الدين زعيم[1]

قام الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي طوال حياته بوظيفة إنقاذ الإيمان، ونشر الإسلام، وجعل صدره درعاً لصد جميع المضايقات ودفع الأذى عن الإسلام، مؤكّدا بهذا التصرف ما يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم المؤمن من الناحية السلوكية، وحاول في الوقت نفسه التنبيه إلى العناصر اللازمة لصياغة المجتمع حسب الأسس الإسلامية.

وتحقيقا منه لمسعى استجلاب العناصر اللازمة لصياغة المجتمع وفق الأسس الإسلامية، ربى ما اجتمع حوله من رعيل مخلص، وعمل على نشرهم في كلّ الأصقاع التي يمكن أن يبلغوها، فكانوا بمثابة شتلات في ثنايا المجتمع، سعوا جهدهم لتحقيق هذا الغرض. وبدأت هذه الشتلات المزروعة بالانتشار فيما بعد في كافة ربوع البلاد التركية، ثم انتقلوا إلى سائر مكونات المعمورة، فانتشرت رسائل النور في العالم بفضل الله، ثم بفضل جهود هؤلاء المخلصين، ولم تتوقف الجهود عند هذا الحد، بل جاوزتها بنقل رسائله إلى الإنسانية بمختلف اللغات.

يستند الأستاذ النورسي في أفكاره ونشاطاته كافة إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة. وبعبارة أخرى سعى الأستاذ النورسي إلى تفسير القرآن الكريم والسنة المطهرة حسبما يدركه أهل العصر الحالي، وبحسب استعداداتهم، ووفق النمط والشكل الذي يُسْتَوْعَب.

يتناول موضوع المقالة بيان الرؤية الحضارية كما تتجلى في رسالة الاقتصاد للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. وقبل الخوض في تحليل وإيضاح هذه الرسالة

يجدر بنا الإشارة إلى أن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي مثلما أسند جميع إيضاحاته إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، قام أيضاً بتدقيق المواضيع الاقتصادية بحسب المصادر نفسها، وأسند استنتاجاته وأفكاره إلى هذه الأسس، تمّ كلّ ذلك في ظل ظروف يعمل فيها على استئصال الدين من المجتمع، فكانت جهوده بمثابة إرهاصات لما ظهر في أيامنا من خوض في المواضيع الاقتصادية شرحاً وإيضاحاً وتحليلاً بالاستناد إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد قدّم هذا العمل المنجز بعنوان ''الاقتصاد الإسلامي''. وبهذا تعتبر الأفكار التي بيّنها الأستاذ النورسي في المواضيع الاقتصادية ضمن إطار تدقيق وتحليل الاقتصاد الإسلامي. وبتناولنا الموضوع بهذا المعنى تكون ''رسالة الاقتصاد'' قد بينت دراسة وبحثاً لقسم من الاقتصاد الإسلامي، وهو منهج سلوك المستهلك في الإسلام. وقد تطرق الأستاذ النورسي في رسائله الأخرى إلى مختلف المواضيع المتعلقة بالاقتصاد الإسلامي، وقدم فيها تفسيرات وإيضاحات مؤسسة ومؤصّل لها بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

تتركز رسالة الاقتصاد أساساً على حكمة حرمة الإسراف ضمن سلوك المستهلك، وإيضاح تأثيراته الإيجابية والسلبية، وفق الآية الكريمة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.[الأعراف:٣١] بل يشكل هذا الموضوع في أساسه مسألة أساسية من مسائل الإنسانية في يومنا هذا.

فالإسراف في سلوك المستهلك، يزعزع موازنة الادخار والاستهلاك لدى الفرد، فينتهي به هذا التصرّف إلى التأثير السلبي على الاقتصاد، إذ به يتدنى الإنسان والاقتصاد إلى أدنى قيمة له، كما يؤثر على توزيع المصادر، ونسب الادخار والاستهلاك الاقتصادي، فيخلص به الإسراف إلى أدنى قيمة له أيضاً، وينتهي إلى اختلال موازنات الواردات على الساحة العالمية.

واليوم يحكم في العالم الاقتصاد الإسرافي، حيث الناس يُحفَّزون دوماً إلى الاستهلاك، فيتوجهون إلى الاستهلاك فوق حاجتهم، فيزداد الاستهلاك الرفاهي، حيث يدفع إليه عن طريق الإعلانات للاحتياجات المصطنعة، وترجّح الرغبة عن المستلزمات ذات الجودة العالية التي يمكن تعميرها بعد العطب، إلى الأشياء التي تستخدم ثم تُرمى مباشرة بعد استعمالها. ونتيجة استعمال المواد البلاستيكية بحجة شعار ''استعمل ثم ارم'' تتلوث البيئة من ناحية ومن ناحية أخرى تنفد المصادر أيضاً.

وما نعانيه اليوم من مشكلة تلوث البيئة مردّه بالأساس إلى الإسراف في الاستهلاك.

ونتيجة اختلال موازانات الموارد من جراء تضخم الإيراد الربوي، وقلة الزكاة، تزداد ميول طبقة الأغنياء نحو الرفاهية والإسراف أيضاً، وتساق المصادر الإنتاجية نحو تلبية طلباتهم، وعليه يجري العرض الإنتاجي.

ويقابل هذا أيضاً عدم تخصيص المصادر لإنتاج السلع التي تلبي الحاجات الضرورية للمجتمعات البشرية ذات الوارد القليل أو الكثير، فتختل في هذه السلع موازنة العرض والطلب، وتزداد الأسعار لعدم كفاية المنتجات الطلب. وذلك لانخفاض مرونة الطلب في السلع الضرورية. وعلى الرغم من هذا لا تلبى حاجتهم الضرورية الأولية. بينما يُصْنَع شوق الاستهلاك المستمر من خلال زيادة سعة مجالات الإعلانات، وقروض الاعتماد، وبطاقات (كروت) المصارف وغيرها، فتختل ميزانية الأسر بسبب الواردات في المجتمعات الإنسانية لاستهلاك اكثر وأرقى وأحدث السلع، وجرّاء ذلك يقوم الأفراد والدول بأخذ القروض، ويفقدون نتيجة ذلك حريتهم الاقتصادية أيضاً.

والذين يخضعون للضغوط النفسانية للميول الاستهلاكية يضطرون إلى التنازل عن عزتهم، وإن اقتضى الأمر عن شرفهم، وينتهي بهم الأمر إلى التنازل عن مشاعرهم الدينية والمعنوية، ولهذا يزداد الربا، والتوسل للآخرين، والرشوة، والزنا، فتفسد الأسس التي تقوم عليها الأسرة، وما سبق بيانه، يؤكّد بما لايدع مجالا للشك، وجوب البحث في تأثيرات سوء التصرف المشار إليه على ما أصاب العالم من التضخم المالي، والعجز في التجارة الخارجية.

وقد أثر هذا التخلخل على الإيديولوجيات؛ فأدت إلى ظهور الأفكار الاشتراكية والماركسية. وقد انقسم العالم إلى قسمين، أولهما القسم المائل إلى الرأسمالية، والثاني اسلم نفسه للاشتراكية، وتنافسا تنافساً شديداً، ولم يستطع كلا النظامين الوقوف حيال الإسراف لعدم تغير قاعدة خط الحركة العام في سلوك الرجل الاقتصادي والمستهلك. ففي النظام الاشتراكي تمت محاولة ضبط الموازنة بنشر الترف والرفاهية والإسراف بالتدابير الإجبارية، فلم يوفقوا هذه المرة أيضاً في ضبط الموازنة على الرغم من التخطيط الجاري في المجتمع كافةً على أدنى حد، وذلك لفشلهم الإنتاجي.

والخلاصة: إن العامل الأساس في استمرار هذه التخلخلات هو إدمان الإسراف، وفقدان الشكر والقناعة.

تسعى الضوابط التي جاء بها الإسلام لتنظيم سلوك المستهلك مستنداً إلى قواعد القرآن الكريم والسنة المطهرة، فتقدم الأنموذج الأمثل للإنسان المسلم. وقد أورد الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي هذه الضوابط في رسالة الاقتصاد بعبارات موجزة مركّزة، متناولاً الموضوع وموضحاً إياه وفق المسلك الآتي:

الإنسان موظف بالشكر، إبَّان استخدامه واستهلاكه النعم التي وهبها إياه خالقه الكريم. وعلى الإنسان الشاكر أن يستخدم ما وهبه خالقه من النعم حسب حاجته وبقدر احتياجه ويقدرها حق قدرها، مفكراً ببني جنسه من الناس، مرتبا الاستفادة والإفادة من النعم بحسب حاجة الإنسانية إليها، فالنعم ليست من رتبة واحدة، لهذا يحسن التوقّف عند أقسام ما يحتاجه الإنسان من سلع.

أقسام الفعالية الإنتاجية عند الإمام أبي حامد الغزالي:

تنقسم الفعالية الانتاجية بحسب تصنيف حجة الإسلام إلى ثلاثة أقسام، الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات.

١ -"الضروريات" إنتاج السلع الإحتياجية الضرورية:

تحافظ هذه السلع على خمس مزايا من الميزات الأساسية للإنسان، وتحيط بإنتاج خدماته وممتلكاته كافة. والمزايا الخمس الأساسية للإنسان هي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

"الحاجيات" نشاطات إنتاجية لتسهيل الحياة وتأمين الراحة:

لا يعتبر هذا النوع من الإنتاج شرطاً للمحافظة على الميزات الخمس المذكورة آنفاً واستمراريتها، إلا أنه نشاطات تخفف مشقة الحياة وتزيل المصاعب وتزيد من وسائل الراحة.

٢ -"التحسينات أو الكماليات" نشاطات إنتاجية لزيادة الترف والأناقة:

تعتبر هذه رغبة خارج حدود تأمين الراحة أيضاً، وذلك لتطمين أحاسيس الجمال والظرافة والأناقة، وتتعلق بإنتاج المال.

تصنيف آخر لأقسام الفعالية الانتاجية:

ويمكن تصنيف الإحتياجات بوجه آخر إلى سبعة أقسام:

١- الغذاء. ٢- الملبس. ٣- المصروفات. ٤- الصحة والسلامة. ٥- التربية. ٦- الأمن "الأمن الاجتماعي والاقتصادي والإداري". ٧ - المواصلات.

يحاول الأفراد تأمين الأقسام الثلاثة الأولى عن طريق محاولتهم وسعيهم الخاص. أما الأقسام الأربعة الأخيرة فيتكلف بها الجهات المسئولة عن نظام المجتمع، فهي المكول بها تأمينها. ولا يمكن حصر هؤلاء في الحكومة فقط، بل يمكن أن يكون منها، كما يمكن أن يكونوا من الإدارات المحلية، والمؤسسات العمومية المختلفة، كما يمكن أن يكونوا من الأوقاف التي وهبت نفسها لخدمة المجتمع في سبيل الله تعالى. حيث تسمى هذه الأوقاف إلى جانب تسميتها بالقطاع الخاص والعام بالقطاع الثالث أيضاً، ويمكن تأمين تكلفة هذه الوظائف من قبل الفرد عن طريق الزكاة، والصدقات، أو عن طريق الضريبة والزكاة من قبل المؤسسات الاجتماعية أيضاً.

وبهذا ينبغي على الأغنياء المؤمنين والموحدين حيثما كانوا أنْ يحصلوا على حاجاتهم ضمن مقاييس معلومة، أن يقدموا ما يتبقى من الحاجة الزائدة لفائدة من يفتقر إليها من بنى جنسهم، وهو ما تؤكّده الشريعة في أجلى نصوصها، منها قول الرسول ﷺ : ''مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى''[2] وهناك كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بهذا الجانب. ولنذكر هنا بعضا منها:

الآيات الكريمة:

١- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. البقرة:٢٦٥

٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾. البقرة:٢٧٢

٣- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾. البقرة:٢٧٣

٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. البقرة: ٢٧٤

٥- ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾. البقرة:٢٧٦

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. البقرة:٢٥٤

٧- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. البقرة:٢٦١

٨- ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. المائدة:٢

الأحاديث الشريفة: قول النبي ﷺ: "الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه"[3]

عند توجيه مصادر مجتمع ما نحو الإنتاج ينبغي اجتناب تأمين الحاجات ذات الدرجة الثانية أو الثالثة في حالة عدم تأمين الحاجات الضرورية للناس كاملة. واليوم يموت مئات الألاف من الناس في العالم جوعاً في كل يوم لعدم تأمينهم الحاجات الضرورية لحياتهم، فلا يتحرك الشبعان من الناس لإطعام جاره الجائع، فترى غنيا مصابا بأمراض التخمة وجاره يتضوّر من ألم الجوع، كل ذلك مع أنّ رسولنا الكريم ﷺ يقول "ليس منا من بات شبعان وجاره جائع"[4] وفي إيضاح هذه الخاصية قال الأستاذ بديع الزمان:

"إن الألم الذي ينتاب ذوي الوجدان من حيث العاطفة الإنسانية -بما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيّم عليه الفقر والحاجة- يشوّب لذتَهم التي يحصلونها بأموال غير مشروعة، وتزداد مرارتها إن كانت لهم ضمائر. إنه ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحدّ الضرورة في الأموال المريبة، لأنه حسب قاعدة 'الضرورة تقدر بقدرها' يمكن أن يؤخذ باضطرارٍ من المال الحرام حدَّ الضرورة وليس اكثر من ذلك. وليس للمضطر أن يأكل من الميتة إلى حدّ الشبع، بل له أن يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت. وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة أمام مائة من الجائعين."[5]

ولهذا السبب كان المؤمنون والموحدون من الناس قديماً لا يأكلون شيئاً علناً في الأسواق ليحولوا دون تحريك شهية الآخرين، وكانوا لا ينقلون المواد الغذائية مكشوفة، بل يسترونها بغطاء، فانطلاقاً من هذه الفكرة القيمة ينبغي لمثل هؤلاء العباد السعداء الذين يملكون الوسع في تأمين حاجاتهم أن يعرفوا قيمة النعم ويشكروا خالقهم الكريم دائماً.

ويكون أداء شكر تأمين حاجاتنا الأساسية اليومية حسب تعبير الأستاذ بديع الزمان بـ ''توقيرٌ مربح إزاء النعمة''.[6]

ويسمي هذا الاقتصاد. والذي لا يراعي الاقتصاد يتخبط في الإسراف، والإسراف منافٍ للشكر وهذا ''استخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة''.[7]

وعليه يجب أن نفكر بما نشتريه من الخبز ونأتي به إلى بيوتنا ابتداءً بمرحلة زرع حبات هذه النعمة في التراب وحصادها، واستخراج الحبات من السنابل، وجعلها على شكل دقيق بعد الطحن، وخبزها في الأفران، ونقلها إلى البيوت، وهذا يتحقق بعد تعاون كثير من الناس، وتقسيم الأعمال فيما بينهم، ونأكل هذه النعمة ضمن هذا الشعور ونتوجه إلى الله تعالى على لطفه هذا بـ ''بتوقير مربح'' حسب تعبير الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. أي ألاّ نهدره ونستخفّ به ونترك نصفاً منه في الأطباق ثم نلقيه في سلة المهملات وهو ''استخفاف خاسر''.

عالم اليوم عجيب، يموت آلاف ناس جوعاً، ونرى ونسمع ونقرأ في المجتمعات ذات الحالة الاقتصادية المتوسطة مثلنا ناهيك عن المجتمعات الغنية الراقية إسراف آلافٍ من أرغفة الخبز كل يوم، وترك الأكل في الأطباق ورميه في سلة المهملات. وهذا الإسراف هو ''استخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة''، يجب علينا في حالة استحقاقنا هذه النعم أن نقابلها بـ ''توقير مربح''.

أجدادنا المؤمنون الموحدون الذين كانوا يعلمون مثل هذا التوقير كانوا يرفعون ما يسقط من الخبز على الأرض ويقبّلونها ثم يضعونها على رؤوسهم احتراماً للنعمة، وكانوا يعتنون كل العناية لمنع تساقط فتات الخبز من السفرة على الأرض.

وحسب إفادة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي يطلق على مثل هذا التصرف بـ ''الاقتصاد''. وكما يتراءى أن معنى الاقتصاد المتطور الراقي يستند إلى هذا الأساس، ولهذا السبب لو تذكرنا أن تعريف الاقتصاد في الكتب الاقتصادية هو ''كيفية تسديد المصادر المحدودة لحاجات غير محدودة للإنسان بأحسن شكل ممكن'' عندها نفهم بشكل جلي عمق وصواب تعريف بديع الزمان للاقتصاد، وكلّما تعمّقنا في تحليله ازدادت قناعتنا أكثر فأكثر بأهمية دراسة مسألة الاقتصاد في رسائل النور.

ولو قسمنا الاقتصاد الذي يفيد -كما ذكر في رسالة الاقتصاد- من ''توقير مربح''

إزاء النعم التي هي من لطفه سبحانه إيانا، إلى عناصره نرى أنه يحوى على ست عناصر مهمة:

١ـ "الاقتصاد شكر معنوي"

بما أن الإنسان ليس جسدا فحسب، فيجب عليه اجتناب الإسراف، وأن يراعي الاقتصاد بانبعاث النشوة وذوق معنوي من أعماق روحه لأداء شكر تجاه ما يوهب له من النعم لسد حاجاته اليومية وعلى رأسها حاجته إلى الغذاء.

٢ـ "الاقتصاد توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان":

ينبغي على الإنسان أن يعدّ ما تقدم له من النعم رحمة إلهية ويعرف قيمتها ضمن شعوره وإدراكه أن الكون قد خلق له، وما فيه من المخلوقات قد سخرها خالقها الكريم للإنسان. وذلك أن الله تعالى قد تكفل برزق العباد، فرزق من شاء، وأمسكه عمّن شاء. والذي يشعر بهذا من المفروض أن يعد ما ينال من النعم أنها رحمة إلهية، ويعرف قيمتها.

٣ـ "الاقتصاد سبب حاسم للبركة والاستكثار:

إن الذي يراعي الاقتصاد في حياته، يزيده الله تعالى نعماً فوق ما وهبه سابقا من النعم ويباركها بما يظهر منها في الخدمة الإيمانية وفق قاعدة الرحمة الإلهية، ويؤدي من الشكر إزاء نعمه تعالى، ويرفع البركة عمّن لا يراعي الاقتصاد ويلج في الإسراف.

قال الأستاذ النورسي في إحدى ذكرياته المتعلقة بهذا الموضوع:

"جئت إلى مدينة مباركة -قبل تسع سنوات- كان الموسم شتاءً فلم أتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الإنتاج في تلك المدينة، قال لي مُفتيها رحمه الله: إن أهالينا فقراء مساكين. أعاد قوله هذا مراراً. أثّر فيّ هذا القول تأثيراً بالغاً مما أجاش عطفي، فبت استرحم وأتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات. وبعد ثماني سنوات عدتُ إليها وهي في أجواء الصيف، وأجلت نظري في بساتينها فتذكرت قول المفتي رحمه الله فقلت متعجباً:

- سبحان الله! إن محاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً، وكان حرياً بأهاليها أن يكونوا أثرياء جداً! بقيت في حيرة من هذا الأمر.. ولكن أدركت بحقيقة لم تخدعني عنها المظاهر، فهي حقيقة استرشد بها في إدراك الحقائق، وهي: أن البركة قد رفعت من هذه المدينة بسبب الإسراف وعدم الاقتصاد. مما حدا بالمفتي

رحمه الله إلى القول: إن أهالينا فقراء ومساكين، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد.

نعم، إنه ثابت بالتجربة وبالرجوع إلى وقائع لا تحد بأن دفعَ الزكاة، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة. بينما الإسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة.''[8]

واليوم يشبه حال العالم الإسلامي هذا الحال عامة، إنهم يتجرعون الفقر ضمن الغنى، والعالم الإسلامي على الرغم من امتلاكه مصادر مهمة يستدين من أراذل الناس جراء عدم إظهار فقرائه الشكر والقناعة، وأغنيائه التعاون والاشتراك في الأعمال ضمن تقسيمها بسبب الإسراف والخسة.

اليوم في العالم الإسلامي دولا من أغنى في العالم ولكنّه يضم في الوقت نفسه دولا من أفقر الدول، وقد وقع أغنياؤه وفقراؤه معاً في ذلّ الدَّين. وذلك أن الذين كان ينبغي تكون الأخوة والتآزر فيما بينهم، أصبح البغض وتسلّح كل منهم ضد أخيه مشروعهم، وبدأوا بشراء هذه الأسلحة من الآخرين دَيناً لعدم إمكانهم من القيام بإنتاجها بأنفسهم، ففقدوا عزتهم في أيدي تجار الأسلحة وسقطوا في مهاوي الذل والاستحقار.

٤- مراعاة الاقتصاد في تسديد الحاجة إلى الغذاء لها تأثير صحي من حيث الطب والمداواة إلى جانب فوائده المعنوية والتجارية. ذلك أن الغذاء المتناول بالقدر اللازم المعقول يساعد على تكامل الجسم. بينما يكون أثره سلبيا على الجسم إذا تناوله بشكل زائد. فالإكثار من الغذاء يجبر الجسم يتعبه، فالرعاية للاقتصاد ''مدار صحة الجسد كالحمية''.

وذكر الأستاذ في السياق المشار ليه، أبياتا لـ ''ابن سينا''، وهو أفلاطون فلاسفة المسلمين وشيخ الأطباء وأستاذ الفلاسفة، فسّر فيها قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[الأعراف:٣١] من الناحية الطبية، فذكرالآبيات الآتية:

جمعتُ الطبَّ في بيتين جَمعاً وحُسن القول في قِصَر الكلام
فقلل إن أكلتَ وبعد أكل تَجنّب، والشفاءُ في الانهضام
وليس على النفوس أشدُّ حالاً من إدخال الطعام على الطعام.

أي إن أضر شيء للجسم هو عدم إعطاء مهلة بين وجبات الطعام تتراوح بين أربع أو خمس ساعات، أو إملاء المعدة بإدخال الطعام بالتعاقب لأجل التلذذ.''[9]

ولو أخذنا بنظر الاعتبار ما يتبعه البعض منا -أو أكثريتنا- من نظام التغذية اليوم، نرى أننا نتناول الأغذية بمقادير يضطر الجسم إلى حملها أكثر من أن تحمل هي الجسم، وأن الجسم يخزن تلك الأغذية دون أن يهضمها، ويجبر أخيراً على حملها.

ولو تذكرنا أن زيادة هذه الأغذية -أي الولوج في الإسراف بتناولها- تؤدي إلى تكوين الدهون وأمثالها من المخزون الناجم من كثرة الأغذية أمثال السكريات والكولسترول والبروتينات والدهنيات التي تسبب أمراضاً مختلفة، عندها نفهم الفضيلة الرابعة وأهمية الرعاية بالاقتصاد واجتناب الإسراف في التغذية.

٥- ننتقل إلى الفضيلة الخامسة: عبّر عنها الأستاذ بقوله بأنّ ''الاقتصاد هو سبيل إلى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي''، إن المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها كما هو مفهوم الحديث الشريف ''ما عال من اقتصد''.[10] أجل هناك من الأدلة القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأن الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة، وأساس متين للعيش الأفضل. أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني بإخلاص فأقول: ''لقد حصلتُ أحياناً وحصل أصدقائي على عشرة أضعاف من البركة بسبب الاقتصاد. حتى إنه قبل تسع سنوات عندما أصرّ عليّ قسم من رؤساء العشائر المنفيين معي إلى 'بوردور' على قبول زكاتهم كي يحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والحاجة لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لأولئك الرؤساء الأثرياء: برغم أن نقودي قليلة جداً إلاّ أنني أملك الاقتصاد، وقد تعودت على القناعة، فأنا أغنى منكم بكثير. فرفضتُ تكليفهم المتكرر الملح... ومن الجدير بالملاحظة أن قسماً من أولئك الذين عرضوا عليّ زكاتهم قد غلبهم الدَّين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، إلاّ أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني -ولله الحمد- ببركة الاقتصاد إلى ما بعد سبع سنوات، فلم تُرق مني ماء الوجه، ولم تدفعني لعرض حاجتي إلى الناس، ولم تفسد عليّ ما اتخذته دستوراً لحياتي وهو ''الاستغناء عن الناس''.

نعم إن من لا يقتصد، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة، ومعرض للانزلاق إلى الاستجداء والهوان معنىً.

إن المال الذي يستعمل في الإسراف في زماننا هذا لهو مال غالٍ وباهظ جداً، حيث تدفع أحياناً الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تُسلب المقدسات الدينية، ثم يُعطى نقوداً منحوسة مشؤومة، أي يقبض بضعة قروش من نقود مادية، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية.''[11]

ولو أمعنا النظر اليوم في حال الأمم الفقيرة أو التي تحس نفسها فقيرة والتي دخلت تحت عبء الديون الثقيلة لتبين أنها قد فقدت شيئاً كثيراً عن حقوق حاكميتها، وعزتها الملية، وأجبرت على دفع الديون بصورة مستمرة، حتى أصبحت مصابة بداء الذل والتوسل المعنوي. ويرجع سبب ذلك إلى فقدان القناعة وعدم مراعاة الاقتصاد والوقوع في الإسراف من قبل أفراد تلك الأمة وبالأخص من قبل القائمين على تسيير شئون ذلك المجتمع.

أين نحن من رسول الله ﷺ الذي كان يرفع يديه مناجيا ربه، قائلا:"اللّهم أعوذ بك من المأثم والمغرم"[12] والذي نراه هنا هو اقتران الاستدانة -في غير حاجة- بارتكاب الذنوب. لذا ينبغي على المؤمنين والموحدين من الناس يسلكوا ما يوافق الكتاب والسنة في الاستهلاك، ويراعوا الأسس الآتية:

١- عدم صرف الواردات في المجالات غير المشروعة، أما مجالات الصرف فهي تتوضح ضمن إطار المشروعية التي بينها الإسلام. والله يأمرنا في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾البقرة:١٧٢ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾البقرة:١٦٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾المائدة:٨٧-٨٨ ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.الأنعام:١٤٦

٢- يجب الابتعاد عن استهلاك المصاريف الباهظة الراقية الجالبة للأنظار والله تعالى يقول في الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾النساء:٣٨ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.البقرة:٢٧٠

على المسلم المتواضع أن يعيش حسب مستوى حياة المجتمع الذي يعيش فيه، وأن لا يستهلك رئاءً ليهيج حسد الفقير ويحرك حسده وبغضه له.

٣- حصر مقدار الاستهلاك في الساحات المشروعة حسب الحاجات الضرورية، وبذل الجهد لحفظ النعمة حتى آخر حبة منها وعدم الإسراف فيها، وذلك ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

٤- وكما يجب الاجتناب عن الإسراف في الاستهلاك ينبغي عدم الدخول تحت ثقل الديون فيما لا ضرورة فيه أيضاً.

٥- مراعاة الاقتصاد سبب إحساس اللذات الموجودة في النعم: يذكر الأستاذ بديع الزمان مثالاً ويشبّه فيه حاسة الذوق بالحارس، والمعدة بسيدة الجسد وحاكمته. ''فلو بلغت قيمة هدية تُقدَّم إلى حاكم القصر مائة درجة فإن خمساً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا أكثر''.

يشير الأستاذ النورسي هنا إلى ما اشتهر من قانون نقصان الفائدة لعلم الاقتصاد، فلو راعينا الاقتصاد في الاستهلاك عندها تزداد فائدة نسبة وحدة الاستهلاك، ولو أسرفنا بزيادة الاستهلاك قلت فائدة نسبة وحدة الاستهلاك حسب قانون نقصان الفائدة، وبزيادة الإسراف تهبط نحو الصفر، حتى تصبح سالباً.

ويستمر الأستاذ النورسي في كلامه قائلاً:

''بينما لو اقتصر الإنسان على الحاجات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها، فسيجد رزقاً يكفل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾الذاريات:٥٨ وأن صراحة الآية الكريمة:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾هود:٦ ''تتعهد بذلك تعهداً قاطعاً.''

وحسب تعبير الأستاذ النورسي: ''إن من كمال كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يُذيقُ لذّة نِعمه لأفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان. نعم إن اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبز اسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان أو الثري من أكله الحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية النابعين من الإسراف.''

ولهذا السبب يتناسب الرزق تناسباً عكسياً مع الواردات في الذين لا يعيشون حسب الضوابط الإسلامية. فكلما زادت الواردات زاد الرزق. وقد تعهد الله تعالى في كتابه القرآن الكريم رزق ما خلق من المخلوقات، يجيب الأستاذ النورسي هنا على سؤال مقدرٍ ويفسر الآية الكريمة. أي ما دام الله تعالى قد تعهد برزق المخلوقات وتكفله، فلماذا يموت مئات الألوف من الناس جوعاً؟

يجيب الأستاذ النورسي على هذا السؤال كما يلي:

''نعم، إن الرزق قسمان:

القسم الأول: وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية الكريمة، يستطيع المرء الحصول على ذلك الرزق الضروري مهما كانت الأحوال، إن لم يتدخل سوء اختياره، دون أن يضطر إلى فداء دينه ولا التضحية بشرفه وعزته.

القسم الثاني: هو الرزق المجازي، فالذي يسئ استعماله لا يستطيع أن يتخلّى عن الحاجات غير الضرورية، التي غدت ضرورية عنده نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمن الحصول على هذا الرزق باهظ جداً ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني، إذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفاً راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل إلى تقبيل أقدام أناس منحطين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة.‘‘

فالمصائب التي تتعرض لها الفقراء من الناس اليوم تتولد من جراء إسقاط حاجاتهم الضرورية إلى مستوى الرزق المجازي، أو عن ظنهم الرزق المجازي احتياجاً ضرورياً. واليوم ما تستورد من المواد من الخارج للدول المتخلفة الكثيرة ومن ضمنها تركيا، والتي تسبب تقاضي ديوناً كبيرة هي أموال تنتمي إلى مجموعة الرزق المجازي أكثر من كونها من فصيلة الرزق الحقيقي.

إننا نستورد المواد التي تسهل أساساً المعيشة، للترف والظرافة بسبب الإعلام، والتقليد، وعدم القناعة، بينما طاقتنا الإنتاجية الحقيقية أي وارداتنا لا تكفي لشراء مثل هذه الأشياء، إننا نشتريها بما نتقاضى من الديون لعدم قناعتنا، وبتقاضي الديون نهوي في مستنقع الربا الآسن ونفقر أكثر فأكثر.

وقد سيق الإداريون -ولو نسبياً- في كثير من الدول المتخلفة من قبل المستعمرين لخوض الحصول على الرزق الكاذب بالقوة. فمثلاً: وجّه بعض الدول الأفريقية الصالحة أراضيها الصالحة لزراعة الغذاء الضروري كالقمح والذرة اللازمة، إلى زراعة الكاكاو وغيرها من المواد الغير الضرورية كي تكون شعوبها محتاجة في تأمين رزقها إلى المستعمرين.

وينبغي الوقوف على فرق مهم من بحث الاقتصاد ألا وهو الفرق بين الاقتصاد والخسة.

٦- الفرق بين الاقتصاد والخسة: إن الله لا يحب الإسراف والخسة، وحسب تعبير الأستاذ النورسي:

"ومن العجب حقاً أن يجرؤ بعض المسرفين والمبذّرين على اتهام المقتصدين بالخسّة..حاشَ لله، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه، بينما الخسة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري."

الابتعاد عن الإسراف يفتح السبيل إلى الاقتصاد، والاقتصاد يحول بيننا وبين الوقوع في الاحتياج عند الضرورة.

والله تعالى يأمر في الآية الكريمة: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾"البقرة: ٢٦٨

"دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو أكبر أبناء الفاروق الأعظم خليفة رسول الله ﷺ وأحد العبادلة السبعة المشهورين ومن البارزين بين علماء الصحابة الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في مناقشة حادة لدى تعامله في السوق على شئ لا يساوي قرشاً واحداً، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة. في هذه الأثناء رآه صحابي آخر، فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه، إذ كيف يصدر هذا الأمر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الأرض. فتبعه إلى بيته ليفهم شيئاً من أحواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب أطراف الحديث مع فقير آخر هناك. أثار هذا الأمر لهفة ذلك الصحابي فأسرع إلى الفقيرين للاستفسار منهما:

- هلاّ تفهماني ماذا فعل ابن عمر حينما وقف معكما؟

- لقد أعطى كلاً منا قطعة ذهب.

فراعه الأمر وقال شدهاً: يا سبحان الله... ما أعجب هذا الأمر، انه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجَين اثنين عن رضىً دون إن يشعر به أحد، فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله:

- أيها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه؟ لقد فعلتَ في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا؟! فردّ عليه قائلاً:

- إن ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعلتُه صوناً للأمانة وحفظاً للصدق اللذين هما أساس المبايعة وروحها وهو ليس بخسّةٍ ولا ببخل، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها... فلا ذاك خسّة ولا هذا إسراف.

وإشارةً إلى هذا السرّ قال الإمام الأعظم ''أبو حنيفة النعمان'' رضي الله عنه: ''لا إسراف في الخير كما لا خير في الإسراف أي كما لا إسراف في الخير والإحسان لمن يستحقه كذلك لا خير في الإسراف قط.''

نتيجة الإسراف: تهييج الحرص.

٧- الإسراف ينتج الحرص، والحرص يوَلد ثلاث نتائج:

١- عدم القناعة.

٢- الخيبة والخسران.

٣- إتلافه الإخلاص وإفساده العمل الأخروي.

أولاها: عدم القناعة أي الطمع يُخبت وهج الشوق والتطلع إلى العمل ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل.

وحسب تعبير الأستاذ النورسي: ''وعدم القناعة هذا يُثنى الشوقَ عن السعي وعن العمل، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر، قاذفاً به إلى أحضان الكسل، فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع، فيهدر في هذه السبيل عزتَه بل كرامته.''

لذا حرم الإسلام لعب اليانصيب والقمار وغيرها، ومنع طرق الولوج إلى الربح بدون تعب وسعي بالخداع وإغفال الآخرين والصعود إلى القمة رأساً دون تعب.

النتيجة الثانية للحرص: الخيبة والخسران:

''إن الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار لا بالاقتدار والاختيار. بل هو يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار. ذلك أن أرزاق الأطفال تتضاءل وتبتعد ويصعب الوصول إليها كلما ازدادوا اختياراً وإرادةً واقتداراً.

نعم، إن القناعة كنز للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص

معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: ''القناعة كنز لا يفنى''.[13]

النتيجة الثالثة: ''إن الحرص يتلف الإخلاص ويفسد العمل الأخروي؛ لأنه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس وإقبالهم إليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الإخلاص التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات أهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة.''

''أما الاقتصاد فإنه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، استناداً إلى الحديث الشريف: 'عزّ مَن قنع وذلّ مَن طمع'. كما انه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث عليهما ويسوق سوقاً إلى الكدّ وبذل الجهد فيهما؛ لأنه إذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى اجره مساءً فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه. أما المسرف فانه لا يسعى في يومه الثاني لعدم قناعته وحتى إذا سعى فانه يسعى دون شوق.

وهكذا فإن القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى، فيظل الإنسان في شكر وحمدٍ مدى حياته. وبالقناعة لا يتلفت إلى توجه الناس إليه لاستغنائه عنهم، فينفتح أمامه باب الإخلاص وينغلق باب الرياء.''

* * *

الهوامش:

[1] ا.د. صباح الدين زعيم: ولد سنة ١٩٢٦ في اشتيب، وتخرج من كلية العلوم السياسية بجامعة أنقرة سنة ''١٩٤٧'' ومن كلية الحقوق بجامعة انقرة سنة ''١٩٥٠'' وعمل أستاذاً في كلية الاقتصاد بجامعة استانبول ''١٩٥٣- ١٩٨٩'' وفي كثير من الجامعات ''جامعة ملك عبدالعزيز ١٩٨٠-١٩٨٢، وجامعة كونيل الأمريكية ١٩٥٥-١٩٥٧'' واصبح عضواً في لجنة تقييم وتعيين الإداريين ببنك التنمية الإسلامية ''١٩٧٧-١٩٧٨''، وعمل مشاوراً في المؤتمر الإسلامي حول البنك الإسلامي، وعمل عضواً تعليمياً في نقابة عمال الأتراك ''١٩٦٥- ١٩٧٦'' وعضواً في اللجنة الاستشارية العليا بجامعة ملك عبدالعزيز في مجال الاقتصاد الإسلامي العالمي ''١٩٧٨- ١٩٨٢'' وعضواً في هيئة إدارة جامعة الشرق الأوسط للتكنولوجيا في انقرة ''١٩٧٧-١٩٧٩''. ومنذ سنة ١٩٨٥ يعمل في هيئة إدارة جامعة إسلام آباد ''باكستان'' العالمية، ويعمل في عضوية جمعية العلاقات الصناعة العالمية، وعضوية جمعية الصداقة التركية الليبيا، وعضوية جمعية الصداقة التركية السعودية. وقد جلب الأنظار على الأكثر بكتبه ومقالاته وابحاثه حول الاقتصاد الإسلامي، والعمل الاقتصادي المشترك بين البلدان الإسلامية. صدر له: تركيا والسوق الأوروبية المشتركة ''١٩٧٠'' مسئلة النفوس في تركيا ''١٩٧٠'' نظرة الإسلام الاقتصادية ''١٩٨٧'' الإسلام والإنسان والاقتصادي ''١٩٩٢'' تجديد بناء تركيا والعالم الإسلامي ''١٩٩٣''،وله أبحاث وتحقيقات حول الاقتصاد.

[2] أخرجه الإمام مسلم.

[3] وتمام الحديث فيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ''مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ نَفَّسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ اللهَ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَادَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ''.

[4] وتمام الحديث فيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ''مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ نَفَّسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ اللهَ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَادَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ''.

[5] اللمعات، ص: ٢١٦

[6] اللمعات، اللمعة التاسعة عشرة، ص: ٢١٢

[7] اللمعات، اللمعة التاسعة عشرة، ص: ٢١٢

[8] اللمعات: ٢٢٣

[9] اللمعات: ٢٢٣

[10] أخرجه أحمد في مسنده.

[11] اللمعات، اللمعة التاسعة عشرة، ص: ٢١٥

[12] رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام.

[13] كشف الخفاء ١: ١٠٢؛ وتمييز الطيب ص ١١٨.

قراءة تحليلية
في النظرة النورية إلى المسألة الغربية
(العالم الإسلامي والغرب: الحوار والفهم المتبادل)

أ.د. قطب مصطفى سانو[1]

تقديم الدراسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعد،

فهذه صفحات معدودات عنيت بنسجها حول النظرة النورية الناصعة المحكمة إلى المسألة الغربية، تلك النظرة التي نخالها لم تحظ بما تستحقه من التحليل والتحقيق والتوضيح على الرغم مما لها من أهمية موضوعية جلية، ومكانة علمية دقيقة، ولئن عاش العالم الإسلامي ردحا من الزمن أسير النظرات الفكرية المتطرفة -يمينا أو يسارًا- إزاء المسألة الغربية، بل لئن تفاوتت تحليلات النخب والمفكرين حول هذه المسألة، فأورثوا المسلم العادي قلقا واضطرابا وتذبذبا في موقفه من الغرب إن سلبا أو إيجابًا، لئن كان كل ذلك كذلك، فإن الحاجة اليوم ماسة إلى إلقاء مزيد من الضوء على النظرة النورية التي استوفت عناصر الموضوعية والعلمية والمنهجية الشاملة والواقعية العميقة.

إننا نحسب أن النظرة النورية إلى المسألة الغربية إذا نالت حظها من التحليل العلمي الرصين والتحقيق الفكري الشامل، فإنها سَتُسْهِم -إلى حد كبير- في إنقاذ العالم الإسلامي مما يجتاحه من محن وإحن وقلاقل وامتهانات لكرامته وعزته نتيجة انخداع وانبهار شطر كبير من مفكريه بالنظر غير الدقيق إلى المسألة الغربية. كما أننا

نحسب أن انطلاق مهندسي سياسات العالم الإسلامي من النظرة النورية في رسم علاقة الأمة بالغرب بعجره وبجره من شأنها إنقاذ الجيل الصاعد من الناشئة مما هم واقعون فيه من انخداع وانهزام وتطرف في الرؤية والنظرة إلى المسألة الغربية، فضلا عن أنه من شأن الأخذ بتلك النظرة القيمة، فتح باب واسع ومتين من الحوار والتواصل بين العالم الإسلامي والغرب، وذلك على أساس متين من القيم المشتركة المتمثلة في المبادئ السامية التي تقوم عليها الشرائع السماوية كلها، والتي تدعو أتباعها إلى نبذ العنف والتزمت والتطرف والتزام الحوار بدل الصراع، والتعاون عوض التنافر، والتكامل بدل الانزواء والانطواء.

وتأتي هذه المقالة المتواضعة لتأخذ بزمام المبادرة إلى دعوة المخلصين من المفكرين إلى أن يولوا النظرة النورية جانب التحقيق والدراسة والتحليل، كما تروم هذه الدراسة دعوة مهندسي السياسات المصيرية لعموم الأمة إلى الاستعانة بهذه النظرة العلمية الدقيقة الفائقة، ذلك أنها تتضمن قدرًا غير يسير من البيّنات والمرتكزات من شأن الأخذ بها خلاص عموم الأمة مما تعاني منها اليوم من غبش في الرؤية إلى المسألة الغربية.

ولقد آن الآوان للمفكرين والنخب في الأقطار الإسلامية أن يتحلوا في نظراتهم بالشجاعة الفكرية كما فعل الإمام المبدع بديع الزمان، كما آن لهم أن يتحرروا في نظراتهم من إملاءات رجال السيف وضغوطات العوام، فالمفكر المخلص لا ينبغي له بأي حال من الأحوال أن يخضع في فكره ونظرته لأهواء العوام، كما لا ينبغي له أن يتطلع إلى إغراءات الحكام، بل يجب أن يطمح في فكره ورؤيته إلى انتشال العوام من براثن التخلف الفكري والهوان الذهني، ويصبو إلى الأخذ بأيدي الحكام إلى ما فيه صلاحهم وصلاح الرعية.

المبحث الأول: أوروبا بين النفع والضرر: عرض وتحليل

في خضم تراكم الأحداث المفجعة، وتلاحق المحن المبكية، وتكاثر الابتلاءات الإلهية، وتأخر الأحلام والتطلعات المعسولة، وفي غمرة تكالب الأعداء، وتفرق الأصدقاء، وتمزق الأوصال، وتشتت الكلمة، في هذه الأثناء، يصعب على المرء المراهنة على التزام المبتلين الموضوعية والعلمية في النظرة إلى الغالبين، بل لا غرو أن يعلو التشاؤم والتبرم شفاه المغلوبين المهزومين، ولا عجب أن يغدو الانبهار والانخداع والولع بطريقة الغالبين منهلا ينهل منه المنهزمون، مصداقا لما قرره عالم

العمران الإسلامي المؤرخ ابن خلدون في مقدمته بأن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، ذلك لأن.

''...النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه؛ أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل لها اعتقادًا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به...''[2]

لئن كانت هذه المقولة ذات نصيب وافر من المصداقية والواقعية لكون معظم الأبحاث والدراسات والمؤلفات التي ألفها جمع غير منكور في المسألة الغربية تأكيدًا وتقريرا لها، ولا يكاد أحد من أولئك الكتاب والمؤلفين والباحثين يسلم من الانبهار أو الانخداع، ولئن كان ذلك كذلك، فإنّ الإمام البديع بديع الزمان النورسي -رحمه الله- دفع بثقله الفكري والعلمي والمنهجي صوب كلتا النظرتين الانهزامية والانخداعية، فأوسعهما مراجعة وتقويما وتصحيحا، ودعا إلى التخلي عن كلتيهما، كما أنه عني -بطريقته الخاصة- اعتماد طريقة بديلة عُمَدُها المنهجية والموضوعية والواقعية في النظرة إلى الأشياء، وتتبرأ من الانهزامية والانخداعية لأنّهما آفتين مضرتين بالأمم الراغبة في الترقي والتقدم والتطور، وتحاشي الوقوع في أخطاء الماضي، ووعي الحاضر، والتخطيط للمستقبل.

وسعيا إلى مزيد من التحليل للنظرة النورية إلى المسألة الغربية في ضوء ما مني به العالم الإسلام من هزيمة وانسحاب إبان الحربين العالميتين، نرى أن نصغي إلى ما أدلى به الإمام البديع محددا الموقف الأحكم من المسألة الغربية في كتابه اللمعات، حيث قال ما نصّه:

''...حينما سار 'سعيد الجديد'[3] في طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوربية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار 'سعيد القديم' إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية، فما كان من 'سعيد الجديد' إلا القيام بتمخيض فكره، والعمل على نقضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفيهة، فرأى نفسه مضطرا إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوربا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوربا، فهي محاورة مقتضبة من ناحية، ومسهبة من ناحية أخرى. ولئلا يساء الفهم، لا بد أن ننبّه: أن أوربا اثنتان: إحداهما: هي أوربا النافعة للبشرية بما استفاضت

من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب -في هذه المحاورة- هذا القسم من أوربا؛ وإنما أخاطب أوربا الثانية، تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة، وأردتها الضلالة والتعاسة. ولقد خاطبت في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثنيت محاسن الحضارة."[4]

وقرر هذه المعاني بما أورده في المثنوي العربي النوري، حيث قال:

"...إن أوروبا اثنان: أحدهما نافع للبشر باستفادته من الدين العيسوي والمدنية الإسلامية، أظهر بإحسان الله ما يستريح به البشر في هذه الحياة... وأوروبا الثاني: خالف الأديان السماوية، واستند بالفلسفة الطبيعية المادية، وغلبت سيئات المدنية حسناتها، وصار سببا لمشقة أكثر البشر وشقاوتهم..."[5]

وأما تاريخ هذه السياحة الروحية المعنوية، فإنه يعود إلى أيلول عام ١٩١٩م عندما دهى العالم الإسلامي أمرٌ لا عزاء له، مهدت لسقوط البقية الباقية من الخلافة الإسلامية في أقل من خمس سنوات، وقد ولدت تلك الهزيمة النكراء التي تعرضت لها الخلافة الإسلامية شعورين متناقضين ومتضادين، أحدهما: الشعور باليأس والقنوط الذي دفع بالسواد الأعظم من الناس إلى التبرؤ من الغرب واستمراء العيش في كنف الماضي السليب، والتلذذ بترديد أمجاد ذلك الماضي مع رفض الأخذ بسائر وسائل وأسباب الترقي والتقدم والتطور، وأما الشعور الثاني، فقد تمثل في الرضى والقناعة بالدونية والانبهار والانهزام والتبرؤ من الماضي التليد مع الاعتقاد الجازم بأن السعادة والرخاء والاستقرار والأمان مرهون كل أولئك بالتبعية الخالصة للغرب الغالب، وقد دفع هذا الشعور كثيرا من النخب إلى الانجرار للغالب والدعوة إلى تقليده تقليدا أعمى في كل شيء قصد اللحاق به وتحقيق ما حققه من إنجازات وتطور وتقدم.

أمام هذين الشعورين، حاول الإمام البديع –كعادته- أن يحيي شعورًا ثالثا لا ينتمي إلى أي من هذين الشعورين، وينبثق من إيمانه الخالص بأن الابتلاء لا يعني نهاية المطاف، بل يجب أن يعقبه صبر واصطبار وتعلم من الماضي، وإدراك الحاضر، والتخطيط للمستقبل، ولنصغ إليه وهو يصف لنا ما دفعه إلى إجراء تلك المحاورة الدقيقة العميقة بين نفسه وبين أوروبا بقسميه في كتابه الموسوم صيقل الإسلام، وهذا نص ما قاله:

"...كنت في أيلول سنة ١٩١٩م أتقلب في اضطراب شديد من جراء اليأس البالغ الذي ولّدته حوادث الدهر، كنت أبحث عن نور بين هذه الظلمات المتكاثفة القاتمة... لم أستطع أن أجده في يقظة هي رؤيا في منام؛ بل وجدته في رؤيا صادقة هي يقظة في الحقيقة... دخلت عالم المثال في ليلة من ليالي الجمعة، جاءني أحدهم، وقال: يدعوك مجلس موقر مهيب منعقد لبحث مصير العالم الإسلامي، وما آلت إليه حاله؛ فذهبت، ورأيت مجلسا منورا قد حضره السلف الصالحون، وممثلون من العصور، من كل عصر ممثل.. لم أر مثيلهم في الدنيا، فتهيبت، ووقفت في الباب تأدبا وإجلالا..قال أحدهم: ماذا ترى في عاقبة هذه الهزيمة -التي آلت إليها الدولة العثمانية- وماذا كنت تتوقع أن يؤول إليه أمر الدولة العثمانية لو قدّر لها الانتصار؟ قلت: إن المصيبة ليست شرا محضا، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء مثلما قد تفضي السعادة إلى بلاء... لقد فقدنا بهذه الهزيمة سعادة عاجلة زائفة، ولكن تنتظرنا سعادة آجلة دائمة، فالذي يستبدل مستقبلا زاهرًا فسيحا بحال حاضر جزئي متغير محدود، لا شك أنه رابح.. فلو كنا منتصرين غالبين لكنا ننجذب إلى ما لدى أعدائنا من الاستعمار والتسلط، وربما كنا نغلو في ذلك..فهذه المدنية... التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان، وصحوته بالانقراض؛ فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدنية السفيهة المتمردة الغدارة المتوحشة معنى في أرجاء آسيا..."[6]

هكذا صوّر الإمام المبدع الحالة النفسية التي كان عليها عندما صاغ نظرته إلى المسألة الغربية، والملاحظ في هذه النظرة أنها أتت بعد الهزيمة الشنيعة التي مني بها العالم الإسلامي إبان الحرب العالمية الأولى، ولا يخفى على المرء الحالة الكئيبة التي رافقت تلك الهزيمة، كما لا يخفى دورها في نشأة الشعور باليأس والقنوط والانسحاب لدى شريحة غير منكورة من أبناء الأمة الإسلامية في ذلك الزمان، بل ليس بخاف دورها في نشأة الشعور بالانخداع والانهزام والانبهار لدى السواد الأعظم من النخب والمفكرين الذين خيّل إليهم أيامئذٍ أن الملاذ والمخرج يكمن في اتباع سنن الغالبين وتقليدهم في المأكل والمشرب والملبس والمخبر والمظهر بل في كل شيء حتى المنطق؛ غير أن الإمام البديع -رحمه الله- كعادته، لم يكن من صنف أولئك العلماء والمفكرين الذين تتأثر نظرتهم بالظروف الزمانية والمكانية والآنية، بل كان يرى من نورٍ، ويقرأ الأحداث من وجهة نظر المفكر الحصيف المدرك للأبعاد، والمستشرف لما يحمله المستقبل من آلام وآمال وأحلام لعموم الأمة.

ولهذا، ما كانت نظرته إلى المسألة الغربية لتتأثر أو تنحاز لأي من الشعورين السابقين، وأبى إلاّ أن يستقل بنظرة منصفة علمية موضوعية وسطٍ بعيدٍ عن التوغل في المثالية المجرّدة، أو التغلغل في الواقعية المبالغ فيها. فالمدنية الحاضرة في خلده -رحمه الله تعالى- ذات مساوئ ورزايا لا تخطؤها العين، ولا يمكن أن ينكرها أحد إلا من أصيب بانطماس في الذاكرة، أو بغبش في الرؤية، وفي المقابل، فإن هذه المدنية تحمل بين طياتها -في الوقت نفسه- محاسن وحسنات، لا ينبغي إجحافها فيها، ولا يمكن التغاضي عنها، بل لا يعدو إنكارها إلا أن يكون بخسا للناس أشياءهم، وركوبا متن الشطط والضيم، ومكابرة يأباها منطق العلم والمعرفة والنزاهة والإنصاف.

إن نظرة متفحصة في تلك المحاورة العلمية الدقيقة التي قصد منها الإمام صياغة نظريته في المسألة الغربية، تهدينا إلى تقرير القول بأن الوسطية والاعتدال عند النظر إلى الأشياء كان الدافع والأساس الذي تقوم عليه نظرة الإمام، إذ إنه أكّد في غير ما موضع في كتبه ومؤلفاته بأن أوروبا ليست كلها شرّا كما يذهب بعض من البسطاء والبلهاء، إذ إن في أوروبا جانبًا كان ولا يزال نافعًا للبشرية، وقدّم -ولا يزال يقدّم- خدماتٍ جليلة للإنسانية برمتها، وهذا الجانب من أوروبا لا ينبغي نكرانه ولا تجاهله، ولكن في مقابل هذا الجانب المشرق من أوروبا، جانب آخر، كان -ولا يزال- ضارا ومضرا بالبشرية، ولا تفتأ الإنسانية برمتها تعاني من الشقاء والتعاسة والمشاق التي جلبها إليها هذا الجانب الضار من أوروبا، وينبغي حذر العامة من هذا الجانب، كما ينبغي كشف عواره وتنبيه الغافلين عن المساوئ والرزايا التي يتقلب فيها الجانب.

مادامت أوروبا اثنتين، إحداهما نافعة والأخرى ضارة، فإن للمرء أن يتساءل عن الأسباب الكامنة التي أدت إلى كون أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وكون أوروبا الثانية ضارة ومضرة لها، ذلك لأن النفع والضرر يعود كل منهما إلى فعل من البشر، وليس من فعل الإله جل جلاله؛ وإجابة على هذا التساؤل عني إمامنا -رحمه الله- بتحقيق القول في الأسباب التي جعلت أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وحصر تلك الأسباب في سببين أساسين، أولهما: سبب عقدي لا دخل للبشر في إيجاده، وثانيهما سبب مادي للبشر دخل في إيجاده، وأما السبب العقدي، فإنه يتمثل في التزام أوربا الأولى بالبقية الباقية من النصرانية الحقة التي لم تطالها يد التحريف والتغيير والتضليل والتبديل، ذلك لأن النصرانية الحقة التي أتى بها المسيح -عليه السلام- تحث أتباعها على التعاون والتواصل مع أمم الأرض قاطبة، وتدعو إلى الرحمة والسماحة والتواضع وصلة الرحم، وتنهى عن الظلم والحيف وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وترفع من

شأن الفضائل والخصال الحميدة في المجتمع، وتحط من قدر الرذائل والسفاسف بجميع صورها وأشكالها في المجتمعات، وهذه النصرانية الحقة تقوم في جذورها على الحنيفية السمحاء التي تجمع بين الأديان السماوية كلها، وقد بعث بها أيضا نبينا -عليه صلوات ربي وسلامه- ووصفها ذات يوم بأنها اللبنة التي تكمل بقية البناء.

إن التزام أوروبا الأولى بجملة حسنةٍ من مبادئ النصرانية الحقة هو الذي جعلها نافعة للبشرية، ذلك أن هذا الالتزام عصمها من التسلط والتجبر والتكبر في الأرض علوا واستكبارًا، كما عصمها من الاعتداء على الأبرياء، ودفعها إلى تسخير إنجازاتها لخدمة البشرية وتسهيل حياة الإنسان على الأرض، فضلا عن استعدادها للتعاون والتواصل مع أمم الأرض قاطبة.

وأما السبب المادي الآخر الذي جعل أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإنه يعود -في نظر الإمام- إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها للبشرية من خلال ما توصلت إليه من صناعات وعلوم وإنجازات تخدم القاصي والداني من البشر، وترفع عن العالمين المشاق والصعاب وتذلل لهم العقبات والعراقيل، وتختصر لهم المسافات والاتصالات، وتوفر لهم وسائل الراحة والرفاهية والترفيه، وتقضي على ما كانت البشرية تعاني منه من متاعب في المركب والمسكن وسواهما، فضلا عن ذلك، فإنها ترفض استخدام تلك الإنجازات فيما لا يعود بالنفع على البشرية.

على أنه حري بالتقرير أن أوروبا -الأولى أو الثانية- لم تصل إلى هذا المستوى من الترقي والتقدم والتطور إلا من خلال ما تميزت به من ابتكار وإبداعية وعمق في التفكير والتخطيط والنظام، والتزامها الحزم والانضباط والرويَّة والأناة فيما تقدم عليه من عمل أو صناعة، وفي هذا يقول الإمام النورسي في صيقل الإسلام منصفا القوم كل الإنصاف:

"...كان سبب رقيها -أوروبا- هو التأني في أخذ كل شيء أو تركه... والصلابة في الأمر التي هي من شأن برودة بلادهم... ونمو الفكر والمعرفة والتوجه إلى الصناعة لكثرة السكان وضيق المكان والمساكن... والتعاون والتتبع الحاصلين من وجود الوسائط المساعدة كالبحر والمعادن وأمثالها..."[7]

إن هذه الخصال التي لخصها الإمام النورسي في بيان رفيع تعد في حقيقتها أسباب تقدم الشعوب ونهضة الأمم، كما تعد قيم الحضارات وذروة سنامها، وما أخذت بها أمة من الأمم إلا وكان التقدم المادي والتطور الحضاري نصيبها ورفيقها وحليفها، وما

تخلت عنها أمة من الأمم إلا وكان التخلف المادي، والتأخر الحضاري ملازما لها، وتلك سنة الله الماضية في الأمم قاطبة، ولم ولن تتخلف في أمة قط مهما سمت أو دنت عقيدتها، وبتعبير آخر، اقتضت سنة الله أن الأمم التي تنطلق من هذه القيم وتتمسك بها، لا بد لها من أن تكافء بتقدم وتطور ماديين، وحري بها أن تقود الأمم التي لا تلقي بالا لهذه القيم. وقد أكد هذا الأمر الإمام النورسي فيما ورد عنه في"الكلمات" حيث قال:

"...فمما ينبغي ألا ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة إلا إنها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم، وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية، ولا سيما الشريعة المحمدية، وحاجة الفطرة الإنسانية..."[8]

إن سداد المعتقد وسلامة النية لا يكفيان لبناء الحضارات، كما أنهما لا يكفيان للحفاظ على الحضارات، بل إن بناء الحضارات أو الحفاظ عليها لا بد له من قيم متمثلة في سلوكيات عملية تقوم بتحقيق ما يدعو إليه المعتقد، وترجمة توجيهات المعتقد في واقع عملي ملموس. ويعني هذا أن الانبهار والانخداع بصحة المعتقد وسموه دون التزام أمين بالقيم المشار إليها لا يعدو إلا أن يكون خروجًا سافرًا على سنة الله في قيام الحضارات والحفاظ عليها، كما لا يعدو ذلك إلا أن يكون تأكيدًا على عدم تمكن المعتقد في نفوس الأتباع.

على أنه من الحري بالتقرير أن عدم سداد المعتقد وسلامة النية لا يحولان -بأي حالٍ من الأحوال- دون تحقق التقدم المادي والتطور الحضاري -المظهري على الأقل- إذ إن تحقيق التقدم لا يلزم بالضرورة سداد المعتقد أو سلامة النية، وإنما يكفي الالتزام بالقيم والسلوكيات التي سبق الإشارة إليها. ولهذا، فلا يعجبنّ امرؤ من تقدم أمم أوروبا، وخاصة أوروبا الثانية على الرغم من انفلاتها وتمردها على مبادئ النصرانية الحقة في عالم المثال، بل لا عجب أن يعانق التقدم والتطور حياة بعض الأمم التي نعدها أمما غاية في الإفلاس الأخلاقي والعقدي.

وأيا ما كان من أمر، فإننا نخلص إلى تقرير القول بأن السبب المادي وقبله السبب العقدي هما اللذان جعلا أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وهذا النفع ماض قدما كلما قوي تمسك أوروبا بهما.

ولئن كان هذا تحليلا لأسباب كون أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإن ثمة أسبابا لكون أوروبا الثانية ضارة ومضرة للبشرية، وقد عني الإمام -رحمه الله- بتحرير القول

في هذه الأسباب في جملة من رسائله، منها ما ورد عنه في المثنوي العربي، وهذا نصه:

''...اعلم! يا أيها الأوروبا، إنك أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفيهة، تدعي أن سعادة البشر بهما؛ شلت يداك، وبئست هديتاك...''[9] وقال ما نصه في اللمعات: ''...وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية.. يا أوروبا الثانية! اعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك، وستكون...''[10]

إن نظرة متمعنة في هذا الوصف الدقيق للأسباب التي جعلت أوروبا الثانية ضارة ومضرة، تفضينا إلى تقرير القول، بأنه إذا كان الالتزام بالبقية الباقية من مبادئ النصرانية الحقة أو الدين العيسوي السبب العقدي الأساس في اعتبار أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإن تجرد أوروبا الثانية عن مبادئ هذه النصرانية يعد السبب الأساس في كونها أوروبا ضارة ومضرة بالبشرية؛ وأما السبب الثاني الذي جعل أوربا الثانية غير نافعة، فإن ذلك يعود إلى لجوئها إلى استخدام نتائج الصناعات والإنجازات التي توصلت إليها فيما لا يعود على البشرية بنفع ولا فائدة، بل إنها تقود البشرية إلى مهاوي الدمار والضلال والضياع والتيه، مما جعل هذه الأوروبا أكثر إضرارًا وإساءة إلى البشر.

إن أوروبا الثانية ناقضت أوروبا الأولى من حيث رفضها الالتزام بمبادئ النصرانية الحقة، كما ناقضت من حيث توظيفها إنجازات حضارتها ونتائج علومها وصناعاتها فيما يضر بالبشرية. ورحم الله الشيخ الغزالي عندما عبر عن حالة هذه الأوروبا، فقال: ''...إن المدنية الحديثة قضت على التسامي الروحي، وأيقظت الأثرة الحيوانية، وأقرت نمطا من الحياة بجنون التنمية وزيادة الإنتاج، ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسيسة...''[11]

وانطلاقا من أنه ليس من الوارد تعذر عيش الإنسان على هذه الأرض دون أن يستند إلى معتقد ولو كان فاسدا ودنيئا، فإنه كان لا بد لأوروبا الثانية من أن تتبنى بعد تمردها على الديانة النصرانية ومبادئها، ديانة أخرى محرفة من الديانة الصحيحة الحقة تتخذ من الفلسفة المادية[12] أساسا لها، وتقوم على التنكر الصارخ للخالق المدبر العزيز

الحكيم، وتنأى بنفسها عن مبادئ النصرانية الصحيحة رغم ادعائها إيّاها، كما أنها تلفظ في كثير من سلوكياتها القيم والأخلاق الحميدة التي أتى بها الدين العيسوي، ولا تعترف بثبات تلك القيم أو الأخلاق في المجتمعات، بل إنها ترى قيما وأخلاقا خاضعة للظروف والأزمنة والأمكنة انطلاقا من مبدأ التفسير المادي للتاريخ، والمعتقد والأخلاق، فكل شيء يحدث في المجتمع وفق هذا المبدأ إنما يحدث للظروف المادية، فالمادة هي المسؤولة عن تشكيل المعتقد والأخلاق، وتتأثر سلوكيات الأفراد والجماعات بالمادة. وفي هذا يقول الإمام متعجبا من هذه النظرة المادية لأوروبا الثانية:

''...يا أوروبا الثانية الفاسدة! إنك تستندين إلى أسس واهية نخرة، فتزعمين أن كل كائن حي مالك لنفسه، ابتداء من أعظم ملَك، وانتهاء إلى أصغر سمكٍ، كل يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه، فحسب، ولا يسعى أحد إلا للذاته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة، فغاية همته، وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته... فيا أوروبا ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا ربّ كل شيء، وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة...''[13]

بناء على هذا التفسير الجائر للتاريخ والمعتقد والقيم، لم يكن من عجب أن تتحول الحياة في كثير من الأقطار التي تخيم عليها هذه الفلسفة إلى حياة ملؤها الاضطراب، والإباحية، والسفاسف، والقلق، وقد صوّر الإمام النورسي حالة الحياة التي تسيطر عليها هذه الفلسفة وصفا دقيقا، فقال: ''...فيا أوروبا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة، لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له. إذ يهوي بالإنسان من ذرة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاهيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس، وتخدير الشعور مؤقتا، وكمالياتك المزخرفة وأهواؤك المنومة... فتعسا لك ولدوائك الذي يكون هو القاضي عليك.. نعم إن ما فتحتيه أمام البشرية من طريق يشبه هذا المثال المذكور...''[14]

هكذا حاول الإمام تقريب الصورة التي آلت إليها الأوضاع في أوروبا الثانية نتيجة خروجها وتمردها على كل الديانات، وخاصة الديانة النصرانية بمبادئها الداعية إلى الرحمة والشفقة وحسن الجوار، وصلة الرحم.

إن إمعان الفكر في هذه النظرة النورية إلى المسألة الغربية في تلك المرحلة من تاريخ الأمة، يهدي المرء إلى تقرير القول بأنها كانت نظرة ذات أبعاد منهجية تجعلها جديرة بالدراسة والتحقيق والتحليل، ذلك أنها –على الرغم من قساوة عباراتها حينا على أوروبا الثانية– أصرت على ضرورة التأكيد على التفريق بين أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، كما أبت إلا أن تسلط الضوء بصورة علمية موضوعية على محاسن المدنية الحاضرة والقيم الأصيلة التي مكّنت أوروبا من بناء حضارتها، والتقدم على غيرها من أمم الأرض.

وفضلا عن هذا، فإنه حاول بكل ما أوتي من قوة بيان وسداد فكر أن ينبه العامة والخاصة على مساوئ المدنية الحاضرة التي تترجمها أوروبا الضارة في تصرفاتها وتعاملاتها مع غيرها من أمم الأرض. ولم يخل تحليله لهذه الأوروبا من تأثر بالأهوال الكئيبة والظروف المأسوية التي كانت تمر بها الأمة أيامئذٍ، وقد تجلى هذا التأثر بشدة لغته، وإصراره على استخدام التعبيرات القاسية والمعبرة عن الآلام التي كانت تجتاحه وهو يرى شريحة من أبناء الأمة يسعون جاهدين إلى تقليد أوروبا الضارة، وتجاوز أوروبا النافعة استخفافا من لدن بعضهم، وجهلا من لدن بعض آخر لما تنتظم المدنية الإسلامية التي أفل نجمها بفعل البشر من محاسن وقيم انطلق منها أوروبا النافعة في نهضتها وتطورها وتقدمها.

لئن كانت المنهجية تقتضي الابتعاد عن استخدام العبارات العنيفة، فإنه ينبغي أن يعذر إمامنا العلامة –رحمه الله– عن عدم التزامه في بعض الأحيان بهذا القيد، وما ذلك إلا نتيجة الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية التي سادت واعتلت أيامئذٍ، وكان وقعها على الإمام شديدًا وعظيما.

وأيا ما كان الأمر، فإننا نخلص إلى القول بأن هذه النظرة النورية تستحق التقويم العلمي الشامل، وتستحق أن تكون موضوعا لدراسات وأبحاث علمية جادة في المؤسسات التعليمية الراقية التي تعنى بتحصين الجيل الصاعد بالمناعات العلمية المطلوبة في العصر الراهن للتعامل مع المسألة الغربية بطريقة موضوعية بعيدا عن الانفعالية والعاطفية والحماسية. وإلى أن يقيض الله لهذه المهمة من يروم خدمة الأمة في العصر الحاضر.

المبحث الثاني: تقويم منهجي للنظرة النورية إلى المسألة الغربية

لئن تبدت لنا النظرة النورية إلى المسألة الغربية في ضوء ما توافر لدينا من

معلومات وأقوال مأثورة عن الإمام النورسي، ولئن أدركنا من العرض والتحليل كون تلك النظرة متميّزة عن النظرات السابقة واللاحقة عليها، لذلك، عمدنا إلى هذا المبحث لنقف -بجلاء- على أهم الخصائص المنهجية التي نخال النظرة النورية قد تميّزت بها عن النظرات التي حاولت تحليل المسألة الغربية وإبرازها للعالمين، بيد أنها في معظم الأحيان لم تخل -كما أسلفنا- من الافتقار إلى العديد من الخصائص المنهجية التي ينبغي توافرها في التحليلات العلمية للمسائل الشائكة والمتشعبة كالمسألة الغربية.

وبالرجوع إلى أهل العلم بمناهج البحث والتحقيق والمتخصصين في تحليل الأفكار والآراء، نجد ثمة اتفاقا بينهم على أن التحليل العلمي الدقيق للأفكار ينبغي أن تتوافر فيها جملة من الأسس الضرورية الهامة، ومن أهمّها: الموضوعية، والعلمية، والشمولية. فيعد التحليل علميّا وحقيقيا إذا انتظمت هذه الركائز. ومن ثم، فإن تقويم أي تحليل أو نظرة أو فكرة، ينبغي أن يتمحور حول التحقق من درجة توافر هذه الأسس العاصمة للتحليل من الانحياز والتطويع والتجزيء والجزئية.

وإذ الأمر كذلك، وهو كذلك، فسنقف عند أسس النظرة النورية إلى المسألة الغربية:

أولا: الموضوعية:

لا شك أنه من طبيعة الأفكار والآراء التأثر المباشر وغير المباشر بالقناعات القبلية والتقلبات الزمانية والمكانية والعادية، ومن الصعب بالمكان أن يتجرد المفكر تجردا كليا من ترسبات ظروف الزمان وآثار تقلبات الأيام والأحوال، وكثيرا ما تدفع الظروف والأحوال المفكر إلى تبني مواقف وآراء تعكس التأثر السلبي أو الإيجابي بالظروف والأحوال، ولا يسلم من هذه الظاهرة من المفكرين والعلماء إلا فئة قليلة يتميزون بالصمود أمام العواصف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويتحلون بالتأمل والتأني والأناة في نظرتهم إلى ما يداهم ساحتهم من مستجدات وأحوال وأهوال. ولعل نظرة سريعة فيما يعج به عالم الكتابة والتأليف من أبحاث ودراسات وكتب، تنبئك أن للزمان سطوة وتأثيرا ظاهرا على عامة المفكرين في تصوراتهم ونظراتهم إلى الأشياء والمسائل.

ومن ثم، تواتر عند العالمين عدم الاعتداد بالتاريخ مصدرا للتشريع، كما تواتر عند أهل العلم بالأصول والفقه أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والعادات

والتقاليد، ويكاد علماء الرجال -الجرح والتعديل- يتفقون على عدم قبول رواية المحدثين الذين ابتلوا في المحن أو شاركوا في الفتن والاضطراب، ومرد هذا كله إلى الاعتراف الأكيد بتأثير الزمان والمكان الإيجابي أو السلبي على تفكير المفكر ونظرته إلى الأشياء وحكمه على الظواهر.

ولئن كان هذا الأمر جليا يدركه أولئك الذين يتعاملون مع أعمال المفكرين ويغوصون في أعماق مراميهم ومقاصدهم، فإن نظرة متمعنة في جل أعمال الإمام النورسي، تدلك على محاولته الدائبة والدائمة في الابتعاد عن إخضاع أفكاره وآرائه الإصلاحية لظروف الزمان والمكان، وتقلبات الأيام والأحوال، وإصراره على ضرورة جعل الأفكار والآراء حاكمة على الزمان والمكان لا محكومة بهما، فالزمان والمكان في نظره الصائب يجب أن يخضعا للآراء والأفكار لا لأن تخضع لهما الأفكار والآراء. ومقتضى هذه النظرة الابتعاد عن التأثر بتقلبات الأهواء والشهوات والإرادات عند الصدع برأي أو فكر، كما أن مقتضى هذه النظرة التجرد من القناعات القبلية المنسوجة إزاء شيء من الأشياء أو ظاهرة من الظواهر التي تحدث في المجتمع، وهذا ما نرومه من الموضوعية.

وقد أوفى نظرة الإمام النورسي -رحمه الله- إلى المسألة الغربية على الموضوعية والتجرد والوضوح، إذ إن نظرته تجاوزت الرضوخ لظروف الزمان التي كانت سائدة أيامئذٍ، وتجاوزت استحضار تقلبات المكان والتأثر بها، فعلى الرغم من الظروف النفسية العويصة الصعبة التي كانت الأمة الإسلامية تمر بها إبان الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من سيطرة الشعور بالهزيمة واليأس لدى البعض، واستعلاء الشعور بالانبهار والانخداع، فإن الإمام النورسي أبى أن تكون نظرته أسيرة لأي من هذين الشعورين المتأثرين بظروف الزمان والمكان والأحوال السائدة.

ولكأني بالإمام وهو يقدم نظرته القائمة على الموضوعية العلمية، يريد أن يقرر بجلاء ضرورة العودة إلى المنهج القرآني عند التعامل مع الأفكار والأشخاص، وهذا المنهج يرفض تبعية تعاليم الشرع للزمان والمكان غير الطبيعين، ويراهما تابعين وخاضعين لها، وفي هذا يقول المولى الكريم مخاطبا نبيه عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾،[المائدة:٧] وقال في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ

الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[المائدة:٢] وقال أيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.[النساء:١٣٥]

إن هذه الآيات الكريمات ومثيلاتها في الذكر الحكيم والأحاديث النبوية المتكاثرة تأكيد وتقرير بأن الموضوعية هي السمة الأساسية التي تميز شخصية المسلم عن غيره، وتجعل حكمه ونظرته إلى الأشياء والأفعال نظرة منصفة لا مكان فيها للأهواء والنزوات والتقلبات والاضطرابات، وأي حيدة عن الموضوعية، فإن من شأن ذلك أن يقود المرء إلى الظلم وعدم الإنصاف، وبخس الناس أشياءهم بغير حق، ومادام الظلم والحيف محرما في الشرع، فإن التغاضي عن محاسن المخالف وغمطه حقه يعد ذلك محرما بحسبانه ظلما، وقد حرّم الله الظلم على نفسه، وجعله محرما بين عباده.

ومن ثم، فإن نظرة المفكر المنصف الحصيف الرزين إلى المسألة الغربية ينبغي لها أن تكون موضوعية بحيث يبدي ما فيها من محاسن، ومساوئ، ولا يجوز لها نسبة محاسن إليها ليست فيها، أو نسبة مساوئ إليها، وكل ذلك يعد جورا وحيفا وظلما.

الثانية: العلمية والشمولية:

من المتفق عليه بين أولى العلم والنهى أن نظرة المفكر المنصف الواعي إلى الأحداث والمسائل ينبغي لها أن تختلف عن نظرة العامة وأنصاف المفكرين والعلماء، فالمفكر الحصيف يسمو بنظرته من أن تتأثر وتخضع لأهواء العامة وشهوات الحكام، ويدفعه ضميره الحي إلى التغلب على لحظات الغضب والانفعال عند البوح برأيه أو نظرته في مسألة من المسائل، ولا يمكن أن يعد المفكر مفكرا حقيقيا إذا كان همه إرضاء العوام، أو تكلف التقرب إلى الحكام على حساب فكره ورأيه ونظرته.

ومن ثم، فإن قراءة متأنية في الطروحات الفكرية التي تعج بها الساحة الإسلامية، تهدينا إلى الزعم بأن ثمة نجشا فكريا عمَت به البلوى في عالم الأفكار والآراء، كما تهدينا تلك القراءة إلى تقرير القول بأن هنالك فصامًا نكدا وانفصالا واضحا بين ما يحمله ضمير كثير من المفكرين من آراء وأفكار، وبين ما تدبّجه أقلامهم من آراء وأقوال وأفكار، ومرد هذه الازدواجية في عالم النخب والمفكرين إلى الرغبة العارمة

إما: في إرضاء العامة وكسبهم العوام، أو التزلف إلى رجل السيف والتقرب منه بأبخس الأثمان وأنحس الطرق والوسائل. ولهذا، فلا غرو أن تنتعش وتروج في الواقع الإسلامي سوق الأفكار المنحوسة والتحليلات المدسوسة التي جلبت ولا تزال تجلب مزيدًا من التفتت والتشتت والتفكك للسواد الأعظم من أبناء الأمة.

ولقد كان من نتائج هذا الانحراف الفكري أن عاشت الأمة ولا تزال تعيش رهينة وفريسة التحليلات الفكرية المغشوشة والنظرات المتطرفة إلى المسألة الغربية والتي لا تخلو من أن يكون تطرفا إلى أقصى اليمن أو تطرفا إلى أقصى اليسار، واعتبارا بأن سياسات الأمم والدول ترسم في ضوء تلكم التحليلات التي يقدمها المفكرون أو المحسوبون على الفكر، فإنه ليس من عجب أن يشهد العالم الإسلامي انقساما وتوزعا بين هذه التحليلات المتطرفة، إذ إن عموم الأمة والشعوب الإسلامية في أرجاء المعمورة اختارت إما: الجنوح التام للغرب بحسبانه الملاذ والمخرج مما نحن فيه من تخلف وتأخر، أو الارتماء في أحضان الرفض التام للغرب بوصفه مصدر ومحور الشر الدائم للعالم الإسلامي، وباعتباره سبب كل الرزايا والبلايا والمآسي التي تجتاح العباد والبلاد.

إن غياب العلمية والشمولية في معظم الدراسات والأبحاث التي عني أربابها بتناول المسألة الغربية من زاوية ضيقة لهو المسؤول مسؤولية تامة عن هذه المواقف غير المتوازنة من المسألة الغربية، وبالتأمل في النظرة النورية إلى هذه المسألة، يجد المرء أنها سمت بنفسها من الوقوع في هذا التغييب المتعمد للعلمية والشمولية والموضوعية، إذ إنها اتسمت -كما رأينا- بتسليط الضوء على المسألة بصورة متوازنة وصريحة بعيدًا عن التأثر بتقلبات أهواء العوام، وأمزجة رجال السيف في تلك الأيام، ولقد اختار الاعتدال والوسطية في النظر إلى هذه المسألة، كما ابتعد عن التطرف لأقصى اليمين أو لأقصى اليسار، فالغرب في نظرته ليس كله شرا، وليس كله خيرا، بل إن العقيدة النصرانية الحقة هي الأخرى ليست عقيدة خالية من المبادئ السامية والخصال الحميدة، وليست هي المسؤولة عن نشأة ما سمّاه بأوروبا الثانية الضارة، وبالتالي، فإن التعامل معه ينبغي أن يقوم على استحضار أمين لهذا البعد، كما أن الحكم عليه ينبغي أن يتأسس على التمييز بين الغرب النافع والغرب الضار.

وفضلا عن هذا، فإنه لا ينبغي تحميل عقيدة أو دين التصرفات التي تقوم بها أوروبا الثانية، فالأديان السماوية كلها لا تقر بأي من تلك التصرفات، بل إن الأديان كافة تندد

بها، وتنعى على فاعليها، وتتبرأ منها تبرؤا، وتراها شؤما ووبالا عليها. وعليه، فإن تلك الأوروبا تمردت على مبادئ الأديان السماوية كافة، وخاصة منها الديانة النصرانية الحقة، كما أنها تبرأت من المبادئ السامية التي تدعو إليها تلك الديانة، الأمر الذي صيَّرها أوروبا ضارة ومضرة بالبشرية جمعاء. وليس أدل على هذا من أن أوروبا الأولى التي تختلف في تصرفاتها وتعاملاتها عن أوروبا الثانية، كانت نافعة لأنها احتمت بالعديد من مبادئ النصرانية الحقة، كما أنها سخرت إنجازاتها وإمكاناتها وصناعاتها لخدمة البشرية، وتسهيل حياة الإنسان على الأرض بعيدا عن الاستعلاء والتجبر والطغيان والاعتداء والاستكبار.

إن علمية الطرح النوري لم تتوقف عند هذا الحد من النظرة الوسطية المعتدلة إلى الديانة النصرانية والمسألة الغربية، بل إن الإمام النورسي -رحمه الله- أصّر على ضرورة إبراز القيم والأسباب المادية التي مكنّت أوروبا من بناء حضارتها وتقدمها على غيرها من أمم الأرض، ويتمثل تلك القيم فيما تميزت ولا تزال تتميز به من التأني والانضباط والانتظام والصلابة والحزم وحسن التخطيط لكل ما تقدم عليه من عمل أو تصرف.

إن هذه القيم التي تعد في حقيقتها محاسن أوروبا ترتد في جذورها إلى المبادئ الشرعية التي دعا إليها ديننا الحنيف، غير أن عامة المسلمين في أرجاء المعمورة تجاوزوها وتغافلوا عنها، واستبدلوها بغيرها، وتشكو بلدانهم وأقطارهم من غياب هذه القيم وانعدامها شبه الكلي في كثير من الأحيان، ولا غرو -إذا- أن تكون النتيجة الحتمية -وفق السنة الإلهية- تقدم أوروبا وتفوقها على العالم الإسلامي في مجال الصناعة والتقنية والفنون، ولا عجب أن تحل حضارة أوروبا محل الحضارة الإسلامية، بل لا عجب في أن تخدم الحضارات تابعة وخاضعة لإملاءات الحضارة الغربية المتمكنة.

على أنه من الجدير بالتحرير والتقرير أن التزام الإمام النورسي العلمية في نظرته إلى المسألة الغربية لم يتوقف عند إبرازه محاسن أوروبا الأولى، والإشادة بالأسباب والمبادئ التي أقامت عليها تقدمها وتطورها ونهضتها، ولكنه انتظمت تلك العلمية تحليلا صريحا وواضحا لمساوئ أوروبا الثانية التي تمردت -كما سبق- على الدين العيسوي وعلى مبادئه الإنسانية، فهذه الأوروبا في نظرة الإمام -رحمه الله- هي المسؤولة عن جزء كبير من الشقاء والتعاسة التي يعيش فيها السواد الأعظم من البشرية، وقد أضرت هذه الأوروبا بالإنسانية، إذ إنها دفعت بإنجازاتها ونتائج علومها

وصناعاتها إلى الإضرار بالإنسانية، كما أنها تعد في حقيقتها شقية وقلقة ومضطربة، ويعزو الإمام شقاء هذه الأوروبا إلى تمردها على مبادئ النصرانية الحقة، واستخدامها ما منّ الله به عليها من إنجازات وصناعات فيما لا يعود إلا بالشر والضرر على البشرية. ولهذا، فإن على العالم الإسلامي الابتعاد عن هذه الأوروبا، فإنها لن تزيده إلا تخلفا وتأخرا وتقهقرا وارتكاسا وانتكاسا.

وصفوة القول، لقد أوفت النظرة النورية على العلمية والشمولية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العصر الراهن في تعاملها مع المسألة الغربية، وكان مقتضى هذه العلمية والشمولية ضرورة العودة الصادقة إلى تبني الأسباب والخصال الحميدة التي استندت إليها أوروبا في بناء نهضتها وتقدمها وحضارتها، كما كان مقتضاها ضرورة الوعي على أهمية الأديان وخاصة الأديان السماوية في ترشيد الإنجازات والصناعات وتسخيرها لخدمة البشرية والإنسانية، فليس ثمة دين سماوي يدعو أتباعه إلى تدمير البنى التحتية للأمم، وسفك الأرواح، وهتك الأعراض، وإبادة الممتلكات، والاستعلاء في الأرض، والتكبر على العباد، والخضوع للشهوات والنزوات، فكل أولئك آفات وأمراض تواترت الأديان السماوية على محاربتها والوقوف منها موقف الرفض والإنكار.

أجل، إنه ليس من عجب أن تكون العلمية حاضرة في جميع جوانب النظرة النورية، ذلك لأن الإمام -رحمه الله- تشبع من فهمه للمنهجية القرآنية القائمة على العلمية المتمثلة في الدعوة المستمرة إلى الوسطية ورفض الغلو والتطرف والتزمت في السلوك والمعتقد والتصرف، فقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة التي تدعو المسلمين إلى التزام الاعتدال والوسطية في أفكارهم وتصرفاتهم، ومن ذلك قوله تعالى واصفا الأمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾البقرة:١٤٣ وقوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾،الفرقان:٦٧ وثمة نصوص عديدة في هذا المجال لا يتسع المقام لعرضها.

إن تبرأ الشرع الحنيف من الأمراض الفكرية المتمثلة في الغلو والتطرف والتزمت والتبرم، يعود إلى كون هذه الأمراض الأسباب الرئيسة وراء الانزلاقات الفكرية والزلات العقدية، ذلك لأن غياب الاعتدال والوسطية في التفكير والتحليل والتقويم ينتج عنه نشأة تلك الأمراض، كما ينتج عنه إصابة الأمم في ضعف في رؤيتها، ووهن في سلوكياتها، وعجز في تعاملها مع أزماتها ومشكلاتها.

ومهما يكن من شيء، فإن ما نراه اليوم من تصرفات هوجاء وسلوكيات حمقاء ناتجة عن الغلو والتطرف والتزمت من لدن بعض أتباع الأديان السماوية، لا ينبغي نسبتها إلى الأديان السماوية، فجميع تلك الأديان بريئة من كل دم يسفك باسمه، ومن كل عرض يهتك باسمه، ومن كل مال يباد باسمه.

إن الحوار والسلام والأمان والأمن والاستقرار يعد أولئك ركائز وأسسا دعت إلى توفيرها وتعميقها وتثبيتها جميع الأديان السماوية، ولم يشذ عنها دين سماوي قط، وقد حاول الإمام النورسي -رحمه الله- تقرير هذا التفكير والتأكيد عليه، سعيا منه إلى القضاء على تذرعات المتذرعين، وخداعات الخادعين والمخادعين الذين يستندون إلى الأديان السماوية في تصرفاتهم المخالفة لتعاليم تلك الأديان جملة وتفصيلا.

المبحث الثالث: النظرة النورية وواقع العالم الإسلامي.

ليس بخاف على أحد أن الأمة الإسلامية اليوم على مفترق الطرق، وتمر بمنعطفات خطيرة، كما تواجه تحديات جسيمة، مما يجعل مفكريها مطالبين اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن يتسموا بالشجاعة الفكرية في نظراتهم، وأن يتحلوا بالرشد العلمي في تحليلاتهم، وأن يسموا في أفكارهم وآرائهم على الخضوع لتقلبات أهواء العوام ولضغوطات المؤسسات المتسلطة على الأفكار والأحلام، فواجبهم اليوم الأخذ بأيدي الأمة نحو سبل الرشاد، والبوح مخلصين وصادقين بما يملي عليهم ضمائرهم البوح به تجاه الأحداث العالمية المتراكمة والمتعاقبة والمتلاحقة.

إن المرحلة الفكرية الراهنة لعموم الأمة عويصة وشاذة ومعقدة، والواقع السياسي للسواد الأعظم من الديار الإسلامية لا يسر الأعداء ولا الأصدقاء، وينذر بمزيد من الآلام والمعاناة والإحن والمحن إذا لم يشمل الأمة لطف من الله في قدره وقضائه. إنه ليس بخاف على أحد من الغيارى والمفكرين صنوف الأعراض والأمراض التي تجتاح الأمة، وطمع القوى والتكتلات العالمية في ثرواتها ومواردها الطبيعية، فضلا عن تلذذ المكابرين بامتهان كرامتها وعزتها، مما جعل وزن الأمة يشهد يوما بعد يوم تراجعا وتقهقرا في المحافل الدولية.

إن هذه المحن القاسيات والفجائع المبكيات هي التي دفعت الإمام النورسي -رحمه الله تعالى- أن ينذر حياته للتنبيه عليها، وتحذير الأمة من عواقبها، مما جعله بحق رجل القدر في حياة أمة. إننا نعتقد أن عموم الأمة مسؤولة عن هذه الظروف الاستثنائية، وتقع المسؤولية على النخب والمفكرين الذين رسموا للأمة سياساتها

وعلاقاتها مع المحتلين والغزاة، حيث إنه بفعل من النخب غدت دول العالم الإسلامي -إلى وقت قريب- متوزعة على ما كان يعرف بالمعسكر الغربي والمعسكر الشرقي، وبانتصار المعسكر الغربي على المعسكر الشرقي، أجبر المنضوون تحت لواء المعسكر الشرقي على اللحاق القسري بالمعسكر الغربي الذي كانوا يحسبونه ذات يوم محور شر ومصدر شقاء البشرية والإنسانية برمتها، وأما المحتمون بتوجيهات المعسكر الغربي، فقد ازدادوا تمسكا وتوغلا في الخضوع والخنوع لتوجيهات هذا المعسكر، وخاصة بعد انتصاره الباهر على غريمه السابق.

أمام هذه الظروف الاستثنائية، يجب على النخب والمفكرين اليوم أن تتفتق أذهانهم، وتجود قرائحهم -مخلصين وجادين- بالآراء والأفكار التي من شأنها إخراج الأمة من حالة التيه الفكري والانسحاب الحضاري، وذلك من خلال التزام الموضوعية والعلمية في النظرة إلى سائر المسائل والقضايا التي تتعلق بالأمة، وخاصة المسألة الغربية التي زلت فيها الأقدام، وضلت فيها الألباب، وتناقضت فيها الاتجاهات.

لئن تأمل المرء في النظرة النورية وما حوته من إشراقات وتحليلات قيمة، ولئن تابع المرء بدقة وإمعان الظروف العالمية التي كانت سائدة يوم أن باح الإمام -رحمه الله- بهذه النظرة، فإننا سنجد أن أوروبا التي كان يعنيها في نظرته لم تكن منقسمة على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، وإن قامت بينها الحروب والقلاقل والأزمات، بيد أنه كان يعني بنظرته ما يوجد في حضارة أوروبا ومدنيتها من محاسن ومساوئ، وعدّ محاسنها أوروبا قائمة بحد ذاتها، كما اعتبر مساوئها أوروبا الثانية المختلفة عن الأولى.

لكأني بهذه النظرة النورية الشاملة تستشرف المستقبل وتؤكد بأن أوروبا ستنقسم -إن عاجلا أو آجلا- على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة! وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد تحقق هذا الاستشراف النوري في القرن الحالي الذي نعيش فيه، ذلك لأن أوروبا (الغرب) غدت اليوم منقسمة إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، فأوروبا النافعة تنعم بالتزام قياداتها بالبقية الباقية من مبادئ النصرانية الحقة، وأما أوروبا الضارة اليوم، فإنها -وإن ادعت انتماء إلى النصرانية- غير أن أفعالها وتصرفاتها تنبئك أنها أمست ضارة ومضرة بالبشرية جمعاء، ولا يعدو انتماءها إلى الدين العيسوي أن يكون انتماء صوريا فجا هشا كما لا يخفى ذلك على أحد من أولي النهى والألباب.

وبناء على هذا، فإنه حري بعموم الأمة وخاصة نخبها ومفكريها المخلصين الغيارى

أن يستأنسوا وينطلقوا من النظرة النورية العلمية والموضوعية إلى المسألة الغربية مفرقين في أطروحاتهم بين أوروبا النافعة (=الغرب النافع) وأوروبا الثانية (=الغرب الضار)، فأوروبا النافعة ينبغي التواصل معها، وفتح حوارات واسعة معها، والبحث عن السبل الممكنة لتعميق العلاقات والاتصالات بينها وبين العالم الإسلامي على مختلف الأصعدة والمجالات سعيا إلى إسعاد الإنسانية والبشرية برمتها، وإيمانا بأن تلك الأوروبا تشاطر العالم الإسلامي أحلامها وآمالها وتطلعاتها. فليس من مصلحة العالم الإسلامي أفرادا وشعوبا محاربة العالم كله، كما أنه من المكابرة إعلان الحرب كل الحرب على الغرب كل الغرب دون تمييز وتفريق بين الغرب النافع منه والغرب الضار؛ بل لا بد من استثمار ما في الغرب النافع من محاسن وخيرات وتوظيفها لخدمة قضايا الأمة ومساندة مواقفها، بل لا يجب على النخب والمفكرين المخلصين البحث عن كافة السبل الممكنة لمحاورة الغرب الضار والسعي نحو تحويله إلى غرب نافع، ذلك لأن ضرر هذا الغرب لا يعدو أن يكون تمردا منه على النصرانية الحقة، وخروجا سافرا على ما تدعو إليه مبادئ الدين العيسوي، ولهذا، فإن هذا الضرر في حقيقته ضرر طارئ غير مؤصل في العقيدة التي يدعيها هذا الغرب المارد المائل عن مبادئ النصرانية، وصدق المفكر الإسلامي المعاصر الدكتور أحمد كمال أبو المجد عندما قال:

"...ليس من شك في أن الأديان السماوية تقوم جميعها على الإصلاح الإسلامي... لذلك، فإن أتباعها، أيا كانت انتماءاتهم الثقافية الأخرى، مطالبون بوضع أيديهم في أيدي المسلمين، ليقدموا في ثقة وتواضع هذا الإسهام الإصلاحي الكبير الذي تتطلع إليه الشعوب بعد أن فسدت العلاقات، وتقطعت الموادت، وصارت أهوال الحروب أقرب وقوعا مما يظن الكثيرون ممن أصمَّت أسماعهم نداءات العولمة وتقارب الشعوب..."[15]

وعليه، فإنه لا ينبغي إغلاق الحوار مع هذا الغرب، بل يجب محاورته بالتي هي أحسن بغية إزالة ما ران على قلبه من مواقف سلبية ومخلفات مزورة وملفقة تجاه قضايا الأمة.

وعليه، فإنه لم يعد ينفع العالم الإسلامي اليوم -قادة وشعوبا- الإصرار كل الإصرار على تحميل الآخرين -وخاصة الغرب- مسؤولية ما يجتاح الأمة من جوائح

وفجائع وفظائع واعتداءات، كما لم يعد يسعفنا التوغل في المثاليات وانتظار المدد السماوي دون الأخذ بالأسباب والعوامل، فذلك المدد حاشاه أن يدركنا إذا لم نغير من واقعنا الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل لا ينبغي لنا أن نطمع في ذلك المدد ما لم تغد قيم بناء الحضارات والحفاظ عليها حاضرة في تصرفاتنا وتعاملنا مع الظواهر المختلفة، وصدق الله جل في علاه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾،[الرعد:١١] ويوم أن تعود الأمة إلى دينها، وتخلص في نيتها، وتطبق القيم التي تبنى عليها الحضارات، يؤمئذ سيتحقق لها ما وعد الله به في قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور:٥٥] وذلك وعد الله ومن أوفى بعهده من الله!

وصفوة القول، إذا أرد العالم الإسلامي اليوم الإسهام في بناء عالم آمن مسالم متحاب ومتعاون ومترابط، فإنه حري بنا إعادة النظر في علاقاتنا مع الآخرين، وجعل الإيمان بالتعددية والتنوع قاعدة إيمانية لا نحيد عنها، بل نبني عليها الجسور مع أتباع الديانات الأخرى، وخاصة منها الديانات السماوية، لا بد من الانفتاح على هذه الديانات، والتواصل معها لمصلحة الإنسانية، ومقتضى هذا ضرورة إعادة النظر الحصيف في كثير مما قررته المدونات الفقهية حول علاقة المسلمين بغير المسلمين، وخاصة فيما يتعلق بتقسيمات الدنيا إلى دار إسلام ودار كفر، ودار حرب ودار عهد، والأحكام التي نسجوها حول هذه التقسيمات. فليس من شك في أن هذه التقسيمات صياغات فقهية لا تسمو على المراجعة والتقويم والتعديل في ضوء ما يموج العالم اليوم من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية لم يكن لها وجود يوم أن صيغت تلك الاجتهادات الفقهية حول رسم علاقات المسلمين بغيرهم.

وعند هذا القدر نصل إلى نهاية هذه الوريقة سائلين المولى الكريم أن يجزي عنا إمامنا خير الجزاء، ويجعل الجنة مثواه، وأن يلطف بالعالم الإسلامي في قدره وقضائه، ويكشف عنه الهم والغم والوهن والمحن، إنه ولي ذلك وعليه قدير. وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا وإليه ننيب.

* * *

الهوامش:

[1] أ.د. قطب مصطفى سانو: المدير السابق للمعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية، بماليزيا.

[2] انظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي (بيروت، المكتبة العصرية، طبعة ثانية عام ١٩٩٦م) ص١٣٧ بتصرف.

[3] لقب ''سعيد الجديد'' أطلقه الإمام النورسي على نفسه من وصوله منفيا إلى مدينة (بارلا) سنة ١٩٢٧م وحتى خروجه من سجن أفيون سنة ١٩٤٩م. والجدير ذكره أن الإمام النورسي كان يقسم حياته إلى ثلاث مراحل، كان يسمي أولاها مرحلة ''سعيد القديم'' وتبدأ هذه المرحلة من السنوات المبكرة لحياته إلى وصوله منفيا إلى بارلا سنة ١٩٢٧م، وأما المرحلة الثانية، فكان يسميها مرحلة ''سعيد الجديد'' وتبدأ من سنة ١٩٢٧م إلى سنة ١٩٤٩م، وأما المرحلة الثالثة، فكان يسميها مرحلة ''سعيد الثالث'' وتمتد من فترة خروجه من سيجن آفيون سنة ١٩٤٩م إلى انتقاله إلى جوار المولى الكريم سنة ١٩٦٠م. ولكل مرحلة من هذه المراحل طابع اختصت به، ولمزيد من المعلومات حولها، يراجع ما كتبه الأستاذ أورخان محمد في كتابه القيم'' سعيد النورسي، رجل القدر في حياة أمة'' (إستانبول، شركة النسل، طبعة أولى ١٩٩٥م) ص٢٣٩-٣٠٤.

[4] انظر: اللمعات، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي (استانبول، شركة النسل، طبعة أولى عام ١٩٩٣م) ١٧٨-١٧٧ بتصرف واختصار.

[5] انظر: المثنوي العربي، بديع الزمان النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، شركة سوزلر، طبعة رابعة عام ١٩٩٩م) هامش ص ٢٦٨.

[6] انظر: صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، شركة النسل للطباعة، طبعة أولى عام ١٩٩٥م) ص ٣٥٥.

[7] انظر: صيقل الإسلام ـ مرجع سابق ـ ص٥٧.

[8] انظر: الكلمات، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، شركة سوزلر، طبعة أولى عام ١٩٩٢م) ص٨٥٨ باختصار.

[9] انظر: المثنوي العربي ـ مرجع سابق ـ ص ٢٦٨.

[10] انظر: اللمعات ـ مرجع سابق ـ ص١٧٧.

[11] انظر: سر تأخر العرب والمسلمين ـ محمد الغزالي ـ (القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، طبعة أولى عام ١٩٩٥م) ص٤٥ بتصرف...

[12] يقرر المفكر الإسلامي المعاصر رجاء جارودي أن الثقافة المادية التي تبنتها أوروبا الضارة تقوم على أربعة مبادئ، وهي: الفصل بين العلم والحكمة، أي الفصل بين الوسائل والغايات، فالحياة الدنيا غاية في ذاتها، وليس وراءها حياة أخرى، ٢ـ إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص، ومقدارها المادي مع استبعاد كل أثارة للحب والإيمان والمعاني الروحية. ٣ـ الفردية أو الأنانية التي تجعل امرءًا ما أو جماعةً ما، المحور والمقياس لكل شيء، وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنا مؤقتا بين الأطماع المتنافسة. ٤ـ إنكار التسامي، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتاهات المفروضة، والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على الكم، وتستبعد الخلق والحرية والأمل...'' انظر: نقلا من كتاب الدور الحضاري ص٨٥-٨٦ بتصرف واختصار.

[13] انظر: اللمعات ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٠.

[14] انظر: المرجع السابق ص١٧٨.

[15] انظر: الدوري الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، نخبة من الباحثين والكتتاب، (قطر، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة أولى عام٢٠٠٠م) ص ٧٤.

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع الأستاذ بديع الزمان النورسي

يمثّل الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي أحد الملهمين في العصر الحديث، فقد قيّض له الله عزّ وجل تحصيلا علميا دقيقا، والتزاما أخلاقيا صارما تجلى في نفس أبية، فلا طمع في سومه فضلا عن التفكير بشرائه بأغلى ما في الكون فكيف بأبخسها، وفضلا عن كلّ ذلك فقد زرقه الله نباهة ذهنية، يسّرت له بتوفيق من الله ترتيب الأولويات، وسلوك أنفع الأساليب في دفع الشكوك واستنبات الإيمان باليقين، فكان جهده مميّزا في إثبات وتثبيت حقائق الإيمان، بقصد بعث الأمة الإسلامية من جديد تأسيسا لنهضة حضارية متكاملة، أساسها الرؤية الحضارية التي يؤسس لها الدين الخاتم.

لعلّ من أهم الأساليب التي سلكها الأستاذ في تربية القارئ والسامع والمبلّغ عموما، أسلوب الحوار، وكان أحيانا يستعير بعض الأساليب الأدبية الراقية، فيتوارى بها أحيانا عن الرقيب، ويختار أحيانا أخرى البوح إن اقتضت ضرورة التبليغ ذلك.

اخترنا عيّنة من حوارات الأستاذ للدلالة على أهمية الحوار في تبليغ المعاني الحضارية الراقية، كما اخترنا العيّنة بوصفها من أهم شواهد النباهة الحضارية عند الأستاذ، فقد بدا فيها سؤال الحاضر ظاهرا جليا، تشغله عقبات الراهن التي حالت دون استئناف الحضارة الإسلامية دورها في إسعاف الإنسانية مرضاة لله تعالى.

من النصوص الحوارية الراقية بهذا الصدد، نص ظاهره حوار في المنام، شاهده ما عنون به الأستاذ النص، فقد سماه ''حوار في رؤيا''، وهو حقيق بهذا العنوان، لأنّه بالفعل هو كذلك ''حوار في رؤيا''، إلاّ أنّه من نوع الرؤيا التي تأتي كما جاءت في الواقع لا تحيد عنه قيد أنملة.

قرأنا النص وحاولنا الوقوف عند أهم ما تضمّنه، وكانت الرغبة صادقة في قراءته، وتحليله، ولكن بعد تقليب الموضوع من كلّ جانب، رأينا أن نترك الفرصة للأستاذ للكشف بنفسه عما يدور في خلده من خلال حواره الذي أجراه في المنام، ولكننا

تدخّلنا في الأسئلة، ترتيبا وتبويبا، سعيا منا لاستجلاب الأبعاد الحضارية والتربوية من نص الحوار.

آثر الأستاذ أن يكون عنوان النص ''حوار في رؤيا'' خدمة للقارئ الكريم، وتنويها وتنبيها إلى معاني الحضارية في النص.

السؤال الأول: الأستاذ بديع الزمان حدّثنا عن قصة الحوار في اليقظة والحوار في المنام.

أؤكّد بأنّ حوار في رؤيا: ''المعنى وكذا الألفاظ التي ظلت في الخاطر هي نفسها كما جاءت في الرؤيا.''

كنت في أيلول سنة ١٩١٩ أتقلب في اضطراب شديد، من جراء اليأس البالغ الذي ولّدته حوادث الدهر. كنت أبحث عن نور بين هذه الظلمات المتكاثفة القاتمة... لم أستطع أن أجده في يقظة هي رؤياً في منام. بل وجدته في رؤيا صادقة هي يقظةٌ في الحقيقة.

السؤال الثاني: ما هي تفاصيل ما صادفك في الرؤيا؟

سأسجل هنا النقاط التي استنطقتها وأُجريت على لساني من كلام، دون الخوض في التفاصيل. وهي كالآتي:

دخلتُ عالم المثال في ليلة من ليالي الجمعة. جاءني أحدهم وقال:

- يدعوك مجلس موقر مهيب منعقد لبحث مصير العالم الاسلامي، وما آلت إليه حاله.

فذهبت، ورأيت مجلساً منوراً قد حضره السلف الصالحون، وممثلون من العصور، من كل عصر ممثل... لم أر مثيلهم في الدنيا.. فتهيبت، ووقفت في الباب تأدباً واجلالاً.

السؤال الثالث: ما أول الأسئلة التي عرضت عليك؟

قال أحدهم موجهاً كلامه لي:

- يا رجل القدر!... ويا رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك!... بيّن رأيك في هذا الموضوع. فإن لك رأياً فيه. قلت وأنا واقف: سلوني أُجبْ!

السؤال الرابع: هل اكتفوا بالسؤال الذي اشرتم إليه؟

قال أحدهم:

- ماذا ترى في عاقبة هذه الهزيمة -التي آلت اليها الدولة العثمانية- وماذا كنتَ تتوقع أن يؤول إليه أمر الدولة العثمانية لو قُدِّر لها الانتصار؟.

قلت: إن المصيبة ليست شراً محضاً، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء، مثلما قد تفضي السعادة الى بلاء... فهذه الدولة الإسلامية التي أخذت على عاتقها -سابقاً- القيام بفريضة الجهاد -فرضاً كفائياً- حفاظاً على العالم الاسلامي وهو كالجسد الواحد، ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء لأجله، وحملت راية الخلافة إعلاءً لكلمة الله وذوداً عن استقلال العالم الاسلامي... ستعوّض عما أصابتها من مصيبة، وستزيلها السعادةُ التي سوف يرفل بها عالم الاسلام.

إذ عجّلت هذه المصيبة بعث الأخوة الاسلامية ونماءها في أرجاء العالم الاسلامي، تلك الأخوة التي هي جوهر حياتنا وروحنا. حتى أننا عندما كنا نتألم كان العالم الاسلامي يبكي، فلو أوغلت أوروبا في إيلامنا لصرخ العالم الاسلامي.

فلو متنا فسوف يبعث منا أضعاف أعدادنا من المسلمين. نحن نعيش في عصر الخوارق. فبعد مضي سنتين أو ثلاث على موتنا سنرى أحياءً يبعثون.

لقد فقدنا بهذه الهزيمة سعادة عاجلة زائلة، ولكن تنتظرنا سعادة آجلة دائمة، فالذي يستبدل مستقبلاً زاهراً فسيحاً بحال حاضرٍ جزئي متغير محدود، لاشك أنه رابح..

السؤال الخامس: نحتاج توضيحا أكبر.

وهو ذات السؤال الذي ألقي علينا من المجلس: بيّن! وضّح ما تقول!

قلت: حروب الدول والأمم قد تخلت عن مواضعها لحروب الطبقات البشرية. والإنسان مثلما يرفض أن يكون أسيراً لا يرضى أن يكون أجيراً أيضاً.

فلو كنا منتصرين غالبين، لكنا ننجذب إلى ما لدى أعدائنا من الاستعمار والتسلط، وربما كنا نغلو في ذلك. علماً أنّ ذلك التيار -التيار الاستعماري الاستبدادي- تيار ظالم ومنافٍ لطبيعة العالم الاسلامي، ومباين لمصالح الأكثرية المطلقة من أهل الايمان، فضلاً عن أنّ عمره قصير، ومعرّض للتمزق والتلاشي. ولو كنا متمسكين بذلك التيار لكنا نسوق العالم الإسلامي إلى ما ينافي طبيعته الفطرية.

فهذه المدنية الخبيثة التي لم نرَ منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة،

وقد طغت سيئاتُها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض.

فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدنية السفيهة المتمردة الغدارة المتوحشة معنىً في أرجاء آسيا.

السؤال السادس: لِمَ ترفض الشريعة المدنية الحديثة؟

لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية:

فنقطة استنادها هي: القوة، وهذه شأنها: الاعتداء.

وهدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم.

ودستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا شأنه: التنازع.

والرابطة التي تربط المجموعات البشرية هي: العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها: التصادم، كما نراه.

وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي: تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها وتسهيل مطاليبها. وهذا الهوى شأنه: إسقاط الانسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية. وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً.

فمعظم هؤلاء المدنيين لو انقلب باطنهم بظاهرهم لوجد الخيال تجاهه صور الذئاب والدببة والحيات والقردة والخنازير.

ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية الى أحضان الشقاء واخرجت عشرة بالمئة منها الى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء واولئك، علماً ان السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية؛ بيد أنّ سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس.

السؤال السابع: هل هذا الذي يبرر موقف القرآن منها؟

لأجل كل هذا لا يرضى القرآن الكريم بمدنية لا تضمن سعادة الجميع أو لا تعم الغالبية العظمى.

ثم إنه بتحكم الهوى الطليق من عقاله، تحولت الحاجات غير الضرورية إلى ما يشبه الضرورية، إذ بينما كان الإنسان محتاجاً إلى أربعة أشياء في حياة البداوة والبساطة إذا به في هذه المدنية يحتاج إلى مئة حاجة، وهكذا أردَته المدنية فقيراً مدقعاً.

ثم، لأن السعي والعمل لايكفيان لمواجهة المصاريف المتزايدة، إنساق الانسان إلى مزاولة الخداع والحيلة وأكل الحرام. وهكذا فسد أساس الأخلاق.

وبينما تعطي هذه المدنية للجماعة والنوع ثروة وغنى وبهرجة إذا بها تجعل الفرد فقيراً محتاجاً، فاسد الأخلاق.

ولقد قاءت هذه المدنية وحشية فاقت جميع القرون السابقة.

وإنّه لجدير بالتأمل، استنكاف العالم الاسلامي من هذه المدنية، وعدم تلهفه لها، وتحرجه من قبولها، لأن الهداية الإلهية التي هي الشريعة تعطي خاصية الاستقلال والاستغناء عن الآخرين، ولا يمكن أن تطعّم هذه الشريعة بالدهاء الروماني ولا أن تمتزج معها ولا يمكن أن تبلعها أو أن تتبعها.

إنّ دهاء الرومان واليونان -أي حضارتيهما- وهما التوأمان الناشئان من أصل واحد، قد حافظا على استقلالهما وخواصهما رغم مرور العصور وتبدل الأحوال ورغم المحاولات الجادة لمزجهما بالنصرانية أو إدماجها بهما، فلقد ظل كلٌ منهما كالماء والدهن لايقبلان الامتزاج، بل إنّهما يعيشان الآن بروحهما بأنماط متنوعة وأشكال مختلفة.

فلئن كان التوأمان، مع وجود عوامل المزج والدمج والأسباب الداعية له، لم يمتزجا طوال تلك الفترة، فكيف يمتزج نور الهداية الذي هو روح الشريعة مع ظلمات تلك المدنية التي أساسها دهاء روما! لا يمكن بحال من الأحوال أن يمتزجا أو يهضما معاً.

السؤال الثامن: ما هي المدنية التي في الشريعة؟

قال الأستاذ: أما المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها، فهي التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسساً إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية.

نعم! إن نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبة والتجاذب.

وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية، والوطنية، والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها: الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.

ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحدّ من النزعات النفسانية تُطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي.

بمعنى أننا بانهزامنا في الحرب تبعنا التيار الثاني الذي هو تيار المظلومين وجمهور الناس. فلئن كان المظلومون في غيرنا يشكلون ثمانين بالمئة منهم ففي المسلمين هم تسعون بل خمس وتسعون بالمئة.

إن بقاء العالم الاسلامي مستغنياً عن هذا التيار الثاني، أو معارضاً له، ظل دون مستند أو مرتكز، وهدر جميع مساعيه. فبدلاً من الذوبان والتميع تحت استيلاء المنتصر، كان عليه أن يتصرف تصرف العاقل فيكيّف ذلك التيار إلى طراز إسلامي ويستخدمه. ذلك لأن عدو العدو صديق ما دام عدواً له، وصديق العدو عدو مادام صديقاً له.

إن هذين التيارين، أهدافهما متضادة، منافعهما متضادة، فلئن قال أحدهما: مت، لقال الآخر: ابعث. فنفعُ أحدهما يسلتزم ضررنا واختلافنا وتدنينا وضعفنا مثلما تقتضي منفعة الآخر قوتنا واتحادنا بالضرورة.

كانت خصومة الشرق تخنق انبعاث الإسلام وصحوته. وقد زالت وينبغي لها ذلك. أما خصومة الغرب فينبغي أن تدوم لأنها سبب مهم في تنامي الإخوة الإسلامية ووحدتها.

السؤال التاسع: ماذا كان موقف المجلس؟ وهل صدّقوك فيما قلت؟

إذا بأمارات التصديق تتعالى من المجلس. فقالوا: نعم، كونوا على أمل؛ أن أعظم صوت داوٍ في انقلابات المستقبل هو صوت الإسلام الهادر.

السؤال العاشر: ما الذي اقترفنا حتى يحكم علينا القدر الإلهي بهذه المصيبة، لأنّ المصيبة نتيجة جناية، ومقدمة ثواب. فما الذي اقترفتم حتى حكم عليكم القدر الإلهي بهذه المصيبة، إذ المصائب العامة تنزل لأخطاء الأكثرية؟ وما ثوابكم العاجل؟

مقدمة الإجابة: "مقدمتها إهمالنا لثلاثة أركان من أركان الإسلام؛ الصلاة، الصوم، الزكاة. إذ طلب منا الخالق سبحانه ساعة واحدة فقط من أربع وعشرين ساعة لأداء الصلوات الخمس فتقاعسنا عنها. فجازانا بتدريب شاق دائم لأربع وعشرين ساعة

طوال خمس سنوات متواليات. أي أرغمنا على نوع من الصلاة.. وأنه سبحانه طلب منا شهراً من السنة نصوم فيه رحمة بنفوسنا، فعزّت علينا نفوسنا فأرغمنا على صوم طوال خمس سنوات، كفّارة لذنوبنا. وأنه سبحانه طلب منا الزكاة عُشراً أو واحداً من أربعين جزءٍ من ماله الذي أنعمه علينا، فبخلنا وظلمنا. فأرغمنا على دفع زكاة متراكمة. فـ ''الجزاء من جنس العمل''.

أما ثوابنا العاجل، فرفعُه سبحانه وتعالى خُمس هذه الأمة المذنبة -أي أربعة ملايين منهم- إلى مرتبة الولاية ومنحهم درجة الشهادة والمجاهدين. فالمصيبة العامة الناشئة من خطأ العامة أزالت ذنوب الماضي.

السؤال الحادي عشر: قال أحدهم أيضاً: إن كان آمراً بخطأٍ ألقى الأمة الى الهلاك؟

فقال الأستاذ: إن المُصاب يرجو الثواب. فإما أن تُعطى له حسنات الآمر الذي ارتكب الخطأ، وهي لا تعدّ شيئاً. أو عطيه خزينة الغيب. وثوابه في مثل هذه الأمور من خزينة الغيب هي درجة الشهادة والمجاهدين. رأيت ان المجلس قد استحسن هذا الكلام.

استفاق الأستاذ من حوار المنام: وانتبه من النوم لشدة انفعاله بما حدث له فيه، ووجد نفسي في الفراش مشبّكاً يديه، يتصبب منه العرق، وهكذا مضت تلك الليلة. لهذا هو حوار في اليقظة جرت وقائعه في المنام، فهو غني بالدروس والعبر والتوجيهات الحضارية العظيمة، لا يستغني عنها عاقل في ظروفنا الراهنة، بل نحن بأشد الحاجة إليها في الوقت الراهن.

حوار في مجلس دنيوي:

وفي اليوم نفسه الذي جرى فيه اللقاء السابق، ذكر الأستاذ أنّه والأمل يطفح منه ذهب إلى مجلس آخر، مجلس دنيوي فسألوه الأسئلة الآتية:

السؤال الأول: الموقف من السياسة في زمانه. لِمَ لا تتدخل بالسياسة منذ مجيئك؟

قال الأستاذ: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة. نعم، إن السياسة الحاضرة (دقق جيّدا في قوله) لاستانبول شبيهة بالانفلونزا تسبب الهذيان. فنحن لسنا متحركين ذاتياً،

بل نتحرك بالوساطة. فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا، فهي تلقّن بالتنويم -المغناطيسي- ونحن نتصورها نابعة من انفسنا ونجري أثر تلقينها بتخريب أعمى أصم. فمادام المنبع في أوروبا فالتيار القادم إما سيكون تياراً سلبياً أو إيجابياً.

فالذين يتبعون السلبي هم كالحَرْف الذي يعرّف ''دلّ على معنى في نفس غيره''، أو ''لا يدل على معنى في نفسه'' بمعنى أنّ جميع أفعاله ستكون لصالح الخارج مباشرة. لأن إرادته لا حكم لها. فلا تنفعه النية الخالصة. ولاسيما التيار سلبي فيكون أداة لا تعقل للخارج بضعف من جهتين.

أما التيار الآخر الإيجابي فيلبس لبوس التأييد والموافقة من الداخل، فهو كالاسم الذي يعرّف ''دلّ على معنى في نفسه''. فأفعاله لنفسه، ولكن ما يترتب عليها للخارج. إلاّ أنه لا يؤاخذ عليه لأن لازم المذهب ليس مذهباً. ولا سيما إذا انضم بجهتين إلى الإيجابي والضعيف في التيار الخارجي، فيمكن أن يجعل الخارجَ أداةً له لا تشعر.

السؤال الثاني: ألا ترى الإلحاد يتفشى؟ أنه من الضرورة الاندفاع إلى الميدان باسم الدين.

قال الأستاذ: نعم، ضروري، ولكن بشرط قاطع هو أن يكون الدافع المحرك عشق الإسلام والحمية الدينية. إذ الخطورة أن يكون الدافع أو الموجّه هو السياسة أو التحيز. فالأول قد يعفى عنه حتى لو أخطأ بينما الثاني مسؤول عن عمله حتى لو أصاب.

السؤال الثالث: كيف نفهم ذلك؟

قال الأستاذ: مَن فضّل رفيقه السياسي الفاسق على متدين يخالف رأيه السياسي، بإساءة الظن به، فالدافع إذن هو السياسة.

ثم إنّ اظهار الدين الذي هو ملك مقدس للناس كافة -بالتحيز والتحزب- أنّه أخص بمن في مسلكه دون غيره، يثير الأكثرية الغالبة ضد الدين. فيكون سبباً في التهوين من شأن الدين.. فالدافع إذن هو التحيز.

السؤال الرابع: لو اسعفتنا بالتمثيل لكان أجدى وأنفع؟

مثال: يتصارع اثنان فما أن يشعر أحدهما أنه سيُغلب، عليه أن يعطي القرآن الذي بيده إلى القوي ليقوم الآخر بحمايته ولئلا يسقطا معاً في الوحل. مظهراً محبته وتبجيله للقرآن. فتكون محبته للقرآن لكونه قرآناً. ولكن لو اتخذه ترساً تجاه القوي، فإنه يثير غضبه بدلاً من أن يحرك غيرته لحمايته.

فمن يحرم القرآن من خادم قوي ويجعله في يد ضعيف، حتى إذا سقط سقط معه أيضاً، فهذا يعني أنه يحب القرآن لنفسه لا للقرآن.

نعم، إن خدمة الدين وسوق الناس إليه إنما تكون بالحث على الالتزام وتذكير أصحابه بوظائفهم الدينية. وبخلاف ذلك، فإن مخاطبتهم بأنكم ملحدون، يسوقهم إلى التعدي.

ألا لا يُستغل الدين في الداخل في الأمور السلبية التخريبية. ولقد رأيتم الاعتداء على الشريعة بظن أنّ الخليفة الذي دام حكمه ثلاثين سنة قد اُستغل في اجراءات سياسية سلبية. تُرى من الذي يستفيد من آراء السياسيين السلبيين الحاليين؟ أتعرفونهم؟.. إنني أرى أنهم الخصم اللدود للإسلام، الذي غرز خنجره في قلب الإسلام.

السؤال الخامس: كنت تعارض بعض الأحزاب لخروجها عن الجادة، إلاّ أنك تسكت عليهم الآن.

رد الأستاذ: سكت عنهم لكثرة هجوم الأعداء عليهم.

إن هدف الهجوم الذي يشنه الأعداء هو العزم والثبات اللذان يتحلون بهما وعدم كونهم وسيلة لتنفيذ مآرب الأعداء في تسميم أفكار المسلمين. وهذا من حسناتهم. إنني أرى أن الطريق طريقان؛ ككفتي الميزان. خفة إحداهما تولد ثقل الأخرى.

فأنا لا أصفع قاصرا في الفهم ومقصرا في التطبيق بجانب من حارب أمتنا وبلدنا وضيّع طاقاتنا، وفي نظري إنّ الذي يصفعهما سافل منحط.

السؤال السادس: ما قولك في أنّ التحزب ضرورة من ضروريات المشروطية (الدستور).

الأستاذ: إن خطوط الأفكار عندنا بدلاً من أن تتقارب للتلاقي تنحرف مبتعدة الواحدة عن الأخرى كلما امتدت. لذا لا نجد نقطة التلاقي، لا في الوطن، ولا في الكرة الأرضية. فالأفكار أشبه ما تكون بالوجود والعدم لا يجتمعان، حيث إن وجود أحدهما يقتضي عدم الآخر.

إن العناد يلزم أحياناً المغالين في التعصب والضلال والباطل، حتى إذا ساعد الشيطان أحدهم قال له: إنه مَلَك ويترحم عليه، بينما إذا رأى ملَكاً في صف من يخالفه في الرأي، قال إنه شيطان قد بدل ملابسه، فيبدأ بمعاداته ويلعنه. ويرى الأمارة الواهية

برهاناً بظنه الحسن، بينما يرى البرهان أمارة واهية بسوء الظن، كمن ينظر في المنظار أحد طرفيه الذي يقرّب والآخر يبعّد الشيء. وهذا ظلم فاضح يبيّن الحكمة في الآية الكريمة(إن الانسان لظلوم كفار) (ابراهيم:٣٤) وذلك لأن قواه وميوله لم تتحدد فطرة بخلاف الحيوان، فميله نحو الظلم لا يحد ولا سيما إذا انضمت إلى ذلك الميل الأشكال الخبيثة للأنانية كالإعجاب بالنفس وتحرى المصلحة الشخصية والكبر والعناد والغرور، تتولد جرائم بشعة لم تجد البشرية لها اسماً، ولا جزاء لها إلاّ نار جهنم مثلما هي دليل على ضرورة وجودها.

السؤال السابع: قضية في غاية الأهمية أستاذنا الكريم، هل من تمثيل على ما تفضّلتم به؟

مثلا: إذا استاء من صفة جانية لشخص، فإنه يشمل ظلمه إلى جميع صفاته البريئة أيضاً بل إلى أحبته بل إلى من في مسلكه، فيكون متمرداً أمام الآية الكريمة ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.الانعام:١٦٤

مثال آخر: قال أحد الحريصين بدافع الانتقام: سيُغلب الإسلام، وسيتمزق قلبه. فلأجل أن يظهر صدق كلامه المشؤوم النابع من روح سقيمة وفكر كاذب، يتمنى أن يهان المسلمون ويصفق له ويتلذذ من ضربات العدو. فهذا التصفيق والترحيب واللذة جعلت الإسلام في موضع مجروح.

حيث العدو الذي غرز خنجره في قلب الاسلام لا يكتفي بسكوتنا عليه بل يقول: رحّب بي، تلذذ من أعمالي، وكنّ لي حباً...فدونكم ذنب عظيم وظلم شنيع لا يجازيهما إلاّ ميزان الحشر الاعظم.

السؤال الثامن: لكن أستاذ ما نرد على القائلين: كنا نعلم أننا نُغلب، فقد دفعونا إلى المصيبة عن علم.

قال الأستاذ: تكون نتيجة الحرب بديهية بالنسبة لكم وأنتم لا ثقافة لكم. وتكون خافية عن قائد عظيم، أخشى أن يكون ما تسمونه فكراً هو رغبة والعياذ بالله. إذ يلبس الانتقام الشخصي الظالم أحياناً لباس الفكر. يا هؤلاء لقد وقعتم في طين نجس تلوثون وجوهكم به وكأنه المسك والعنبر؟

فهذا إيضاحي وبياني لما دار في مجلس مثالي في الليل المنير وفي محفل الدنيويين في النهار المظلم. فليست هذه المحاورة من بنات الفكر ولم تسل من العقل

سيلاناً بل تفجرت من القلب. فإن شئت فاقبلها وإن شئت ردّها وارفضها، ولكن بشرط أن تفهمها.

السؤال التاسع: الحج المؤتمر العام السنوي للمسلمين، هل يمنعهم وهم في عبادة من العناية بمستقبلهم؟

سكت في الحج في أثناء سرده الرؤيا، لأن إهمال الحج وإهمال ما ينطوي عليه من حكم لا يُنزل المصيبة وحدها بل ينزل غضب الله وقهر الجبار. وجزاؤه ليس كفارة الذنوب بل كثارتها.

نعم، إن إهمال السياسة الاسلامية الرفيعة في الحج والمتضمنة توحيد الأفكار بالتعارف وتشريك المساعي بالتعاون هو الذي أدّى إلى تهيئة الوسط الملائم للأعداء ليستخدموا ملايين المسلمين في العداء للإسلام.

فها هو الهندي جالس يبكي على رأس أبيه الذي قتله، ظناً منه أنه عدوّه. وها هما التتار والقفقاس، واقفان عند قدمي جثة ساعدا على قتلها.. وبعد فوات الأوان يدركان أنه والداهما. وها هم العرب قتلوا شقيقهم البطل خطأً، ومن حيرتهم لا يعرفون كيف يبكون وينتحبون. وها هي إفريقيا قتلت أخاها دون علم به، والآن تصرخ وتولول.

وها هو العالم الإسلامي ساعد على قتل ولده المقدام غافلاً دون علم به. فهو يلطم وينفّش شعره كالوالدة الحنون.

فالملايين من المسلمين دُفعوا إلى سياحات طويلة في العالم، تحت لواء العدو الذي هو الشر المحض، بدلاً من شدّ الرحال إلى الحج وهو الخير المحض.فاعتبروا! ''كما أن الضرورات تبيح المحظورات، كذلك تسهّل المشكلات''.

السؤال العاشر: نريد توضيحا أكبر أستاذنا.

إن الدجاجة التي يضرب بها المثل في الخوف والجبن تهاجم الجاموس الضخم حفاظاً على فراخها.. فها هي الجسارة الفائقة. وخوف العنز من الذئب يضرب به المثل، إلا أن خوفه ينقلب إلى دفاع ومقاومة في حالة الاضطرار حتى يقارع الذئب.. فها هي الشجاعة الخارقة.

السؤال الحادي عشر: هل من توضيحات أكثر؟

إن الميل الفطري لا يُقاوم. فغرفة من ماء لو وضعت في كرة من حديد لفتّت الماءُ الحديدَ كلما تعرض للبرودة في الشتاء، وذلك لميله إلى الانبساط والتمدد.

فجسارة الدجاجة الرؤوم على فراخها... وشجاعة الاضطرار لدى العنز العزيز النفس يمثلان هيجاناً فطرياً... فمثل هذا الهيجان الفطري لو تعرض له ظلم الكافر البارد، لفتّت كل شيء أمامه كالماء في كرة الحديد (والقرويون الروس أمثلة شهود على هذا).

ومع هذا فإن الشهامة الخارقة التي تنطوي عليها ماهية الإيمان. والشجاعة التي تتحدى العالم الكامنة في طبيعة العزة الإسلامية يمكن أن تُظهر المعجزات في كل وقت وآن بانبساط الأخوة الإسلامية وتوسعها.

ستشرق شمس الحقيقة يوماً أفيظل العالم في ظلام إلى الأبد؟

السؤال الثاني العاشر: ما الأساليب التي تستعملها محاكم التفتيش لهذا العصر؟

إن محاكم التفتيش المدنية لهذا العصر، أنجبت لقطاءها -غير الشرعيين- باستعمالها وسائل رهيبة في تلقيح بعض الأذهان، وتجري بهم حقدها الدفين على الإسلام للثأر منه، محاولةً فتح الباب أمام ما يصرف المسلمين عن الدين، أو جعلهم على الأقل مهملين له، أو بإمالتهم نحو النصرانية، أو التخلي عن الإسلام بإلقاء الشبهات والشكوك في العقول، وتشيع بهذا مكراً سيئاً.

السؤال الثالث عشر: ما مضمون هذا المكر السيّء؟

هو الآتي: أيها المسلم! تأمل أينما وجد مسلم فهو فقير، غافل، جاهل إلى حدٍ ما، بينما النصراني أينما حلّ فهو متحضر، يقظ، صاحب ثروة... وهذا يعني... والنتيجة واضحة.

السؤال الرابع عشر: فبما تنصحون المسلم في العصر الحاضر؟

أنا أقول: أيها المسلم لا ترخِ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولّده هذه النتيجة المخيفة لتقدم أوروبا، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة، والاّ فمصيرك الهلاك.

نعم، نحن نتدنى إلى أسفل وهم يرقون الى أعلى.

السؤال الخامس عشر: ما أسباب هذا التدني وذاك الترقي؟

لهذا سببان اثنان أحدهما مادي والآخر معنوي.

السبب الاول: الوضع الفطري لأوروبا التي هي كنيسة النصرانية عامة، ومنبع

حياتها، فهي ضيقة، جميلة، تملك الحديد، متعرجة السواحل، تلتف فيها الأنهار والبحار التفاف الأمعاء في الجسد، مناخها بارد.

نعم، إن أوروبا على الرغم من كونها عُشر الخمس للكرة الأرضية، فإنها جذبت ربع البشرية نحوها بلطافة مناخها الفطري.

وإنه ثابت حكمةً: أن اجتماع الأفراد الكثيرين يولّد الحاجات، فلا يستوعب إنتاج الأرض تلك الحاجات التي تتزايد بأسباب كثيرة -كالتقليد وغيره- ومن هنا تصبح الحاجة أُمُ الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع معلّم العلم، والضيق الروحي مولد السفاهة.

نعم إن التوجه نحو الصناعة والميل إلى المعرفة ينشأ من الكثرة. فبسبب ضيق المكان في أوروبا، وكثرة بحارها وأنهارها التي هي وسائط نقل طبيعية فيها، فإن التعارف ينتج التجارة، والتعاون الاشتراك في الأعمال، مثلما يولد التّماس تلاحق الأفكار والمنافسة والتسابق.

ولكثرة ما فيها من الحديد - الذي هو منبع جميع صناعات أوروبا أعطى لمدنيتهم السلاح القوي حتى غصبت انقاض مدنيات الدنيا كلها وأغارت عليها، إلى حد اثقلت كفتها وأخلّت بميزان الكرة الأرضية.

ثم إن البرودة المعتدلة التي من شأنها أن تأخذ كل شيء ببطء وتتركه ببطء، قد أعطت لسعيهم الثبات والمتانة، فأدامت مدنيتهم.

ثم إن تشكل دولهم المستندة إلى العلم، وتصادم قواهم المتكافئة، وإزعاجات استبداداتهم الغدارة، ومضايقات تعصبهم المقيت الظالم -كتعصب محاكم التفتيش- والذي آل الى خلاف المقصود، والتسابق الجاري بين عناصرها المتوازنة.. كل ذلك نمّى استعدادات الأوروبيين، وفجّر قابلياتهم فظهرت لديهم المزايا، والفكر القومي.

السبب الثاني: هو نقطة الاستناد. نعم إن أي نصراني كان إذا ما رفع رأسه ومدّ يده إلى أي مقصد من المقاصد المتسلسلة المتداخلة، إذا به يجد وراءه نقطة استناد قوية تعزز قوته المعنوية وتبعث فيها الحياة، حتى يجد في نفسه من القوة ما يمكّنه أن يقتحم كل صعب وعظيم من الأعمال.

فتلك النقطة، نقطة الاستناد، هي مدنية أوروبا التي هي معسكر "كتلة مسلحة" وكنيستها العظيمة، وهي مستعدة في كل آن أن تنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديهم من كل صوب. ومتهيأة أيضاً لقطع الشريان النابض

للمسلمين، فلقد عجنت بتعصب محاكم التفتيش المدنية الماكرة، والإلحاد النابع من الفكر المادي. فأوروبا تختال غروراً بانتصار مدنيتها على الآخرين.

اَلا يُشاهد الانكليز الذين تقنّعوا بقناع الحرية، يمدّون أيدهم إلى كل جهة ويتحرون عن نصراني، فأينما وجدوه بعثوا فيه الحياة.. فها هي الحبشة والسودان... وها هي الطيار والارتوش وها هي لبنان وحوران.. وها هي ماسور وألبانيا.. وها هم الكرد والأرمن.. والترك والروم... الخ.

السؤال السادس عشر: بيّن لنا حاصل الكلام.

إنّ الذي ينفث فيهم الحياة هو الأمل... والذي يقتلنا هو اليأس. وقد اشتهر أحدهم بقوله: ''أستطيع أن أحرّك الكرة الأرضية من مكانها إذا وجدتُ نقطة استناد'' ففي هذا القول المفترض نقطة عجية، هي: أن هذا الإنسان الصغير جداً إذا ما وجد نقطة استناد يستطيع أن يدير أعظم الأشياء كالكرة الأرضية.

فيا أهل الاسلام!

إنّ نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي، التي ألقت بثقلها العظيم، عِظم الارض، على العالم الاسلامي، هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة، وبالتعاون الذي تولده الأخوة.

فانظر بدءاً من العالم الاسلامي، تلك الدائرة الواسعة، وانتهاء إلى طالب علم في المدرسة الشرعية كأصغر دائرة... تجد أنّ لكل منها عقد حياتية، وتلك العقد مرتبطة ببعضها متسلسلة ومستندة إلى تلك النقطة العظمى، كأفراد المجتمع وروابطه... بمعنى أنه يمكن أن يصحو المسلمون ويبدؤوا بالرقي متى ما نبّهوا وبُث فيهم روح النماء، فلا صحوة بخنق تلك العقد الحياتية.

وإلاّ فإنّ قيام أحد بالموازنة والمقارنة بين محاسن أوروبا ومساوئنا، وثمرة تلاحق الأفكار لديهم مع ثمرة سعي شخص واحد عندنا . فكما أنّه يبين بهذه المقارنة الظالمة المجحفة الخادعة أنّه لقيط أوروبا لإظهار افتتانه بها ونفوره من أمته، فإنّه أيضاً بالهجاء النابع من الخداع والفكر الثوري والميل إلى التخريب، والمشحون بالعصيان والافتراء والتعرض للشرف، يظهر فرعونيته والثناء على نفسه والتربيت على غروره ضمناً مبدياً دون علم منه عداءه للإسلام. علماً أنّه المكلف بالشعور بالشفقة على أمته شرعاً وعقلاً وحكمة، إلاّ أنّه بحكم الفرعونية والأنانية والغرور يضع الشعور بالتحقير بدلاً من

الشعور بالشفقة، والميل إلى النفور من الأمة بدلاً من ميل الانجذاب إليها، وإرادة الاستخفاف بها بدلاً من محبتها، ويوصمها بالجهل بدلاً من احترامها ويرغب في التكبر عليها بدلاً من الرحمة بها، ويقيم روح الانفرادية بدلاً من روح التضحية والفداء لها. فيثبت بهذا كله أنّه لا يملك حمية للأمة وأنه مبتوت الأصالة، فيكون جانياً منفوراً منه في نظر الحقيقة بحيث يتصرف تصرف الأحمق الأبله، كمن يحاول إلباس ملابس أعجبته لراقصة ساقطة في باريس عالماً فاضلاً في المسجد.

ذلك لأن الحمية هي نتيجة ضرورية للمحبة والاحترام والرحمة فلا حمية بدون هذه الأمور، وإلاّ فهي حمية كاذبة وخادعة. والنفور من الأمة خلاف الحمية أيضاً، فقساوسة أوربا الذين يشنون هجومهم على المتعصبين عندنا، كل منهم أكثر تعصباً وتزمتاً في مسلكهم السقيم. فلو مدح عالم ديني الشيخ الكيلاني بإفراط كمدح أولئك لشكسبير لكُفّر.

هيهات أين المحبة من هؤلاء؟

إنّ إحدى العقد الحياتية المحركة للمجتمع والدافعة إلى الفعالية، هو الفكر الأدبي. الذي بدأ فينا وحده بالنمو -مع الأسف- ولا سيما أدب الهجاء ورغبة تحقير الآخرين. والذي ينطوي على الإعجاب بالنفس والغلو في الوصف في أسلوب شعري وبما لا يليق بالأدب. فهو أدب خارج عن الأدب الحقيقي الذي تؤدبنا به الآية الكريمة ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢] بحيث يهاجم كل الآخر. ومع ردّ تعرضات ضمنية للأمة وللإسلام بوجه أولئك القسس، نمر مرّ الكرام على هجائهم اللاديني وإهانة الآخرين، فنمضي قائلين: ربما يستحقون ذلك.

السؤال السابع عشر: ما الباعث على ذل الأمة؟

إنني أظن أن الباعث على ذل هذه الأمة أكثر من الجهل هو الذكاء الأبتر العقيم غير المرافق لنور القلب. وفي نظري إن أخطر مرض هو الانحياز المتطرف، لأنه يدفع إلى خلاف المقصود، بإخراج كل شيء عن طوره.

أيها الأخ! لقد بدأت عندنا تباشير أسباب فتية، قوية، بدلاً من تلك الأسباب الهرمة التي ولّدت تقدم النصرانية.

وقد فصلت ذلك في كتاب آخر.

السؤال الثامن عشر: هل من أمل يقطع دابر اليأس؟

فلإجابة عن سؤالكم، أذكر لكم حكاية معبّرة، قبل عشر سنوات (المقصود سنة

١٩١٠م) ذهبت إلى تفليس'' وصعدت تل الشيخ صنعان، كنت أتأمل تلك الأرجاء وأراقبها. اقترب مني أحد رجال البوليس فقال:

- بم تنعم النظر؟

قلت: أخطط لمدرستي!

قال: من أين أنت؟

قلت: من بتليس.

قال: وهنا تفليس!

قلت: بتليس وتفليس شقيقتان.

قال: ماذا تعني؟

قلت: لقد بدأ ظهور ثلاثة أنوار متتابعة في آسيا، في العالم الاسلامي، وستظهر عندكم ثلاث ظلمات بعضها فوق بعض، سيُمزّق هذا الستار المستبد ويتقلص، وعندها آتي إلى هنا وأنشئ مدرستي.

قال: هيهات ! إنني أحار من فرط أملك؟

قلت: وأنا أحار من عقلك ! أيمكن ان تتوقع دوام هذا الشتاء؟ إن لكل شتاء ربيعاً ولكل ليل نهاراً.

قال: لقد تفرق المسلمون شذر مذر.

قلت: ذهبوا لكسب العلم، فها هو الهندي الذي هو ابن الإسلام الكفوء يدرس في إعدادية الإنكليز.

وها هو المصري الذي هو ابن الإسلام الذكي يتلقى الدرس في المدرسة الإدارية السياسية للإنكليز..

وها هو القفقاس والتركستاني اللذان هما ابنا الإسلام الشجاعان يتدربان في المدرسة الحربية للروس.. الخ.

فيا هذا ! إن هؤلاء الأبناء البررة النبلاء، بعد ما ينالون شهاداتهم، سيتولى كل منهم قارة من القارات، ويرفعون لواء أبيهم العادل، الإسلام العظيم، خفاقاً ليرفرف في آفاق الكمالات، معلنين سر الحكمة الأزلية المقدرة في بني البشر رغم كل شيء. وهذا هو نصف حكايتي.

السؤال التاسع عشر: مثّل لنا الحالة الروحية التي يتولّد عنها اكتفاء الشخص بنفسه.

الآن سأمثل للحالة الروحية التي تدفع إلى القول: نفسي نفسي... ماذا عليّ. بالآتي:

يتقابل شخصان وتبدأ المناظرة والمفاخرة بينهما، أحدهما جسور ولكن عضت النوائب عشيرته الأصيلة. والآخر جبان، لكنه ينتمي إلى عشيرة أخرى تبسمت لها الأقدار. فالأول ما أن يرفع رأسه ويرى ذلّ عشيرته لا تستطيع عزة نفسه تحمّل الذل، فيخفض رأسه وينظر إلى نفسه، فيراها محملة إلى حدٍّ ما بالعزة. وعندها يبدأ غروره المجروح بالأنانية بالصراخ قائلاً: وماذا عليّ... ها أنذا! وهاهي أفعالي أنا... فينسحب من تلك العشيرة أو ينتسب إلى أخرى مظهراً عدم أصالته.

أما الثاني فكلما رفع رأسه سطعت أمام ناظريه مفاخر عشيرته فينتفخ غروره. ولكن ما أن ينظر إلى نفسه يراها واهية، وعندها يتيقظ روح التضحية والفداء في الشعور القومي. فيقول: فداكِ نفسي يا عشيرتي!.

فإذا فهمت الرمز الكامن في هذا المثال، فإن في ميدان العالم هذا، ميدان الامتحان والمجاهدة والسباق، إذا تظاهرت مشاعر كل مسلم ونصراني، وكردي وروومي، في أثناء المبارزة في الحمية، تجد سر المثال. ولكن هذا التفاوت ليس كما يظنه الناس وربما هو ناتج من النظر الظاهري والسطحي وغلط الحس.

السؤال العشرون: هل من توجيهات أو نداء للمسلم المعاصر؟

أتوجه بالنداء الآتي: أيها المسلم!

إياك أن تنخدع. فلا تخفض رأسك! فإن قطعة ألماس نادرة مهما كانت صدئة أفضل من قطعة زجاج لامعة دوماً. فإن ضعف الاسلام الظاهري ناشئ من خدمة هذه المدنية الحاضرة في سبيل دين آخر.

آن الأوان إذن أن تبدل هذه المدنية صورتها، فإذا ما بدّلتها فالقضية تنعكس.

فكما قيل في البداية أينما كان المسلم فهو البدوي بالنسبة للنصراني، مستنكف عن المدنية لا يكترث بها ويتحرج في قبولها، فإذا ما بدّلت الصورة فالوضع يتبدل. وكل آت قريب. وإنّ مع العسر يسراً.[1]

* * *

الهوامش:

[1] راجع صيقل الإسلام بالأستاذ النورسي، ص ٣٥٥-٣٧٣.

الإصدارات

قراءة في كتاب: فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي.
دار النشر: شركة سوز للطباعة والنشر. الطبعة: الأولى (٢٠٠٩).
أصل المصنف أعمال ندوة علمية أكاديمية شارك مجموعة من العلماء والباحثين.

عقدت كلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب بتعاون مع مركز بحوث رسائل النور بإستانبول ندوة دولية تحت عنوان: ''فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي''، بمدينة أكادير وذلك بتاريخ ٥-٦ ربيع الأول ١٤٢٩ الموافق لـ ١٣-١٤ مارس ٢٠٠٨ وقد شارك في هذه الندوة مجموعة من الأساتذة والباحثين في مجالات علمية متنوعة وتخصصات متعددة، والكتاب الذي بين أيدينا يمثل مجموعة الأبحاث القيمة والمتكاملة التي قدمت في هذه الندوة الدولية العلمية، حضرها مجموعة من الأساتذة من أقطار مختلفة على رأسها أعلام وباحثون من البلد المضيف المغرب وحضر من الجزائر أ.د. عمار جيدل، ومن تركيا ذ. إحسان قاسم الصالحي وذ. علي قاطي ئوز ومن النيجر د. محمد حمد كنان ميغا ود. عبد الرحمن محمد ميكا و أ.د. عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي من ماليزيا وذ. ماهر الهندي من سوريا وآخرون.

لا يسمح التعريف بالكتاب عرض مضامين كلّ البحوث التي ألقيت في الندوة الدولية، لهذا سنكتفي بقراءة مختصرة لبعض منها، ولعلّ من مسوغات اللجوء إليها تداخل موضوعاتها وكثرتها فضلا عن تشعب تفاصيلها. ركّزنا في التعريف على في العرض على الاختصار، غير المخل.

تم افتتاح الندوة يوم ٥ من ربيع الأول ١٤٢٩ الموافق لـ ١٣ من مارس ٢٠٠٨ بآيات بينات من الذكر الحكيم، احيلت الكلمة بعدها إلى السيد رئيس جامعة القرويين د. علي الصقلي فرحب في البداية بالسادة الحاضرين من أساتذة وعلماء وجمهور، وعبّر عن سعادته لتنظيم مثل هذه الندوات العلمية وتشريف شخصيات من مختلف الدول الإسلامية، مما يؤكد وحدة الثقافة الإسلامية، وأنّ الاهتمام بالشعوب الإسلامية

وقضايا الأمة قسط مشترك بين مجمل الفاعلين في المشهد العلمي والدراسات الأكاديمية في العالم الإسلامي، فسعوا جاهدين إلى إبراز مكانتها التي تستردها ما نسجت على منوال أسلافها في صناعة ماضيها المجيد، وأشار إلى أن مثل هذه اللقاءات العلمية هي تعبير عن جهود جبارة ترمي إلى توحيد صفوف الشعوب الإسلامية وتعزيز تعاونها وتآزرها فيما بينها. وأن التعاون على تنظيم مثل هذه الفعاليات العلمية المباركة تأكيد للعمل على ترسيخ أصول الشريعة الإسلامية والسعي إلى الحفاظ على التراث الإسلامي، وذلك بدراسة ما أنتجه علماؤنا ومفكرونا، وندوتنا العلمية خير مثال على رصد اهتمام العلماء. وختم كلمته بتجديد الشكر والترحاب لمؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم والضيوف الوافدين من مختلف البلدان الإسلامية ومن مختلف جهات المملكة وجميع الذين ساهموا وقدموا الدعم لإنجاح هذه التظاهرة الفكرية.

بعده تناول الكلمة السيد عميد كلية الشريعة أ. د. الحسين أفا، استهلها بتقديره وشكر الأساتذة والباحثين القادمين من خارج الوطن ومن مختلف الجامعات المغربية على استجابتهم لدعوة المشاركة في هذه الندوة العلمية وكافة الضيوف الكرام، كما ذكر أن هذه الندوة تدخل في إطار البرنامج العلمي الموازي للعمل الأكاديمي الذي سطرته الكلية، ويندرج هذا النشاط ضمن اهتمامات القائمين على شأن البحث العلمي، حرصا منهم على العمل العلمي الجاد في بعده الثقافي العام المتجلي في الأنشطة الثقافية، كما يعد هذا النشاط من مظاهر حرص الكلية الشديد على تهيئة الظروف وتوفير الوسائل المتاحة لتحقيق الهدف المتوخى من دعم الثقافة الإسلامية والبحث في العلوم الشرعية. وويقصد من كلّ ذلك الحرص على التواصل الفكري والتعاون المشترك بين جامعة القرويين ومؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم، وتجلى هذا المسعى في بعث الاهتمام بأفكار الشخصيات المرموقة والتنويه بالجوانب المشرقة من فكرهم وتسليط الضوء على سيرهم ومسارات حياتهم، ورأس الشخصيات التي نحتاج العناية بها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)، ولتحقيق هذا القصد ثم اختيار موضوع فقه المقاصد والحكم في فكر هذا العالم الجليل والمفكر الفذ والداعية المتميز، وهو ما سيكشف عنه الباحثون والأساتذة الأجلاء في بحوثهم القيمة، وفي الختام دعا بالتوفيق والنجاح لهذه الندوة وتجديد الشكر لكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذه الندوة العلمية.

ثم أخذ الكلمة رئيس اللجنة التنظيمية أ.د. عبد الكريم عكيوي، وأشار في مستهل

كلمته المجملة إلى المشترك الثقافي بين المغرب وتركيا وحصول قصب السبق لكلا البلدين وذلك بشرف الفتح المبارك؛ فتح بلاد الروم على يد محمد الفاتح من جهة الشرق وفتح لبلاد القوط على يد طارق بن زياد من جهة الغرب، فلئن توقفت الفتوحات البشرية للضفة الأخرى؛ فقد تعاقبت الفتوحات النورانية التي عن طريقها عبرت الفتوحات النورانية ''رسائل النور'' فعمّت الكون، ساعية بذلك إلى إيقاظ أوربا من غفوتها وجهلها، فقد كان الفضل الأكبر للمسلمين في إيقاظ القارة العجوز من سباتها العميق، فاقتبست من حضارة المسلمين ما مكّنها من بناء مدنيتها أو حضارتها، وبالرغم من استفادتها من الحضارة الإسلامية، إلاّ أنّها بقيت جافة عنيفة خاوية من الروح، تطغى عليها المادة، مما جعل القدر يبتعث مجددين ينبهوا الأمة الإسلامية ويجددوا أمرها الديني ومن المجددين الأقحاح الأستاذ سعيد النورسي، قيّضه الله لينقذ الأمة من ضعف إيمانهان ويمسح عن القرآن الكريم ما لحقه من الغبار بسبب الإهمال والنسيان، ويعود بالناس إلى طريق الحق والصواب، وقد آثرت هذه الندوة أن تستعيد الذاكرة وتذكر بفضل هذا الرجل الصالح الذي وهب حياته وكرس وقته للقرآن الكريم، فاختارت الندوة أن تقارب تجربته الحياتية مقاربة علمية استعادة لأفكار الرجل العلمية والعقدية والشرعية والتربوية والإجتماعية... كل حسب تخصصه من جهة وخدمة للمسار العلمي للكلية من جهة أخرى، خاتما كلمته بتقدير الجهود وشكر الحضور ورجاء عموم النفع والفائدة.

وبعد استراحة قصيرة استأنفت الجلسات بالمداخلة الأولى أ.د. عبد الكريم عكيوي من كلية الآداب بجامعة ابن زهر بالمغرب، تحت عنوان: ''إعتبار المآل واستشراف المستقبل عند بديع الزمان النورسي''، وأراد الأستاذ عكيوي من هذا العرض أن يكشف عن المنهج في المعرفة الإسلامية ويبرز معالمه عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، وانتهى فيه إلى أنّه منهج متكامل شامل للعلم والعمل استخلصه من خبرته الطويلة في الحياة ومن خلال إدمانه تدبر القرآن الكريم ونظره السديد والثاقب في السنة النبوية الشريفة، ومما عاناه في حياته من مجاهدات في مواجهة القضايا التي اعترضته والخطوب التي واجهته، وقد اتضحت معالم هذا المنهج متكاملة في رسائل النور التي هي تفسير معنوي للقرآن الكريم، والتي هي خلاصة كل ما استفاده من درر القرآن، وهو حوصلة تدبره وزبدة تمعنه في كتاب الله الحكيم وفق نظرة معاصرة. ومن أهم وأبرز معالم منهجه مسلكه الفريد في تدبر الكتاب الحكيم واستخراج دقائق الأمور المنوطة بالحكمة والرؤية السديدة. إنه منهج التدبر في حقائق الحياة والكون

فهو بالنسبة له منظومة متكاملة من الذرات إلى المجرات تلهج بذكر الله وهي ألسنة ناطقة بالتوحيد ووجوب وجوده سبحانه تعالى. وسعي بديع الزمان واضح في معرفة الحكمة من كل شيء وأن ليس هناك شيء عبث في الوجود بل هناك غاية وهدف وحكمة من كل المخلوقات ولها، هذا ما يعبر عنه باعتبار المآل وهو علم تطرق إليه علماء السلف خاصة عند علماء أصول الفقه. حيث اصطبغ بصبغة أصول الفقه فظهر كأنه منهج مقصور على النظر في خطاب الشارع وقد وضع الأئمة هذا الأصل بعد تدبر نصوص الوحي وتتبع موارد الأحكام، ولهذا كانت مآلات الأفعال وما يترتب عنها في العاجل والآجل محل نظر وموضع عناية عند المجتهدين. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للفقهاء فإن النورسي منحه صفة العموم والشمول فجعله منهجا في الحياة كلها، اعتبار المآل في فقه الخطاب الشرعي وتنزيله على محله: ومنها مثلا عزوفه عن الزواج حيث قال: في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبة، جثمت على صدور أمتنا منذ أربعين سنة، فدائيون يضحّون بكل ما لديهم، قررت أن أضحي خدمة لحقيقة القرآن الكريم... لأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي، ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتي –مع علمي بأنه سنة نبوية– بل لو وهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطرة إلى التخلي عنهن جميعا، لأجل تلك الحقيقة حقيقة القرآن. ولم يتوقّف الأمر عند النمط المشار إليه، بل جاوزه إلى النظر في اعتبار المآل في التربية والسلوك، فشغلت الأستاذ بهذا الصدد مسألة الزمان حيث لا قرار ولا ثبات لأحوال هذه الدنيا، والفائدة التي أقامها النورسي على هذه الحقيقة في مجال التربية والسلوك هي أن كل لحظة من لحظات حياة الإنسان تتوقف في صفتها على المستقبل، لذلك كثيرا ما تجده يتحدث عن المآلات كأنه يراها في شاشة معنوية منصوبة أمامه، فلا يكاد يذكر الشيء إلا مقرونا بمآله، فالقوة مآلها الضعف والغنى مآله الفقر والشباب مآله الهرم والشيخوخة والحياة مآلها الموت وهكذا، والغرض المقصود من هذا كله أن يحصل الجمع في التفكير بين الحال والمآل، وفي هذا المعنى، قال (رحمه الله): ''وحسب قاعدة كل آت قريب فإن مشاهدة ما سيأتي كأنه آت الآن تنطوي على حقيقة، فما شاهدته إذا ليس خيالا''. كما تجلى الاهتمام به المسألة من خلال عنايته باستشراف المستقبل: عن طريق التدبر في أحوال الحاضر وتحكيم سنن الإجتماع وقوانين المعاش، ومحاولة الاهتداء إلى ما تؤول إليه الأحوال، وخَلُص إلى أن التغيير المنشود لن تكتحل به عينه، ذلك أنّ رؤيته وشهوده مستبعد في زمانه، وسيقع بعد عصره، فجعل غايته أن يبذر

بذور الربيع؛ وبهذا يكون قد أبدى علما بما سيقع في مستقبل الأيام، بعد معرفة ما يحاك للأمة من مؤامرات، وما يوضع في طريقها من فخاخ، علم ذلك بفطرته السليمة، وبناء على ما علم، عمل على دفع المؤامرات، وإنقاذ إيمان الأمة من وهدة الضعف، أي أنه بدل سلوك طريق المواجهة، آثر العمل في صمت وثبات في إصلاح ما عمل على تخريبه الآخرون، قال الأستاذ: ''لا حيلة لي إلا أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر، وحين تنبت هذه الزهور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون قد فارقت الدنيا، لكني سوف أتنسم نسمات ربيع الإسلام وأنا راقد في قبري''. أليس هذا استشرافا للمستقبل في الدعوة والفكر. لقد ذكر الأستاذ بعض معالم اعتبار المآل واستشراف المستقبل في مجال فهم الخطاب الشرعي وتنزيله على محله، وبيّن في هذا السياق المراد بالتحديد، وهذا غيض من فيض، أما البقية فهي في رسائل النور مبثوثة كثيرة.

ثم جاء الدور على أ.د. عمار جيدل وهو من جامعة العلوم الإسلامية بالجزائر، عرض في ورقته موضوعا بعنوان: ''أهمية بحث المقاصد في بعث الفعالية الإيمانية في رسائل النور''، استهل تدخّله بالتأكيد على أنّ رسائل النور موسوعة في بيان مقاصد القرآن الكريم، فكانت رسائل النور، بحسب المحاضر، مخزنا ثريا في الدلالة على المقاصد في كلياتها وتفاصيل جزئياتها المتعلقة بشعاب الحياة، تطرق في بحثه إلى بيان أهمية بحث المقاصد في بعث الفعالية الإيمانية في رسائل النور، حيث اعتبر المحاضر ترسيخ الإيمان وتقويته مقصدا رئيسا في رسائل النور، ولكنّه ليس إيمانا من النمط المتداول إنّه يتجاوز الإيمان التلقيني، مؤسسا به مسلك العروج بالناس إلى الإيمان التحقيقي الذي به يتم العمل بالمقاصد وأبعادها الإيمانية، كما أن المقاصد تجلي طريق العروج إلى الآخرة وتوضح معالمها، من هنا وجب أن تكون محل عناية تحقيقا لتبليغها وحماية لوجودها في القلوب والعقول، وفي ذلك أجلى دليل على الأهمية النفسية لمعرفة المقاصد، فمنها نستمد الدافع النفسي القوي للاستزادة من كلّ ما من شأنه جلب رضا الرحمن، إذ العلم بالغاية يزيد شوق المحصل، لهذا كانت أهمية المقاصد الجليلة عظيمة في شحذ الهمم، ومن مظاهر البعد النفسي في درس مقاصد رسائل النور أن العمل بالمقاصد يدفع إلى التضحية ويمتّع الملتزم بها بتحمّل أعبائها، ثم انتقل المحاضر إلى بيان الأهمية الحضارية للتعرف على المقاصد، فهي مبعث التشجيع على العمل والبذل المستمر حيث تحفز صاحبها عقلا وقلبا على البذل المستمر وذلك بالاستعداد للآخرة، وهذا يتأتى من خلال محاور منها: إيجاد دافع

التضحية من خلال ترك كل ما تقطر منه الحسرة والضيق وإبداله بكل ما يبشر بالخير والفرح، ومنها أيضا: تحمل تبعات السير في مسلك الإيمان: حيث تعطي للمرء قوة داخلية تدفعه إلى التحمل، كما تكمن أيضا في التطعيم أو التحصين ضد الغفلة العامة إذ إن الحكمة المترتبة عنها تدفع الغفلة كما ترتبط القناعات المستفادة من المقاصد الشرعية بحكم لا حصر لها، فضلا عن مساهمة المقاصد في صناعة الوعي الإيجابي بحيث يكون المقصد شاحذا للهمم ومنشطا للعزائم، فبقدر علو المقصد تتعالى همّة الإنسان، ويبدو ذلك من خلال تنبيه المخاطب حيث يتميز النورسي باستعمال النصيحة مازجا فيها بين مخاطبة العقل والقلب، فيخاطبه في ضوء المقاصد التي يتوخى خالقه تنبيهه إليها، وأما بالنسبة للتخلق بالأخلاق الإلهية فإنها تسعف صاحبها على تبني الغاية القصوى للإنسانية التي تتجلى في التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله تعالى، وأما التنبيه العلمي والمنهجي الذي ينضوي تحته الكشف عن أهمية الكتاب الكريم، فإن المقاصد فيه ترمي إلى إعادة الإعتبار للقرآن الكريم، إذ العلاقة بين المقاصد ومصدرها الأصلي وثيقة لا تنفك، وأما التنبيه إلى البعد المنهجي فإن رسائل النور ترمي في مقاصدها الفرعية إلى التربية المنهجية لطلابها وترسيخها وتركيزها في المجتمع، وأما السننية في التفكير فهي توأم التفكير المنهجي حيث يتم النظر بعيني العقل والقلب في المقاصد كالامتثال والطاعة لقانون التكامل والرقي للصانع الجليل، وعدم اتباع قانون السننية غفلة عظيمة عن سر الحكمة الإلهية في الوجود، فهذا يجعل المرء ينظر إلى الكون رؤية حكيمة ويسهل عليه تفسير سير الحياة وتنظيم الكون واستيعاب نشأته ومصيره، كما أن للمقاصد أهميتها في التأسيس للبعد الإجتماعي من خلال الكشف عن قيمة الإنسان، ومن حيث كونه طريق جلب السعادة الدنيوية، وكونه عنصر القوة المادية والمعنوية، ومن خلاله يتم اكتشاف حكمة وظيفة الإنسان على الأرض، وكذا التعرف على تلك الحكمة في إطار رؤية مقصدية.

ثم انتقل إلى الحديث عن مفسدات فاعلية المقاصد وبين أن الإنسان لايمكن له أن يستفيد من معرفة المقاصد مع عدم تحرره العقلي والقلبي من المكدرات المعنوية والمادية، حيث لا يتمكن الإنسان مع المنغصات والمكدرات أن ينظر نظرة صافية للكون والمخلوقات، وعرض في هذا السياق تمثيلا، مفاده أنّ نظر الإنسان إلى الكون من زاوية الشرك يبطل انتفاعه ويفسد استفادته، حيث إن الشرك يفسد كل الغايات ويبطل كل المقاصد ويصرف النظر عنها بل يوجه النظر إلى الأسباب ويركز عليها، وهذا ما يعادي التوحيد. وكذا حصر الهمة في الإستفادة الشخصية حيث إن الكون

يقوم على التعاون والتكامل، لهذا تستحيل الاستفادة الاجتماعية من معرفة المقاصد إذا فني المستفيد، كما أن التعلق بالدنيا ومفاتنها يمنع رؤية المقاصد والاستفادة منها بحيث يحسب أن العلة الغائية في الحياة وبقائها.

ثم تناول عرضت ورقة د. محمد حمد كنان ميغا من الجامعة الإسلامية بالنيجر الموسومة بـ: ''اللذة والألم في فكر بديع الزمان سعيد النورسي''، وفي سياق كلامه عرف مفهوم اللذة والألم، وأنهما من المتقابلات والثنائيات المتناقضة التي عرض لها النورسي في رسائله مثل الجنة والنار والهداية والضلالة والسعادة والتعاسة والحياة والموت، وأن اللذة عبارة عن المنفعة والمصلحة، وتضمنت الورقة بيانا لما نهجه النورسي في تحليلاته للمتقابلات الواردة في القرآن الكريم، أبرز الباحث حقيقة اللذة والألم والطريق إليهما في فكر النورسي، حيث إن الضلالة تعتبر صورة مصغرة للجحيم المعنوي للكافر في الدنيا وإن بدا للناظر أنه في رفاه ونعيم وأن في الإيمان نعيما معنويا في الدنيا أيضا بالرغم من الضيق والشقاء الذي قد يصيب المؤمن، ثم تطرق في معرض بحثه إلى اللذة والطريق إليها في فكر النورسي، وبين العرض أنّ الأستاذ قسّم اللذة إلى قسمين لذة دنيوية وهي قليلة وآنية وقصيرة الأجل فلا ينبغي للعاقل أن ينحاز إليها بكليته، واللذة الأخروية الدائمة. أما الطريق إليها فلا يتحقق إلا بالإيمان بالله وحده، فهو الذي يضمن للإنسان تلك اللذة الدائمة. أما الألم عند النورسي فهو المضرة والمفسدة وهو بدوره ينقسم إلى دنيوي وأخروي مثل اللذة تماما، وآلام الدنيا كثيرة منها آلام الماضي وآلام الحاضر والمستقبل والآلام الناتجة من زوال اللذات... والطريق إليه في فكر النورسي هو ضد الطريق المؤدي إلى اللذة ألا وهو الكفر، لذلك يرى النورسي أن الكفار يعيشون في جحيم معنوي وإن بدا للناظر أنهم يتمتعون بنعيم الدنيا.

ومن الورقات البحثية التي عرضت في الندوة ما تقدّم به الباحث السوري ماهر الهندي من معهد جمعية الفتح الإسلامي بدمشق العاصمة السورية، فكان عنوان بحثه: ''مقاصد الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها في منهج بديع الزمان النورسي''، عرّض الباحث في مستهل ورقته بمقاصد الشريعة، فذكر أنّها تمثّل أصولها الكبرى وأسسها العظمى وأركانها التي لا تبلى، وبناء عليها يكون الحكم على فروعها المتغيرة حسب الزمان والمكان مراعاة لحالة الإنسان. كما تطرق في بحثه إلى تعريف علم المقاصد باعتباره علما يعنى بالغايات التي راعاها المشرّع في التشريع أو هي المعاني والأهداف الملحوظة للشارع في جميع أحكامه أو معظمها، وأشار إلى تاريخ هذا العلم وسرد

مراحله من مرحلة النشأة والتكوين إلى مرحلة التحول والتدوين ومنها إلى مرحلة الإكتمال والنضج. ثم انتقل إلى الحديث عن فوائد هذا العلم والتي جمعها في أربع ة عُمد: العلم بها يشير إلى الكمال في التشريع والأحكام، وثانيها أن العلم بها يفيد معرفة مراتب المصالح والمفاسد ودرجات الأعمال في الشرع والواقع، وثالثها أن العلم بها نافع في تعدية الأحكام من الأصول إلى الفروع ومن الكليات إلى الجزئيات، ورابعها أن العلم بها يزيد النفس طمأنينة بالشريعة وأحكامها. وبعد ذلك حاول الباحث إثبات كون الشريعة مبنية على مقاصد وذلك من خلال الأدلة النقلية بكلا نوعيها العام والخاص، وكذا النظرية والعقلية بوجهيها الاستقرائية والتحليلية. ثم تطرق إلى طرق معرفة المقاصد وأشار فيها إلى اختلاف العلماء في مسالك إثباتها، توقّفت الورقة مليا عند أنواع الاستقراء المطبقة في علم المقاصد، فذكر الباحث أنّها تنقسم إلى نوعين: استقراء الأحكام التي عرفت عللها واستقراء أدلة أحكام اشتركت في علة. ثم انتقل إلى بيان مراتب مقاصد الشريعة حيث تتفاوت مراتبها لتباين آثارها واستقر الإصطلاح على أنها ثلاث مراتب وهي مرتبة الضروريات وقد حصرها العلماء في ست وهي: الدين والنفس والنسب أو النسل والعقل والمال والعرض وللمحافظة عليها أقام الشرع حدودا من العقوبات، ومرتبة الحاجيات وهي ما يتعلق بالحاجة العامة ولا تنتهي إلى حد الضرورة كما عرفها إمام الحرمين، والحكمة منها ترجع إلى شيئين أولهما رفع الحرج والمشقة عن المكلفين والثاني تكميل الضروريات وحمايتها، ومرتبة التحسينيات وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات، أما الحكمة منها فترجع إلى شيئين وهما تكميل الضروريات والحاجيات وحمايتها، ثم أشار إلى أن مقاصد الشريعة تنقسم إلى قسمين المقاصد العامة وهي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، والمقاصد الخاصة وهي المقاصد الأصلية والتبعية من جهة المرتبة في القصد، وأما من حيث كونها اعتبارية أو حقيقية فقد قسمها الفقهاء إلى معان حقيقية ومعان عرفية عامة. بعد ذلك تناول نماذج من تطبيقات مقاصد الشريعة في منهج الأستاذ بديع الزمان النورسي فأشار إلى أن النورسي قد ضم في معظم رسائله روح المقاصد، فقد طبق مقصد حفظ النفس من خلال صده للأعداء وتحمله للسجون والتعذيب من أجل الحفاظ على القرآن الكريم وإنقاذ الإيمان، فضحى بنفسه لتسلم العقيدة. لقد استعمل النورسي مصطلح المقاصد الإلهية تعبيرا عما لاح له من ذلك الأمر من القرآن الكريم أهم مصدر للحقائق الإيمانية والكونية، وهي الحقائق التي يكتشفها ويخلص إليها كل متدبر في كتاب الله عز جل، كما

استعمل الأستاذ رتبة المقصد الحقيقي بمعنى مقصد المقاصد وصرح بهذا المعنى في سياق تعليقه على الشرور والقبائح الجزئية المبثوثة في الكون، أما في إثبات التفاوت بين المقاصد، فذكر أنه يضحي بالمقصد المهم أمام ماهو أهم منه، فيضحي بالنفس في سبيل حقائق الشريعة، ومن شواهد هذا المعنى قوله: ''لو كان ألف روح لكنت مستعدا لأضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة''.

إحسان قاسم الصالحي من مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم بتركيا، شارك بمداخلة عنوانها: ''نماذج من تطبيقات مقاصدية للنورسي في حياته''، تطرق فيها إلى بعض النماذج التي راعى فيها النورسي المقاصد في حياته الاجتماعية، ومهّد للبحث بنبذة مختصرة عن حياة النورسي ألقى فيها الضوء على حياته، قاصدا النبيه إلى سيرته الحفالة، التي نستشف منها المعالم الكبرى لدعوته وفكره، وتيسّر للقارئ فهم مذهبه ومسلكه في حياته، فتطرق إلى ملامح الفترة التي عاشها النورسي بعد سقوط الخلافة العثمانية، حيث الاستبداد والطغيان والظلم، فكان دوره كبيرا في العمل على إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وفي هذا المعنى يمكن أن نفهم بيسر قول أحدهم: ''ترى أي مصير رهيب كان ينتظر تركيا، لو لم يقيّض الله سبحانه وتعالى لها هذا الرجل، في وقت بدأت فيه فؤوس الحقد ومعاول الهدم تعمل على زلزلة الإيمان وتقويض بنيانه ومسح آثاره من البلاد''، وبعد سرده المختصر لحياة هذا العالم الجليل، انتقل إلى إبراز الحكم والمقاصد التي يتوخاها من خلال النماذج التطبيقية مباشرة وهي:

لم يشترك ولا عاون في حادثة الشيخ سعيد: في الفترة التي عادت فيها الجمهورية الدين وحاربته، قامت ثورات ضد النظام الحاكم، وقد قاد الثورة في الأقاليم الشرقية الشيخ سعيد بيران الذي كان شيخا للطريقة النقشبندية وزعيما بارزا بين العشائر الكردية، وقد أرسل للاستاذ سعيد النورسي قبل اندلاع الثورة يطلب منه الإشتراك معه فيها، لكن النورسي رفض ذلك مؤكّدا له عدم رغبته في سفك دماء المسلمين من الأبرياء، وليس ذلك فحسب بل ثبطه عن القيام بالثورة ونصحه حتى جعل العديد ممن عزموا القيام بالثورة على التراجع. وقال لهم إن تطبيق الشريعة لا يكون بهذه الطريقة.

رفضه الهدايا: من دأب الأستاذ النورسي أنه أخذ على نفسه ألا يقبل الهدية من أحد ولم يقبلها قط، وفي هذا قال: ''لقد كنت أرفض قبول أموال الناس وهداياهم منذ نعومة أظفاري، فما كنت أتنازل لإظهار حاجتي للآخرين رغم أني كنت فقير الحال

وفي حاجة إلى المال، وما كنت زاهدا ولا صوفيا ولا صاحب رياضة روحية، فضلا عن أنني ما كنت من ذوي الحسب والنسب والشهرة''. وقد علّل هذا الميل في التصرف بقوله: ''إن السبب المهم للاستغناء عن الناس هو ما يقوله ابن حجر الموثوق حسب مذهبنا الشافعي: ومن أعطي لوصف يظن به كفقر أو صلاح أو نسب بأن توفرت القرائن أنه إنما أعطي بهذا القصد أو صرح له المعطي بذلك وهو باطنا بخلافه حرم عليه الأخذ مطلقا، ومثله ما لو كان به وصف باطنا لو اطلع عليه المعطي لم يعطه. وأضاف حادثة رائعة وهي أن صديقا حميما له وهو تاجر أتى بمقدار من الشاي يبلغ ثمنه ثلاثين قرشا فلم يقبل لذا قال لا تردني خائبا يا أستاذي، لقد جلبته لك من إستانبول فقبلته ولكن دفعت له ضعف ثمنه، فقال: لِمَ تتعامل هكذا يا أستاذي ما الحكمة فيه؟ قلت: لئلا أنزل قيمة الدرس الذي تتلقاه –وهو بقيمة الألماس- إلى قيمة قطع زجاجية تافهة. فإنني أدع نفعي الخاص لأجل نفعك أنت''. إن عدم قبول النورسي للهدية رغم أنها لاحرج فيها وأنه كما هو معلوم لدى الجميع أن الرسول الأعظم ﷺ كان يقبل الهدايا ودأب المسلمون على قبولها إلى يومنا الحاضر، فالنورسي يحجم عنها لسبب الآتي: إن الدرس الذي يتلقى من أستاذ اضطر لأخذ الصدقات وإلى التصنع للأغنياء وإلى التضحية حتى بعزته العلمية في سبيل جلب أنظار الناس إليه فمال إلى الرياء أمام الذين يتصدقون عليه، وبهذا جوّز أخذ ثمرات الآخرة في الدنيا: إن هذا الدرس يهون في هذه الحالة إلى مثل قطع زجاجية.

إبتعاده عن السياسة وعدم تقربه منها: وجهت له أسئلة كثيرة حول ابتعاده عن السياسة وأجاب عنها كلها فقال: ''رأيت ذات يوم رجلا عليه سيماء العلم يقدح بعالم فاضل، بانحياز مغرض حتى بلغ به الأمر إلى حد تكفيره وذلك لخلاف بينهما حول أمور سياسية، بينما رأيته قد أثنى في الوقت نفسه على منافق يوافقه في الرأي السياسي، فأصابتني من هذه الحادثة رعدة شديدة، واستعذت بالله مما آلت إليها السياسة وقلت: ''أعوذ بالله من الشيطان والسياسة''. ومنذئذ إنسحبت من ميدان السياسة.

بقاؤه عزبا: بقي بديع الزمان عزبا، لأجل خدمة الإيمان والقرآن بشكل أكثر حرية، فلو تزوج لكان حينذاك قد ظلم زوجته وأولاده، لأنه قضى ثلث عمره متنقلا بين السجون والمنافي، لذلك لم يتزوج، بل لم يجد لذلك فرصة.

فتلاه أ. د. عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي... ثم تلاه د. محمد الوثيق من كلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب...

ولا ننسى أن نذكّر مرة أخرى أن هناك بحوثا أخرى قيمة تستحق القراءة ولكن نظرا لأن المجال لا يسمح بالحديث عنها والصفحات المخصصة لقسم القراءات في الكتب لا يستطيع استيعابها تركنا للقارئ الكريم الفرصة للإطلاع عليها في الكتاب الأصلي.

* * *

المؤتمرات والحلقات الدراسية

نظمت يوم الأحد الموافق لـ ١١ من ديسمبر ٢٠١١م، ندوة دولية حول رسائل النور بجامعة المذاهب الإسلامية بطهران، العاصمة الإيرانية، أقيمت فعاليات المؤتمر بقاعة المحاضرات بالجامعة، وقد حاضر وشارك في الفعاليات عدد من كبار العلماء والباحثين من تركيا وإيران.

انعقدت الندوة بطلب من وزارة الثقافة الإيرانية ومساهمة من مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم بالتنسيق مع جامعة المذاهب الإسلامية بطهران، ويعد هذا اللقاء العلمي فاتحة التواصل مع رسائل النور في إيران، إذ لأول مرة يستضاف النورسي في جامعة إيرانية.

حضر من تركيا مجموعة من الأساتذة على رأسهم طالب الأستاذ بديع الزمان النورسي الأستاذ محمد فرنجي، وتتكون المجموعة من ١٤ أستاذا أكاديميا وباحثا علميا، ومن بين من حضر مترجم رسائل النور إلى العربية الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ومدير مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم أ.د. فارس قايا و أ.د. بنيامين دوران و أ.د. نشأت طوقو وغيرهم من الأساتذة.

وحضرت الندوة شخصيات سياسية، منها سعادة سفير تركيا في إيران السيد أميد ياردیم.

وقد تولدت فكرة هذه الندوة انطلاقا من المؤتمر العالمي التاسع، بل هي ثمرة من ثمرات المؤتمر العالمي التاسع الذي عقد بإستانبول وحضره عدد كبير من الأساتذة الإيرانيين، وعنه تمخّض التنسيق بين المؤسسة والجامعة من أجل تبادل الرؤى في موضوع رسائل النور وأفكار الأستاذ بديع الزمان النورسي، والاستفادة منها في إيجاد حل للشباب الإيراني وإسعافه للخروج من المتاهة التي يتخبط فيها كما ذكر المنظمون، حيث ذكر الأساتذة كيف أن عدد الشباب الأتراك المتدينين يتزايد ويزداد إيمانهم بسرعة، ويرتقي من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي، في حين أن

الشباب في إيران يعانون من ظاهرة ضعف الإيمان التي تصل بهم حدّ الابتعاد عن الحد الأدنى في التدين.

عبّرت الندوة عن رغبة أكيدة للاستفادة من الإجابة عن السؤال الآتي: ما الذي يدعو الشباب الأتراك إلى الإقبال على الإيمان والدين بقوة بالرغم من علمانية الدولة، ونفور الشباب الإيراني من الدين وابتعادهم عنه بالرغم من أنهم في جمهورية إسلامية؟ وبعد أن دقق الأساتذة في رسائل النور خلصوا إلى أنها مفيدة للشباب ولا تستطيع دولة أن تمنع تأثيرها فيهم لأن أسلوبها الرائع وأفكارها المفيدة لا يمكن الاستغناء عنها أبدا. من هنا جاءت فكرة انعقاد هذه الندوة حتى تكون فرصة للشباب الإيراني التعرف على رسائل النور بشكل أقرب وأعمق.

افتتحت الندوة على الساعة التاسعة صباحا بآيات بينات من الذكر الحكيم، وكان أول المتحدثين رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الكريم بي آزار شيرازي، الذي أشار في مداخلته، بعد الشكر والترحيب، إلى ما قدّمه الأستاذ النورسي للمجتمع، فقال: ''لقد ساهم بديع الزمان في الفترة الحرجة التي عاشتها تركيا في تحبيب القرآن للشعب التركي خصوصا الشباب، وأضاف بأن سعيد النورسي شخصية عظيمة ليس فقط على مستوى تركيا، بل في العالم الإسلامي أجمع، وسعيد النورسي يربأ بنفسه عن كل الحزازات وكل المشاكل التي تولدت بسبب اختلاف المذاهب والرؤى، وبدلا من أن يذكر أسباب الفرقة والاختلاف، كان يشير باستمرار إلى الوحدة والاتفاق بين المسلمين كافة، وفي ظل الظروف الحرجة التي عاشتها تركيا ساهم النورسي في تحبيب القرآن للشعب التركي وساهم بشكل كبير في تفهيمه وعرضه على أرض الواقع وخاصة في نظر الشباب، كما كشف أيضا التأثير البالغ للأسماء الحسنى للأخلاق، حيث كان النورسي شديد العلاقة بالجوشن الكبير الذي هو دعاء نبوي عظيم يضم ألفا من الأسماء والصفات الإلهية مثلما القرآن الكريم يؤكد عليها في نهاية الآيات الكريمة.

وبعده أخذ الكلمة السيد ''كول أمالي حداد عادل'' الرئيس السابق للبرلمان الإيراني أفاد خلالها أن الإيرانيين لا يعلمون عن الأتراك شيئا كثيرا وكذلك الأمر بالنسبة للأتراك، بمعنى أنهم لم يتعرفوا بعضهم على بعضهم بشكل كاف، مشيرا إلى أن هذا أمر غير محبذ، كما أشار إلى أن التعرف على شخصية سعيد النورسي عن

قريب ستوضح كثيرا من القضايا العالقة في الأذهان وستجد الأجوبة الشافية للعديد من الأسئلة المعروضة في الواقع.

بينما أشار السيد ''آية الله محمد علي التسخيري'' الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في بحثه الموسوم "الإمام النورسي من خلال لمعاته في رسائل النور" إلى أن سعيد النورسي كان يكن حبا خاصا بل عشقا لآل البيت، لا إفراط فيه ولا تفريط، وقد خص في رسائله مبحثا كبيرا سماه بالمعجزات الأحمدية يخص معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، كما تناول آل البيت في مباحث متفرقة من رسائله رسائل النور.

وبعده أشار "السيد هادي خسرو شاهي" رئيس مركز الدراسات الإسلامية إلى أنه قد تعارف مع طلاب سعيد النورسي منذ الخمسينيات وأظهر وثائق في تأييده برسائل أتته من عبد الله يكن طالب النور في أورفا وما زال النورسي قيد الحياة وبيّن أن النورسي رجل دين ومفكر كبير بحث عن مخرج لما يعانيه العالم الإسلامي من مشاكل شتى.

تلته مجموعة من المحاضرات قدمت من قبل علماء أتوا من أرومية (إيران) ومن تركيا، ونشير هنا إلى بعضها فقط:

ذكر عضو هيئة التدريس بجامعة جلال بايار أ.د. بنيامين دوران في مداخلته أنّ المسلمين بحاجة إلى حضور لأجل التعاون فيما بينهم، وفي هذا المعنى قال: ''في الوقت الذي يُنتظر من المسلمين أن يسهموا في أمورهم المادية والمعنوية لازال ينقصهم الكثير في هذا المجال؛ بسبب تضييعهم التعارف فيما بينهم بشكل كاف''، وأفاد فيما يخص قابلية شباب إيران للاستفادة من رسائل النور، بقوله: إنني أعرف كثيرا من المفكرين وقرأت لهم جيدا، وأن إيران تتمتع بحضارة عريقة وبسبب التراكم الثقافي فإنه يرى أن الإيرانيين سيوفّقون إلى فهم رسائل النور، واستخلصت ذلك من العروض والبحوث التي قدمها أساتذة من إيران في هذا المؤتمر، وجدت في كل البحوث التي قدّمها الإيرانيون زارعة بذور الأمل، ولهذا فإن خدمة الإيمان والقرآن وهي خدمة رسائل النور ستجد المجال الأوسع في إيران في المستقبل وسينشأ بإذن الله جيل يهتم بها في كل المناطق الإيرانية ويستفيد منها ويفيد أيضا.

أما من جامعة سقاريا بتركيا فقد تحدث د. ''نيازي بكي'' بداية عن رسائل النور مشيدا بها باعتبارها تفسيرا معنويا للقرآن الكريم، كما تحدث عن وجوه الإعجاز

وأسرار القرآن، وأن آل البيت هم الذين يعيشون السنة النبوية معايشة، وأن الذين لا يتبعونها لا يمكنهم أبدا أن ينتسبوا أو يُنسبوا لآل البيت، وأشار أيضا في محاضرته إلى كون سعيد النورسي عالما من العلماء الذين كرسوا حياتهم لخدمة القرآن الكريم وجعلوه هدفا أسمى في حياتهم، فسعوا إلى تبليغ معانيه لأجل المحافظة على إيمان الناس كافة وإنقاذهم من السفاهة والضلالة.

أما من جامعة إسبارطة فقد تحدث د. إسحاق أوزكيل عن كون رسائل النور تفسيرا معنويا للقرآن الكريم، وأوضح أهم ما تميّزت به عن التفاسير القديمة من جهة طريقة تناول القضايا الإيمانية، كما أشار إلى أن شباب هذا العصر محتاجون للرسائل قراءة وفهما واستيعابا لما تتضمنه من حلول لمشاكلهم الواقعية، وقد أبدع الأستاذ في استحضار الواقع الذي يمثّل تجليات ظاهرة لأسماء الله الحسنى، فكان تناولها متكاملا ومفصلا وواقعيا.

أما الأستاذ علي قاطي ئوز من مانيسا فقد عرض في محاضرته لموضوع الوحدة بين المذاهب الإسلامية، وأشار إلى أن كل المذاهب تجتمع تحت مظلة واحدة وتستظل بسقف واحد وهي نابعة من مصادر واحدة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما أشار إلى أن ما يجمع المذاهب الفقهية الإسلامية كثير، واختلافها لا يطال إلاّ بعض الفروع، التي تُعَد مظهرا من مظاهر سماحة هذا الدين وسعته وكذا استيعابه لكل الأفهام، عرّج بعدها المحاضر على بيان طريقة رسائل النور في عرض حقائق القرآن، فأكّد على أنّها عرضت بشكل منطقي وعقلي وواضح في أسلوب رائع ينم عن عمق فكر سعيد النورسي في تفسيره المعنوي والعصري المسمى برسائل النور.

وحاضر من جامعة أرجيس د. أحمد قاياجق، الذي أشار إلى تناول رسائل النور لقَصص الأنبياء عليهم السلام وأدعيتهم المبثوثة في القرآن الكريم، كقصة سيدنا يونس وقصة سيدنا أيوب عليهما السلام ودعائهما، كما نبّه إلى ما أشار القرآن الكريم إليه بأسلوبه المعجز من لفتات رائعة وراقية ودقيقة، منها إشارته إلى القدرة الإلهية على تخليص الإنسان بالرغم من اتحاد الأسباب كلها ضده، ثم أكد على ضرورة فهم هذه القَصص في عصرنا هذا وأن نربط تلك الأسباب المذكورة في القرآن بأسباب العصر التي تواجه كل أحد منا، كما استطاعت رسائل النور أن تربط ذلك بالواقع وأن تحلل تلك القَصص وفق واقعنا الحالي، فتجلت منها قصص حية كأنها تقع في واقعنا الراهن

نعيشها ونعايشها، فنستجلب منها الدروس والعبر كأنّها وقعت لأشخاص من بيننا وفي زماننا.

وأخذ الكلمة بعدها د. نشأت طوقو فأوضح فيها أنه لأجل التغلب على الفكر الغربي والمدني وإسكاته لابد من وسيلة إقناع، وبغير الإقناع لا يمكن ردع تلك الأفكار الخاطئة التي يحملونها ويتشبثون بها، كما أشار إلى أن الترقي المادي وحده لا يكفي للعيش بسعادة وهناء فلا بد أيضا من النمو الروحي والرقي المعنوي حتى يعيش الإنسان بسلام وأمان، فالمدنية والعلوم والصناعة وحدها لا توفر للإنسان السعادة الداخلية، بل الرقي المادي والمعنوي يصنعان الرقي المعنوي، ولهذا فكر سعيد النورسي في إنشاء جامعة في شرقي الأناضول تساير الجامعات الغربية وتدرس العلوم الدينية بجانب العلوم الحديثة من فيزياء وعلوم طبيعية وغيرها، لأن تدريس العلوم الدينية بمعزل عن العلوم الحديثة في الجامعات والمؤسسات العلمية عامة يجعل المتخرجين غير مسايرين تماما لواقعهم، فتكون بذلك المعلومة عرجاء إما دينية فتنتج التعصب أو دنيوية فتنتج الإلحاد.

أما من جامعة بورصة فقد أوضح د. محمد جلنك أن بديع الزمان علم كبير وشخصية عظيمة استطاع أن يصوغ الإنسان الجديد من خلال تفسيره المعنوي رسائل النور، فقد أعطى من خلال الرسائل نظرة أخرى جديدة، واهتم بالتركيز على آل البيت من خلال مباحث عديدة في الرسائل وأن المشاكل الحاصلة اليوم بين السنة والشيعة إنما تولدت بسبب الإفراط الشديد في الحب من طرف الشيعة وكذا بغضهم لباقي الصحابة الكرام. فلو اعتدل الشيعة في رأيهم وطرحوا القضية للنقاش مع السنة بروية ومن غير تطرف وبدون تعصب لاستوت الأمور على حالها الذي يراد لها من قِبَل الجميع ورجعت المياه إلى مجاريها.

وأبرز د. عبد الحليم أولاش في مستهل كلمته أن هذه المرحلة هي بداية إرهاصات بعث الحضارة الإسلامية وتفوقها على باقي الحضارات، وهي المتفوقة أساسا من المنظور المعنوي، كما أشار أيضا إلى ضرورة التركيز على مفهوم الحريات العامة لأنها تعتبر من أهم الأسباب الرئيسية للتفوق والتقدم للأمام.

وبعده أخذ الكلمة د. يونس جانكال عميد جامعة يلدز التقنية، فأشار إلى أنه لكي يكون الإنسان قويا ومستقلا وصاحب الكلمة في كل الأرجاء لابد له من أن يتضلع في سائر العلوم وأن يكون له باع طويل في شتى الفنون وأن يكون قويا في المجال البحثي

والعلمي، لذلك فمن بيده مفاتيح هذه العلوم يستطيع وحده أن يسير العالم وأن يتحكم في كل القوى التي تسيّر دواليبه، لقد أشار إلى هذه الحقيقة بديع الزمان منذ حوالي ثمانين سنة لذلك ركز هو بنفسه على المزج بين العلوم في ميدان التعليم، وأكّد على رفض الفصل بينها لأنّ بعضها مكمّل لبعض.

أما مدير مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم د. فارس قايا، فقد عبّر في بداية محاضرته عن شكره العميق وامتنانه الكبير لكل المسؤولين الذين ساهموا في دعوة المؤسسة وباقي الأساتذة القادمين من تركيا إلى هذه الندوة العلمية الدولية، وكانت الفرصة سانحة للتعريف ببعض مكارم الأخلاق التي تحلى بها سعيد النورسي، فقد كان رحمه الله مقتفيا آثار سنة النبي الكريم ﷺ متّبعا لها، فكانت رسائل النور دعوة ملحّة للمجتمع وعلى رأسهم الشباب إلى اتباع السنة، التي هي عنوان التحلي بكل ما هو حسن وطيب، أشار بعدها المحاضر إلى الخدمات العديدة التي تقوم بها المؤسسة مثل خدمة رسائل النور بكل الأشكال وعلى كل الأصعدة، كما أشار كذلك إلى المؤتمرات الدولية التي تنظمها المؤسسة في الداخل والخارج والتي تجاوز عددها السبعين في أكثر من أربعين دولة.

وفي الكلمة الختامية تقدم د. فارس قايا بالشكر مرة أخرى لكل من ساهم في تنظيم هذه الندوة وكل الأساتذة المشاركين والحضور الكريم، كما عبر عن سعادته بالأخوة الغامرة التي شعر بها الوفد التركي، الذي غمرته حسن المعاملة والضيافة الكريمة والاهتمام البالغ الذي شملهم به الإخوة الإيرانيون من السيد العميد وحضرات الأساتذة المنظمين وغيرهم.

* * *

النشاطات العلمية المستقبلية

مختبر الحضارة بكلية الآداب بالجديدة ومؤسسة إسطمبول للثقافة والعلوم، **ينظمان** الدورة الثالثة للتفسير الأدبي للقرآن الكريم **في موضوع:** قضايا البلاغة والإعجاز البياني في كليات رسائل النور.

ويعقد اللقاء العلمي برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة مدرج التاودي بن سودة، وذلك بتاريخ ١٤٣٣/٦/١٧هـ الموافق لـ ٨-٩ مايو/أيار ٢٠١٢م.

التعريف بالنشاط: لازال البحث يتجدد على الدوام في فكر الأستاذ بديع الزمان النورسي، حيث المجالات العلمية والأدبية في رحاب كليات رسائل النور مستمرة في الحياة النابضة بالإيمان، مترسمة خلودها عبر الزمان بخلود القرآن العظيم الذي لا ينضب ولا تبدله حادثات الأيام.

ومن هنا خرجت فكرة هذه الندوة مستبصرة من الفكر النوري، لتتعدى إلى ميادين الأدب واللغة، متوخية بذلك الجوانب الأدبية والبيانية والبلاغية في رسائل النور.

والغرض من ذلك هو الوقوف على مزايا هذه الجوانب ووظائفها في تفسير كتاب الله تعالى، وهي التي وظفها الأستاذ بديع الزمان خير توظيف في تقريب المعاني القرآنية، وتبصير الناس بأحكامها في قوالب أدبية وبيانية مشوقة، تنشدُّ إليها النفوس، وتهفو إليها القلوب، فتأخذ بالألباب، وتحلق بالوجدان في أسرار البلاغة والإعجاز.

ومرجع هذا التفسير الأدبي للقرآن الكريم المبثوث في ثنايا رسائل النور هو الموهبة الربانية للأستاذ بديع الزمان، المتفتحة بنور القرآن العظيم، والناظرة في خلق المخلوقات بنظر البصيرة النافذة، والمنهج العقلي السديد، والمعرفة البلاغية العميقة، والذوق الأدبي الرفيع، ابتغاء الكشف عن أسرار كتاب الله تعالى، وتجلية حقائق الإنسان والكون من خلال آياته الباهرة. لقد تبدت من خلال رسائل النور موهبة الأستاذ النورسي الأدبية الواسعة والمطلعة بفنون الأدب والبلاغة والمتمكنة من أسرار اللغة العربية، إضافة إلى اطلاعه الواسع كذلك على العلوم الإسلامية والفلسفة والفكر وغيره من المعارف اللازمة. وخير دليل على هذه الموهبة النورية المتميزة هو اجتهاد

النورسي في تطبيق نظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني تطبيقا يثبت إعجاز القرآن البلاغي والبياني، ليكشف بذلك علاقة المباني بالمعاني في الأسلوب القرآني الذي أعجز الفصحاء، وتحدى البلغاء، تحقيقا للتحدي المعجز إلى يوم القيامة. ولم يجد العقلاء من أهل الفصاحة والبيان إلا الإيمان الحق بهذا القرآن العظيم، والاعتراف بأنه خاتمة الرسالات التي جاء بها رسول الإنسانية بوحي من ربه، ليشرع للناس دستور الحياة الإسلامية لأمة وصفها الله بخير أمة أخرجت للناس تأمر بالعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله، وتحقق بذلك العبودية الخالصة.

محاور الندوة:

١- التفسير القرآني في رسائل النور: التفسير الأدبي لمعاني القرآن الكريم.

٢- لغة الرسائل الأدبية بين التركية والترجمة إلى العربية: البيان التفسيري.

٣- تفسير الآيات الكونية والعلمية في رسائل النور: القرآن والعلوم.

٤- الأسلوب الأدبي والبياني عند بديع الزمان النورسي.

٥- تحليل النورسي لنظم القرآن وإعجاز تأليفه.

٦- علاقة التفسير الأدبي بغيره من أنواع التفسير في رسائل النور.

٧- مفهوم البلاغة عند النورسي: البلاغة الإنسانية والبلاغة القرآنية.

٨- قضايا البلاغة العربية وجمالية الخطاب وأسس تحليله ودراسته.

٩- قضايا الإعجاز البياني في بعض كليات رسائل النور.

١٠- الظاهرة الأدبية والأسلوبية في رسائل النور.

١١- مقارنة البلاغة العربية بالأسلوبية المعاصرة في رسائل النور.

١٢- الخطاب الأدبي في رسائل النور: مقوماته وأشكاله ووظيفته.

١٣- العلاقة بين مصطلح ''البلاغة'' ومصطلح ''الخطابة'' في رسائل النور.

* * *

الاستكتاب للأعداد القادمة

تسعد إدارة مجلة ''النور الدراسات الحضارية والفكرية'' باستقبال إسهامات الباحثين، وأمل المجلة في الله كبير ثم أملنا –بعد الله- معقود على حضوركم مشرقا ومغربا عربا وعجما في الأعداد القادمة، منتظرين بحوثا منضبطة في منهجها، جدية في مضمونها، ملتزمة بشروط النشر المبيّنة في المجلة نفسها، كما ننتظر المجلة مقترحات تحسين الأداء واستجلاب الفعالية المنشودة، وبهذا الصدد نحن بحاجة إلى مساعدتكم في مقترحات مواضيع ملفات الأعداد اللاحقة، أو ما ترونه صالحا للتطبيق في قابل الأيام، سواء تعلّق الأمر بالمضمون أو المنهج أو النواحي الفنية، وأخيرا فبحسب ما تجودن به من بحوث سيختار ملف العدد القادم.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

* * *

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضاءين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلْزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الاشتراك السنوي (عددان)

الاشتراك في تركيا: .....٢٠ ليرة تركية
الاشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: .....١٥ دولار أمريكي
الاشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: ....٣٠ دولار أمريكي

العنوان للاشتراك

عبد الكريم بايبارا kerimbaybara@gmail.com
شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع جعفر الصادق – الحي السابع
مدينة نصر– القاهرة – جمهورية مصر العربية
تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk.
No: 6, VEFA 34134 Fatih
ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla. com
www. nurmajalla. com

Contents

Editorial

- Prof. Dr. Amar Djidel: Introductory Note....3

Miscellaneous Studies

- Prof. Dr. 'Abd al-Halim Uwais: Nursi's Views on Some Critical Matters Related to Civilization....9
- Prof. Dr. Muhsin 'Abd al-Hamid: Some Characteristics of Renewal in Nursi's Thought....29
- Ilyas Belka: Divine Justice and the Problem of Evil in Nursi's Thought....41

Dossier

- Prof. Dr. al-'Arabi Buselham: The Intellectual and Civilizational Foundations of the Risale-i Nur....69
- Prof. Dr. 'Abd al-Majid al-Najjar: The Contractual Dimension of the Human Constitution in Nursi's Thought....89
- 'Aburrahman Tayyibi: Attaching Importance to the Prolonging of Life: The Question of Restoring to the Umma the Duty of Martyrdom According to Nursi....107
- Prof. Dr. Sabaheddin Zaim: The Vision of Civilization in the Treatise on Frugality....127
- Prof. Dr. Qutb Mustafa Sano: An Analytical Reading of Nursi's Theory of the Western Question: The Islamic World and the West: Dialogue and the Exchange of Ideas....145

Interviews, Publications and Conferences

- Interview: An Interview with Ustad Bediuzzaman Nursi....169
- Publications: A reading of the book: The Fiqh of Nursi's Objectives and Philosophy....187
- Conferences and Study Circles: Conference on the Risale-i Nur in Iran....199
- Forthcoming academic activities....205
- Request for papers....207
- Information about publication of articles or papers in the Journal....208